فِي رِحَابِ الرَّسُولِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم

بقلم

الشيخ محمد حسن آل ياسين

www.aljawadain.org

فِي رِحَابِ الرَّسُولِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

المطبعة العربية - بيروت

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

في رحاب الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم

بقلم

الشيخ محمد حسن آل ياسين

سورة الفاتحة

الى ارواح المؤمنين والمؤمنات

والى روح المرحوم المبرور

الحاج علي رشيد الفاضل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بَعَثَ فيهم رسولاً من أنْفُسِهم يَتْلو عليهم آياتِهِ ويُزَكِّيهم ويُعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مُبين﴾ ، ﴿هو الذي أرْسَلَ رَسولَه بالهدىٰ ودينِ الحقِّ ليُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه ولو كَرِهَ المُشرِكون﴾ ، ﴿ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولهَ يُدْخِلْه جَنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وذلك الفَوزُ العظيمُ ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولهَ ويَتَعَدَّ حُدودَه يُدْخِلْه ناراً خالداً فيها وله عذابٌ مُهِين﴾ ، ﴿ومَنْ يَتَوَلَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإنَّ حِزْبَ الله هم الغالبون﴾ ، ﴿وما آتاكم الرسولُ فخُذُوه وما نَهاكم عنه فانْتَهُوا﴾ ، ﴿وما كانَ لمُؤمنٍ ولا مؤمنةٍ اذا قضىٰ اللهُ ورسولُه أمْراً أنْ يكونَ لهم الخِيَرَةُ من أمْرِهم ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه فقد ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً﴾ .

﴿رَبَّنا آمَنّا بما أنْزَلْتَ واتَّبَعْنا الرَّسولَ فاكْتُبْنا مع الشّاهِدين﴾ .

«صدق الله العظيم»

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وسيد رسله محمد ، وعلى آله الأصفياء الامناء الطيبين الطاهرين .

وبعد :

فهذه صفحات متواضعة تحمل في طيّاتها خلاصةَ محاضراتٍ وُفِّقْتُ الى إلقائها خلال ليالٍ رمضانية من عام ١٣٨٩هـ ، في إطار ما سَمَّيتُه يومذاك : «في رحاب الرسول ـ ص ـ» ، بعد محاضراتٍ سابقة في رمضان متقدم عليه تناولتْ عدةَ موضوعاتٍ قرآنية رئيسة تحت عنوان «في رحاب القرآن» .

والحقُّ أن هذه المحاضرات التي أُقدِّم لها اليوم ـ على تعدُّدها وفسحة لياليها للبيان والتبيين ـ كانت أضيقَ من أن تتَّسع لاستيعاب البحث في تاريخ السيرة ؛ بكل أبعادها الواسعة ؛ ومجالاتها الحاشدة ، وجوانبها الضخمة الممتدة الأطراف ، بدءاً بالمولد الكريم والنشأة المباركة ؛ ثم البعثة الشريفة وماتلاها من شؤون وشجون ؛ ومروراً بما شهده العهدان الحافلان في مكة والمدينة ؛ حتى آخر يومٍ من أيام الإشراق المحمدي الوضّاء .

وبالنظر الى ضخامة الموضوع وعدم كفاية الوقت على سعته لتغطية كلِّ ما يتعلّق به ، لم تستطع تلك الساعات ـ ومن ثَمَّ هذه الصفحات ـ أن تستوعب من جميع ذلك سوى «خلاصاتٍ» سريعة أو «رؤوسِ أقلامٍ» مستعجلة ، حاولتُ فيها الاشارة الى الخطوط العامة لتلك السيرة العطرة ، بلا ادِّعاءٍ لاستيفاء كل أطراف البحث واستكمال جميع جوانبه . وحسبي منها أن تكون مشاركةً أوَّلية في محاولة كتابةٍ منهجية لأبرز موضوعات تلك الحقبة الزاهرة ؛ بما زخرت به من أحداث ، وأغدقتْ فيه على الناس ـ على امتداد التاريخ ـ من خيرٍ وعطاءٍ وانتقالٍ من الظلمات الى النور .

ومع أن هذا الكتاب ـ كما أسلفتُ ـ كان الخلاصة الأمينة أو الزُّبدة الصافية لتلك المحاضرات ؛ فانه لم يخل من إضافةٍ تارة ومن حذفٍ في بعض الأحيان ، تبعاً لما تقتضيه قواعد التحرير وطبيعة التأليف ، بما تختلف فيه بعض الشيء عن مقتضيات الحديث الشفهي القائم على الاسترسال والتبسيط . وكان من جملة تلك الإضافات : ذلك التمهيد الذي بدأتُ به الكتاب ؛ لتحديد ما ارتأيتُ أنه الموقف الموضوعي السليم في التعامل مع مصادر السيرة ورواياتها ؛ في ضوء مقاييس النقد والتحليل المختارة .

والله المسؤول أن يتقبَّل هذا العمل بفضله ومَنِّه ، وأن يجعل فيه ما ينفع ويفيد ، ويوفِّق في المستقبل لأمثاله ، إنه المعين لمن استعان به والموفِّق لمن توكَّل عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

محمد حسن آل ياسين

تَمْهِيد

لعل من أغنى المسائل عن الايضاح والتبيين ؛ ما يعلمه جمهور الباحثين والمعنيين بتاريخ السيرة وحقبتها الزمنية المتميِّزة ؛ من أن الروايات المتصلة بموضوعات العهد النبوي الزاهر ؛ منذ بدء التداول للرواية والحديث في تاريخ الاسلام ؛ ثم منذ انطلاقة كتابة التاريخ في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، وامتداداً الى ما بعد ذلك بقرون وحتى اليوم ، كانت من الكثرة والوفرة ما فاق العدَّ والاحصاء ؛ وتجاوز حدَّ ادِّعاء الإحاطة والاستيعاب . ولذلك أصبح من العسير على الباحث مهما بذل من جهدٍ وتحمل من نصبٍ ؛ أن يقف على الجميع وقفة الفاحص المقوِّم ؛ وأن ينظر بمنظار التدقيق والانتقاء لكل المرويِّ والمأثور .

لقد ضمَّت تلك النصوص على وجه القطع واليقين ما هو صحيح جداً بل في أعلىٰ درجات الصحة ، كما كان فيها ما يمكن وصفه بالقبول بوجهٍ عام ويقربه الى الصحة والموضوعية في السرد والعرض ، ولكنَّ فيها ـ على وجه القطع واليقين أيضاً ـ ما هو بعيد كل البعد عن الصدق وحكاية الواقع مما أملته النزغات والأهواء واختلقته العصبيات والأحقاد ، وفيها ـ كذلك ـ ما هو جامع لهذا وذاك أو كائن بينهما ، بما حمل من حق وباطل وسمين وغثٍّ ، كحذفِ فقرةٍ لم يرق للراوي إثباتها أو زيادةِ اخرى لم تكن في صميم النص ؛ وكإضافة اسمٍ من الاسماء الى الخبر المرويِّ أو إغفال اسم كان موجوداً في واقع الأمر .

ولذلك رأيتُ لزاماً عليَّ قبل الدخول في أعماق البحث وقبل البدء في عرض مفرداته التفصيلية ؛ أن اوجز ـ بما قلَّ ودلَّ من الكلام ـ موقفي من تلك الروايات والنصوص التي زوَّدتنا بها المصادر المعنية بالموضوع ، ليكون القارىء الكريم على علمٍ تام بالمنهج الذي أخضعتُ له تعاملي مع النصوص فيما اخترتُ منها أو نبذتُ ؛ والميزانِ الذي اعتقدتُ أنه المتعينُ أو الأرجح بين الموازين في الأخذ والرفض ؛ والقبول والاهمال ؛ والتناول والإعراض .

وكان عصرنا الحاضر قد شهد ـ فيما شهد من عطاء الفكر والثقافة ـ قيامَ عددٍ من الباحثين العرب بتحرير الدراسات والبحوث المعنيَّة بالحديث عن المحاولات الاولى في ظلال الاسلام لكتابة السيرة والتاريخ ؛ وباستعراض أسماء الرواة الأوائل لذلك وروّاد التأليف فيه ، وكان من الممكن لهذه الدراسات المعاصرة أن تسدَّ فراغاً مهماً في المكتبة التاريخية العربية ؛ وتشبع نهماً كبيراً لدى المتعطشين لمعرفة ذلك والمتشوقين اليه ، ولكنَّ هؤلاء المؤلفين ـ كما توضح مصادرهم وهوامشهم ـ لم يأتوا بجديد في الأمر ، بل كانوا عيالاً على مَنْ تقدَّمهم من الأجانب المستشرقين الذين سبقوهم في بحث هذا الموضوع ؛ أمثال «هروفتس» و«سخاو» و«كِبّ» وغيرهم من «كُتّاب» المواد المتصلة بالسيرة ورواتها في «دائرة المعارف الاسلامية» ؛ ممن كانوا يعتمدون في آرائهم وأحكامهم على مقاييس نختلف معهم فيها من الجذر في جوانب كثيرة .

ولقد ضمَّت تلك البحوث العربية والمستعرِبة فيما ضمَّت خليطاً واسعاً من أسماء الرواة والقُصّاص الذين أُسندت اليهم روايات السيرة وأُثرت عنهم أخبارها وأحداثها ، وخليطاً آخر من أسماء مَن زُعِمَ أنهم من ذوي المؤلفات فيها ، مع أن أغلبهم ممَّن لم يثبت له مؤلَّفٌ في هذا الموضوع أو ثبت خلافه قطعاً . وقد أدّىٰ هذا الخلط بين الرواة وبين المؤلِّفين من جهة ؛ وبين الرواة الذين قد يركن الباحث الى نقلهم واولئك المطعون فيهم من جهة اخرى ؛ الى التباس الأمر وتلبُّد المسار وضياع قواعد الفرز والتمييز ، فاختلط الأبيض بالأسود والحابلُ بالنابل(*) .

وكان مما لا مناص منه في مثل هذه الأجواء المضبَّبة أن استعرض في صدر هذا التمهيد أسماء اولئك الرجال الأوائل الذين وُضِعَ بعضهم في عداد رواة السيرة وبعضهم في عداد المؤلفين فيها ، لنعرف مقدار الصواب في كون اولئك مؤلفين وهؤلاء محدّثين ، ومقدار الثقة في مجموع مروياتهم وأخبارهم المبثوثة في المصادر والاصول ، ليكون القبول أو الرفض لذلك مستنداً الى بصيرة وعلم ؛ وقائماً على أساس ثابت لا تردُّد فيه .

(★) قال ابن تيمية : «قد وضع الناس أحاديث كثيرة مكذوبة على رسول الله ـ ص ـ في الاصول والأحكام والزهد والفضائل ، ووضعوا كثيراً من فضائل الخلفاء» منهاج السنة : ٤/٨٤ .

وكان أول مَنْ نُسِب اليه التأليف في السيرة :

عروة بن الزبير (ت بين ٩١ ـ ١٠١هـ)

وقد وصفه الدكتور عبدالعزيز الدوري بأنه «مؤسس دراسة المغازي» ، ونصَّ على كونه «أول مَنْ ألَّف كتاباً في المغازي» ، وكان دليله على ذلك أنه «قد وصلنا شيء من مغازيه في مقتبسات وردت عند بعض المؤرخين . . . . وهذه المقتبسات هي أقدم ما وصلنا من تاريخ المغازي» ، ويضيف الدوري الى ذلك : أن عروة «قد كتب بعض رواياته ، في حين أن بعض كتاباته التاريخية هي أجوبة مكتوبة على أسئلةٍ وُجِّهتْ اليه من البلاط الاموي» .

ثم يقول الدوري بعد حكمه القطعي في كون عروة أول المؤلفين في هذا الموضوع ـ كما تقدم ـ : «ولكن الروايات التي وصلتنا عن عروة قليلة مبعثرة لا تمكننا من الحصول على فكرة واضحة عن مغازيه ؛ أو عن الهيكل الذي انتظمتْ فيه رواياته إنْ وُجِد»[1] .

وذهب الدكتور جواد علي الى مثل ذلك فعدَّ عروة «أقدم مَنْ ألَّفَ في السيرة والمغازي» ، ثم قال : انه «لم يبق من كتاباته شيء سوى ما اقْتُبِس منها في الكتب الاخرى»[2] .

وكان المستشرق هروفتس قد سبق هذين الدكتورين في هذه الأحكام ولم يقدِّم عليها دليلاً الاّ قوله : «وعلى الرغم من أننا لا نجد في أي مرجع قديم أن عروة ألَّف كتاباً حقيقياً عن المغازي ؛ فاننا واثقون انه جمع وأخرج مجموعة أحاديث عن أهم الحوادث في حياة النبي»[3] .

وكلُّ ما دبَّجه هؤلاء الباحثون في كون عروة مؤلِّفاً انما هو حكم متسرِّع لم يقم عليه دليل ثابت ، واذا كان هذا الرجل قد أكثر من نقل أخبار السيرة وشؤونها المختلفة فاننا لم نقف في كلمات القدامى على ما يصحِّح نسبة مؤلَّفٍ اليه في ذلك ، وواضح ان

---

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب : ٢٢ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي : مج ٣/ج١/ ٣٩ .

(٣) المغازي الاولى ومؤلفوها : ٢٢ .

هناك بوناً شاسعاً بين التأليف وبين كثرة الرواية والنقل ، لأن تلك الكثرة مهما بلغت لا تدل على وجود كتاب لذلك الراوي بالمعنى الاصطلاحي للكتاب .

أمّا الموقف الموضوعي من روايات عروة المنثورة في بعض المصادر المعروفة ؛ وتحديد وزنها في معايير التصحيح والتجريح ؛ فيتلخص في عدم الثقة بها وعدم الركون اليها ، لأن عروة «كانت له صلات بالامويين»[٤] وعلاقات وثيقة بهم ، وهو متّهم بمالأته لهم وانحرافه عن خصومهم . وقد روى ابن أبي الحديد المعتزلي : «ان معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ (ع) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه ، وجعل لهم على ذلك جُعْلاً يُرْغَب في مثله ، فاختلقوا ما أرضاه ، منهم : أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ؛ ومن التابعين : عروة بن الزبير» . ثم أورد أمثلةً على ذلك ؛ وكان منها ما جاء مروياً من طريق عبدالرزاق عن معمر : «ان عروة زعم أن عائشة حدَّثته قالت : كنتُ عند النبيِّ (ص) إذ أقبل العباس وعليٌّ ، فقال : يا عائشة ؛ إنْ سَرَّكِ أن تنظري الى رجلين من أهل النار فانظري الى هذين قد طلعا»[٥] .

وراوٍ هذا شاهدُ حالِه ومثالُ أقوالِه ؛ لخفيفُ الشأن طفيف الوزن عندما تُحَكَّم المقاييس وتُنْصَب الموازين .

ثم كان ثاني مؤلِّفٍ ـ فيما زُعِمَ ـ في هذا الموضوع :

أبَان بن عثمان (ت بين ٩٥ ـ ١٠٥هـ)

وقد سمّاه الدوري : أبان بن عثمان بن عفان ، وقال : إنه «حدَّثَ له ميل الى دراسة المغازي ، ومع أن أحد تلامذته كتب مغازيه الا أنها تُوصَف بأنها من الحديث ، واذا استثنينا إشارةً اليه في اليعقوبي فاننا لا نجد بين المؤرخين مَنْ نقل أو روى عنه ، في حين أنه يُرْوىٰ عنه في كتب الحديث»[٦] .

---

(٤) نشأة علم التأريخ عند العرب : ٦٣ .

(٥) شرح نهج البلاغة : ٤/٦٣ ـ ٦٤ .

(٦) نشأة علم التاريخ عند العرب : ٢١ .

وذكره الدكتور جواد علي فقال : إنَّه «أقدمُ مَنِ اشتغل بالسيرة والمغازي ، وممن شاركوا في الحياة السياسية» ، و«كنّا نطمع أن نرى له الصدارة في تاريخ الطبري ، غير أنه خيَّب أملنا كلَّ التخييب ، فلم ينقل عنه شيئاً ولو خبراً واحداً ، بل ورد اسمه في ١٤ موضعاً ، لكنه لم يذكره راوياً متحدِّثاً ، وانما ذكره رجلاً متحدَّثاً عنه»[٧] .

والحقُّ أن كلام هذين الدكتورين ومَنْ سبقهما من المستشرقين[٧ب] انما هو وهمٌ في وهم ، وقد سقطوا جميعاً في ذلك لشبه اسم هذا الرجل وأبيه باسم مؤلِّفٍ في السيرة ليس هو ابن عثمان الخليفة ، وانما هو : أبان بن عثمان الأحمر البجلي ؛ الذي روى عنه أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ وأبو عبدالله محمد بن سلام[٨] ، وكان من الرواة عن الإمامَيْنِ أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق وأبي الحسن موسى بن جعفر ـ عليهما السلام ـ ، وقد اشتهر من مصنفاته كتابُه الكبير الذي يجمع «المبدأ والمبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردَّة» ، وهو الكتاب الذي ذكره اليعقوبي المؤرخ ورجع اليه[٩] ، وكان النجاشي والطوسي يرويان كتاب أبان هذا بعدة طرق[١٠] .

وكان الثالث من اولئك المؤلفين فيما رووا :

وهب بن منبه (ت ١١٠ هـ)

قال الدوري : «ألَّف وهب في المغازي . . . . ولكن مغازي وهب لا يشار اليها في تواريخ السيرة ، ولا أثر لها في أدب المغازي» ، و«لقد اعتنى وهب بالاسرائيليات وهي قصص وأساطير عن العهد القديم ، وأراد بها توضيح بعض الاشارات القرآنية»[١١] .

---

(٧) مجلة المجمع العلمي العراقي : المجلد ٣/ج١/٥٣ ـ ٥٤ .

(٧ب) دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ: ١/١٧ .

(٨) يراجع فهرس الأعلام لكتاب طبقات فحول الشعراء للوقوف على كثرة رواية ابن سلام عن أبان .

(٩) تاريخ اليعقوبي : ٢/٣ ، ونصُّ قوله وهو يذكر مصادره : «وأبان بن عثمان عن جعفر بن محمد» .

(١٠) رجال النجاشي : ١٠ وفهرست الطوسي : ١٨ ـ ١٩ ، وقد اقتبسنا منهما ما أوردناه عن أبان البجلي .

(١١) نشأة علم التاريخ عند العرب : ٢٥ ـ ٢٦ .

ثم قال في موضع آخر من كتابه :

«ان دراسة وهب بن منبه تخرج بنا عن نطاق بحث علم التاريخ عند العرب ، ولكن وضعه من قبل بعض الباحثين [يعني المستشرقين] في هذا النطاق وتأكيد البعض على أهميته في السيرة دفعنا لبحثه هنا ، لنبين بوضوح انه لم يعتبر من أهل المغازي ، وأن حقله وأثره في نطاق القصص والاسرائيليات»[١٢] .

وذكر الدكتور جواد علي وهباً هذا وقال : إنَّ له أصلاً عُني فيه برواية تاريخ الرسل وقصص الأنبياء وكتاباً في المغازي وكتاباً آخر قيل له : المبتدأ أو المبدأ ؛ وهو في مبدأ خلق العالم .

ثم قال عن كتاب المبدأ هذا : إنه «كان عند عبدالمنعم بن ادريس بن سنان ؛ ابن ابنة وهب بن منبه ، المتوفى سنة ٢٢٨هـ ، وقد نسب ابنُ النديم هذا الكتاب الى عبدالمنعم ، وكان عبدالمنعم هذا قاصّاً مشهوراً ، وقيل عنه : إنه كان يكذب على وهبٍ ويضع الحديث على أبيه ، وكان يطلب الكتب من الورّاقين ويدَّعيها ، ويشتري كتب السيرة فيرويها ، ما سمعها عن أبيه ، وقد ينسبها الى جدِّه . . . . واليه تعزى كل أخبار وهب بن منبه»[١٣] .

ثم أعاد جواد علي ذكر وهبٍ مرة اخرى في بحثه وقال : انه «قد استطاع حشو كتب المسلمين بتلك المادة السمينة من الاسرائيليات . . . . ولكن علينا أن لا ننسى ان قسطاً ليس بقليل من هذه الروايات التي نُسِبت الى وهب كانت من وضع أفرادٍ من بني وهب استغلوا شهرته ؛ فوضعوا عليه ما لم يكن قاله أو كتبه ، وعلى رأس هؤلاء عبدالمنعم بن ادريس راوي كتاب (المبتدأ) الذي كان عليه اعتماد الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء»[١٤] .

ومن التأمل فيما ذكره هذان الباحثان عن وهبٍ نجد أنهما يعترفان بعدم الاطمئنان الى كونه من أهل المغازي ؛ وأن سبطه قد كذب ووضع ولفَّق على لسانه ما لم يقله ولم يكتبه . وما أدري لماذا أورداه ـ مع هذا كله ـ في سلسلة المؤلفين ؟!

---

(١٢) المصدر نفسه : ١٠٣ .

(١٣) مجلة المجمع العلمي العراقي : ١/١٨٤ ـ ١٨٦ .

(١٤) مجلة المجمع العلمي العراقي : ١/١٩٣ .

خصوصاً وان القطعة التي عثر عليها المستشرق بيكر من كتابه المزعوم في السيرة ـ وقد نُشِرت في ڤيسبادن سنة ١٩٧٢م ـ قد ورد في صدرها بعد البسملة : «حدثني محمد بن بحر أبو طلحة قال : حدثنا عبدالمنعم بن ادريس عن أبيه عن أبي الياس عن وهب بن منبه» أي انها من رواية عبدالمنعم الذي عُرِف بالكذب على جدِّه وهب وبوضع الحديث على أبيه كما تقدَّم .

ثم كان ممَّن نُسِب اليه التأليف في السيرة :

شُرَحْبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ)

عاصم بن عمر بن قتادة (ت بين ١١٩ ـ ١٢٩هـ)

وقد ذكر الدوري هذين الرجلين بين المؤلفين ، وقال عن الأول : إنه «يعكس تطور النظرة الاجتماعية ؛ حين يقدِّم قوائم بأسماء الصحابة الذين شاركوا في الأحداث الكبرى ؛ مثل البدريين والذين اشتركوا في معركة أُحُد وجماعة المهاجرين الى الحبشة والمهاجرين الى المدينة» . ثم ذكر الثاني ومعه عبدالله بن أبي بكر ابن حزم (ت ١٣٠ ـ ١٣٥هـ) وعدَّهما من جملة من قام «بتنمية وتوسيع دراسة المغازي» . ثم أردف قائلاً عن هؤلاء الثلاثة : «وليس أمامنا الاّ مقتطفات من مؤلفاتهم التي حددت اطار المغازي وهيَّأتْ جلَّ الموادِّ التي اعتمد عليها ابن اسحاق والواقديُّ بعده»[١٥] .

وعرض الدكتور جواد علي لهؤلاء الثلاثة أيضاً ، فعدَّ الأول والثاني بين مؤلِّفي السيرة والمغازي ؛ وقال : إن الزمن قد ذهب بكتبهم «ولم يبق منها غير الاقتباسات التي وردتْ في الكتب التي اعتمدتْ عليها»[١٦] .

ولكنَّ هروفتس ـ وهو الرائد الأول للدوري وجواد ـ لم ير في هؤلاء إلاّ أنهم «من علماء الحديث»[١٧] الذين وجَّهوا عنايتهم الخاصة الى المغازي .

---

(١٥) نشأة علم التاريخ عند العرب : ٢٢ ـ ٢٣ .

(١٦) مجلة المجمع العلمي العراقي : ١/١٥٢ ـ ١٥٣ .

(١٧) المغازي الاولى ومؤلِّفوها : ٣٧ .

ونجد في ترجمة الحافظ ابن حجر لشرحبيل قوله عنه : إنه كان «عالماً بالمغازي فاتّهموه أنه يُدْخِلُ فيهم مَنْ لم يشهد بدراً ؛ وفيمن قُتِل يوم أُحُدٍ مَنْ لم يكن منهم ، وكان قد احتاجَ ، فسقط عند الناس»[18] .

كما نجد في ترجمة الحافظ نفسِه لعاصم : أنه «أمره عمر بن عبدالعزيز أن يجلس في مسجد دمشق فيحدِّث الناسَ بالمغازي ومناقب الصحابة»[19] . وفي ترجمته لعبدالله ابن أبي بكر : أنه كان محدِّثاً ؛ و«كان كثير الأحاديث»[20] ، ولم يذكر وجود مؤلَّف أو كتاب لأي واحد من هؤلاء الثلاثة .

والمستفاد مما تقدَّم : ان هؤلاء كانوا من الرواة ، وقد شملت روايتهم شؤون السيرة أيضاً ، وأن أولهم شرحبيل ساقط عند الناس لاتهامه بالوضع والتلفيق .

ثم كان ممَّن عُزي له التأليف في ذلك :

الزُّهري (ت ١٢٤هـ)

وقد وصفه الدوري بـ «المؤرخ» ، وذكر أنه «لم يقتصر على رواية مغازي عروة ابن الزبير ، بل قام ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها» ، وان «دراسة رواياته التي وصلتنا تجعلنا نميل الى أنه كان أول مَنْ أعطى (السيرة) ـ وهو التعبير الذي استعمله ـ هيكلاً محدوداً ، ورسم خطوطها بوضوح» ، «وقد أخذ الزهريُّ جُلَّ موادِّه عن السيرة من الحديث»[21] .

ثم ذكر الدوريُّ بعد ذلك الزهريَّ مكرِّراً ، وأكَّد اعتماده في المغازي على عروة ؛ وأن روايات عروة هي المصدر الأول للزهري فيما وصلنا عنه من أخبار المغازي ، وقال : «وليس لدينا من مغازي الزهري الاّ مقتطفات وردت بالدرجة

---

(١٨) تهذيب التهذيب : ١٠/ ٣٦١ .
(١٩) تهذيب التهذيب : ٥/ ٥٤ .
(٢٠) المصدر نفسه : ٥/ ١٦٤ ـ ١٦٥ .
(٢١) نشأة علم التاريخ عند العرب : ٢٣ .

الاولى في ابن اسحاق» وآخرين ، ثم لخّص مجموع ذلك بكون «معلومات الزهري التاريخية ـ على العموم ـ مستقاة من الأحاديث»[٢٢] .

وكلام الدوري المتقدم ـ كما يرىٰ القارىء ـ غير منسجم وغير متجانس في معانيه ، إذ نرى الزهريَّ فيه راوياً لمغازي عروة المزعومة تارةً ؛ ومؤرخاً باحثاً تارة اخرى ، ولكنه ـ في تارةٍ ثالثةٍ ـ محدِّث يستقي معلوماته من الأحاديث !! .

ويرى الدكتور جواد علي ان الزهريَّ قد عمل «عملاً عظيماً جداً كان له أثر جليل في تطور المغازي والتاريخ ، فهو أول مَنْ قابل بين الأحاديث المختلفة المصادر ؛ فوفّق فيما بينها وسعىٰ لإدماجها في حديثٍ واحد»[٢٣] ، ثم قال في خاتمة الحديث عنه : انه «لم يبق من مؤلفاته شيء»[٢٤] .

ولم يتضح لنا منشأ الاعجاب «بالعمل العظيم» الذي تحدَّث عنه الدكتور جواد ، لأن دمج الأحاديث المختلفة في حديثٍ واحدٍ ليس مرضيّاً عند علماء الحديث ، لما فيه من ضياع الأسانيد وخفاء أسماء الرواة واختلاط الصحيح بغيره في نصٍّ موحَّد لا يستطيع الباحثُ المتثبِّت الاطمئنان اليه .

ومهما يكن من أمرٍ ؛ فان من غير الثابت أن يُنسب الى الزهري مؤلَّفٌ في المغازي والسيرة ، وقد اعترف هورفتس بذلك فقال : «لم يصل الينا كتاب مستقل له ، وإنما يوجد في مجموعة الأحاديث المسمّاة (الزهريات) التي رواها وجمعها كُتّاب متأخرون»[٢٥] . ولهذا فان المتيقن من كل ما سلف أنه كان من الرواة عن عروة بن الزبير ، وقد روى عنه ما يُعنى بأخبار المغازي بالخصوص وما يُعنى بغيرها أيضاً ، وسبق منّا القول في عدم الاعتماد على عروة وعدم الوثوق به ، ويكون الزهريُّ ـ تبعاً لذلك ـ مثله في عدم الركون الى مروياته ، وخاصة بعد اشتهاره بصلته الوثيقة بالخلفاء الامويين وكونه أحد رجال الإعلام (السلطوي)[٢٦] ؛ والعيب عليه في ذلك كما روى

---

(٢٢) المصدر نفسه : ٧٩ و٨٢ و٩٥ .

(٢٣) مجلة المجمع العلمي العراقي : ١/١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٢٤) المصدر نفسه : مج ٣/ج١ / ٤٠ .

(٢٥) المغازي الاولى ومؤلفوها : ٦٧ .

(٢٦) وفيات الأعيان : ٣/٣١٨ .

هورفتس[٢٧] .

ونسوق هنا للتمثيل على ذلك ما رواه أبو الفرج الأصبهاني بسنده عن الزهري قال : «قال لي خالد بن عبدالله القَسْري : اكتب لي السيرة ، فقلتُ له : فانه يمرُّ بي الشيءُ من سِيَرِ عليِّ بن أبي طالب فأذكره ؟ فقال : لا ؛ إلاّ أن تراه في قعر الجحيم !!»[٢٨] ، وما رواه ابن أبي الحديد عن الزهري : «أن عروة بن الزبير حدَّثه قال : حدَّثتني عائشةُ قالت : كنتُ عند رسول الله ـ ص ـ إذ أقبل العباس وعليٌّ ، فقال : يا عائشة ؛ إنَّ هذين يموتانِ على غير ملَّتي ـ أو قال : ديني !!»[٢٩] .

ثم كان ممن عُدَّ من مؤلِّفي السيرة الأوائل :

موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ)

والحقُّ الذي يجب إعلانه والإقرار بصحته أن هذا الرجل كان الأول والأقدم بين مؤلفي المغازي على الإطلاق ، وقد وجدنا النصَّ على كتابه في كلمات عدد من الأعلام المتقدمين[٣٠] ، وعلى كونه «أول من صنَّف في ذلك»[٣١] ، ووصف الذهبي هذا الكتاب بأنه مجلَّد ليس بالكبير ، وذكر أنه قد سمعه روايةً ؛ وأنه لخَّص ما جاء فيه من الترجمة النبوية والمغازي المدنيَّة في تاريخه الكبير[٣٢] . وقد رأينا في تاريخه المذكور رواية «غزوة بدر ؛ من مغازي موسى بن عقبة» بلفظه على طوله[٣٣] .

---

(٢٧) المغازي الاولى ومؤلفوها ٦٢ .
(٢٨) الأغاني : ٢٢/ ١٥ .
(٢٩) شرح نهج البلاغة : ٤/ ٦٤ .
(٣٠) فهرسة ابن خير : ٢٣٠ وتهذيب التهذيب : ١٠/ ٣٦١ .
(٣١) سير أعلام النبلاء : ٦/ ١١٤ .
(٣٢) المصدر نفسه : ٦/ ١١٦ .
(٣٣) التاريخ الكبير : ج١/ ق١/ ١٣٤ ـ ١٤٢ .

ثم جاء بعده المؤلِّف الأوسع رواية وبحثاً :

محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ)

وقد ذكره الدوري فقال : «حين نأتي الى ابن إسحاق نحسُّ بخطوط جديدة في التطور . . . ونحسُّ بأننا انتقلنا الى علماءهم مؤرِّخون أولاً ؛ ثم محدِّثون . . . . وقد وصلتنا من ابن اسحاق أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة بكلِّيَّتها» .

ثم قال أيضاً : «ذهب ابن اسحاق أبعد من حدود مدرسة المدينة ، سواء أكان ذلك في نظرته التاريخية أم في اسلوبه ، فقد جمع بين أساليب المحدِّثين والقصّاص في كتاباته ، واستفاد من مختلف نواحي الاهتمام بالمغازي وتواريخ الأنبياء . . . . ولذا فان مصادر معلوماته تكوِّن خليطاً يجلب الانتباه . . . . أما رواياته عن فترة الرسالة فترجع في جوهرها الى أساتذته في المدينة مع إضافات حصلَ عليها . . . . ويظهر أن عامة المؤرخين ينظرون الى سيرة ابن اسحاق . . . . نظرة حسنة»[٣٤] .

وقال الدكتور صالح أحمد العلي : إن «أقدم كتاب واسع وصلنا في حياة الرسول (ص) هو سيرة الرسول التي كتبها ابن اسحاق»[٣٥] .

وقال الدكتور سهيل زكار : إن «ابن اسحاق شيخ كتّاب السيرة ، وصار مَنْ كتبوا بعده عيالاً عليه»[٣٦] .

ثم تحدَّث زكار عن هذا الرجل بالتفصيل وقال : ان ابن اسحاق كتب السيرة لأوّل مرَّة بالمدينة ، وتمثَّل رواية يونس بن بكير (ت ١٩٩هـ) الشكل الأول ـ أي المدنيَّ ـ غالباً . ثم ارتحل ابن إسحاق من المدينة الى الكوفة ، وأتى أبا جعفر المنصور بالحيرة قبل تمصير بغداد ؛ فسمع منه أهلُ الكوفة مغازيه هناك ، وتمثل رواية زياد البكائي (ت ١٨٣هـ) الشكل الثاني منها ـ أي الكوفي ـ . ثم انتقل ابن اسحاق الى بغداد بعد بنائها فأملىٰ السيرة على مَنْ سمعها منه هناك ، وتمثَّل رواية محمد بن سلمة الحرّاني (ت ١٩١هـ) الشكل البغداديَّ منها ـ وهو الثالث ـ . وهكذا تكوَّنت ثلاث

---

(٣٤) نشأة علم التاريخ عند العرب : ٢٧ ـ ٣٠ .

(٣٥) الدولة في عهد الرسول : ١/٨ .

(٣٦) السير والمغازي / المقدمة : ٩ .

نسخ من السيرة : الاولى من العهد المدني ، والثانية من العهد الكوفي ، والثالثة من العهد البغدادي ، «وقد بقيتْ أجزاءٌ من النسختين الاولى والثانية تسمحان لنا بالذهاب الى أن المنصور أراد من ابن اسحاق التركيز بشكل أوضح على دَوْر العباس ابن عبدالمطلب وأخباره مع النبي وخدماته الجُلّىٰ للاسلام ، وربما رافق ذلك طَمْسَ بعضِ ما يتصل بنواحي ضعف العباس وأعماله المعادية للرسول قبل إسلامه»[٣٧] .

وسواءٌ أثبت ما ذهب اليه الدكتور سهيل زكار من نُسَخ السيرة وكونها ثلاثاً كما قال أو لم يثبت ، فان من المسلَّم به أن ابن اسحاق قد بدأ عمله في المدينة وأملىٰ رواياته هناك ، وتمثِّل القطعة التي نشرها الدكتور زكار من السيرة بعضاً من ذلك العمل المدني . ثم أعاد ابنُ اسحاق إملاءَ كتابه ـ وربما أعاد الكتابة أيضاً ـ في الكوفة ، وتمثِّل سيرة ابن هشام بعض هذه الأمالي الكوفية . ثم كانت بغداد هي المحطة الثالثة والأخيرة لابن اسحاق فيها أملىٰ وكتب ، وتمثل روايات الطبري عن محمد بن سلمة عن ابن اسحاق أمثلة من ذلك الاملاء . ولابد أنه كان يضيف اليها وينقح فيها في كل مرة ما يرى إضافتَه وتنقيحَه ، وقد يكون بعضُ المَزيد والمنقَّح قد تمَّ بطلبٍ من العباسيين ؛ أو برغبةٍ من المؤلف في التقرب اليهم .

والنصُّ المعروف المتداول اليوم من سيرة ابن اسحاق الكاملة هو المنتخب الذي قام باختصاره وانتقائه من الأصل أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨هـ ، واعتمد فيه الروايةَ أو الاملاءَ الكوفي الذي رواه زياد بن عبدالله البكائي المتقدم الذكر عن ابن اسحاق نفسه .

ويقول ابنُ هشام في مقدمة اختصاره للسيرة محدِّداً معالم عمله فيما أبقى وحَذَفَ : إنه تَرَكَ :

١ ـ ذِكْرَ غير أجداد النبي ـ ص ـ من وَلَدِ اسماعيل .

٢ ـ بعضَ ما ذكره ابنُ اسحاق «ممّا ليس لرسول الله ـ ص ـ فيه ذِكْرٌ ، ولا نَزَلَ فيه من القرآن شيءٌ» .

٣ ـ أشعاراً ذكرها ابنُ اسحاق .

---

(٣٧) السير والمغازي / المقدمة : ١٣ .

٤ ـ «أشياءَ بعضُها يشنع الحديثُ به» .

٥ ـ بعضاً «يسوء بعضَ الناس ذِكْرُه»[٣٨] .

ويقول الدكتور سهيل زكار معلِّقاً على ما أسقطه ابن هشام من نصوص ابن إسحاق : «ان لهذا النوع من الحذف ـ ولاشك ـ أسباباً سياسية ؛ واخرى تتصل بالصورة التاريخية لعصر ابن هشام عن النبي وصحابته»[٣٩] .

والحقُّ مع الدكتور سهيل فيما قال ؛ بل هو عين الصواب ، إذ قد تقمَّص ابنُ هشام في اختصاره للسيرة المذكورة شخصيةَ «الرقيب» السياسي الذي يحذف كلَّ ما يراه منافياً أو خارجاً على «الخط» الثابت الذي يراد إبرازُه والحفاظُ عليه ، ويروي ما سواه مما هو داخلٌ ضمن اطار ذلك «المنهج» وحدوده ؛ أو غير مناقضٍ له على كل حال ، ولذلك وجدناه قد حذف ـ مثلاً ـ أكثر شعر أبي طالب بن عبدالمطلب ؛ وخصوصاً ذلك الشعر الذي يدل بصراحةٍ على إسلامه وإقراره بالرسالة والرسول ، كالمقطوعة التي يقول فيها :

مَنَعْنا الرسولَ رسولَ المليكِ ببيضٍ تلالا كلَمْع البُروق[٤٠]

والمقطوعة التي يقول فيها مخاطباً النبيَّ ـ ص ـ :

وعرضتَ ديناً قد عرفتُ بأنه من خير أديان البرية دينا[٤١]

والمقطوعة التي يقول فيها :

وإنْ كانَ أحمدُ قد جاءهم بحَقٍّ ولم يأتهم بالكَذِبْ[٤٢]

والمقطوعة التي يقول فيها :

وأمسى ابنُ عبدالله فينا مصدَّقاً على سَخَطٍ من قومنا غير معتبِ[٤٣]

الى كثيرٍ من أمثال ذلك مما يطول ذكره ، حتى بلغت به الحال أن يحذف من شعر

---

(٣٨) سيرة ابن هشام : ١/٤ .

(٣٩) السير والمغازي لابن اسحاق/ المقدمة : ١٦ .

(٤٠) السير والمغازي : ١٤٩ .

(٤١) السير والمغازي : ١٥٥ .

(٤٢) المصدر نفسه : ١٦٣ .

(٤٣) المصدر نفسه أيضاً : ١٦٤ .

أبي طالب ما يمسُّ نسبَ بني امية ، وقد صرَّح شيخ البطحاء فيه بأنهم ليسوا أبناء حقيقيين لعبد شمس كما يزعمون ، وانما كانوا من نسل عبدٍ تبنّاه عبدُ شمس على عادة العرب في الجاهلية فنُسِب اليه ، فقد روى ابنُ اسحاق في بعض شعر أبي طالب الذي يدافع به عن نبيِّ الاسلام ويهجو أعداءه المجاهرين له بالحرب قولَه :

وليداً أبوه كانَ عبداً لجدِّنا الى علجةٍ زرقاءَ جاش بها البحرُ[44]

فحذف ابنُ هشام هذا البيت وبيتاً آخر من المقطوعة نفسِها وقال : «تركنا منها بيتين أقذع فيهما»[45] ، ولم يتضح لنا السبب المقبول لتركه البيتين وانكاره لما سماه إقذاعاً ؛ مع أنه في هجاء أعداء الاسلام المشركين وفي الدفاع عن النبي ـ ص ـ ورسالته الحقَّة !! .

ولستُ هنا معنياً بالمقارنة الدقيقة الشاملة بين نصِّ ابن اسحاق الذي حفظت لنا الأيام قطعةً منه ـ هي التي نشرها الدكتور سهيل زكار ـ وبين عمل ابن هشام القائم على الحذف والاختصار . ولكن البيِّنَ على كل حالٍ أن ذلك الاختصار لم يكن بدوافع علمية نزيهة وبضوابط موضوعية سليمة ، بل ان البرهان العملي المستند الى المقارنة المعمَّقة يثبت عكس ما ذهب اليه الدكتور صالح أحمد العلي من أن ابن هشام «كان دقيقاً في النقل ، ولكنه هذَّب فيها فحذف بعضَ الأخبار وأبدىٰ شكوكه في اصالة بعض القصائد التي رواها ابن اسحاق»[46] ، إذ أن الرجل لم يكتف بالتهذيب وحذفِ ما زَعَم أنه مشكوك ، وانما صرَّح بتعمُّد حذفِ كثيرٍ مما ورد في الأصل مما هو ثابت وصحيح لديه ، وعلَّل ذلك كما أسلفنا نقله بأنه مما «يشنع الحديث به» أو «يسوء بعضَ الناس ذكرُه» أو أن الشاعر قد «أقذع» في هجاء المشركين في شعره ، وذلك كله شيءٌ آخر غير التهذيب والتشكيك المُدَّعىٰ .

---

(٤٤) السير والمغازي : ١٥٣ ، وقد رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة : ١٥/٢٣٣ بنصٍّ آخر هو :

قديماً أبوهم كان عبداً لجدِّنا بني أمَةٍ شهلاء جاش بها البحرُ

(٤٥) سيرة ابن هشام : ١/٢٨٧ .

(٤٦) الدولة في عهد الرسول : ١/٩ .

وعلى كل حال ؛ فلا ريب أن محمد بن اسحاق كان المؤلف الأول في السيرة في تاريخ التأليف العربي على هذا النحو من السعة والتفصيل والشمول ؛ وإن كان قد سبقه أو عاصره في ذلك موسى بن عقبة المتقدم الذكر ؛ ولكن كتاب موسى لم يكن كبيراً وشاملاً ككتاب ابن اسحاق .

ثم انطلق التأليف في هذا الموضوع بعد ابن عقبة وابن اسحاق ، وتداوله الرواة والمؤرخون جيلاً اثر جيل وعصراً بعد عصر ، وكانت الحصيلة لذلك كله ما أربى عدده على الاحصاء من الكتب والمصنفات .

ولقد كان من الامور الطبيعية كما يقول الدكتور جواد علي أن ينشأ علم السيرة في المدينة ، «لأنها الموطن الأصلي للدعوة الاسلامية ، ومنها انتشر الاسلام ، فاكتست السيرة ثوباً مدنيّاً وطُبعت بالطابع الذي تميَّز به أهل الحجاز وهو ميلهم الى الحديث . . . . غير أن هذا الاحتكار ـ وإن دام طوال عهد الخلفاء الراشدين وأيام الامويين بصورة عامة ـ لم يتمكن من المحافظة على مركزه في العهد العباسي ، فتضعضع في أيام الخليفة المنصور بهجرة محمد بن اسحاق أو قبل ذلك بقليل ، وظهر منافسون لعلماء السيرة المدنيين ظهروا في بغداد والكوفة والبصرة ، بل في مصر كذلك ، وهم وإن كانوا قد تأثروا بسيرة ابن اسحاق المستمدة من روحية أهل المدينة ؛ فان الامور سرعان ما تبدلت عندهم»[٤٧] .

★★★

ونعود ـ بعد هذا الاستعراض الواسع لأسماء رواة السيرة الأوائل والمؤلفين منهم فيها بوجهٍ خاص ـ الى الجانب الآخر في هذا التمهيد ؛ وهو الذي يُعنىٰ بتقويم ما ورد من أخبار العهد النبوي وتاريخه وأنباء أحداثه ووقائعه ، ويتجلى ذلك أمام الباحث في أعدادٍ هائلة من الروايات وكمٍّ عظيم جداً من الأحاديث ، منها ما ضمَّه كتاب خاص في هذا الموضوع ، ومنها ما تناثر في خلال المصنَّفات التراثية المعنيَّة بالتاريخ بمعناه العام أو المقصورة على علمٍ أو فنّ خاص ؛ ككتب التفسير والفقه والحديث .

ونستطيع ـ بايجازٍ ـ تقسيمَ تلك الروايات المتصلة بالسيرة والمغازي وما اليها الى قسمين :

---

(٤٧) مجلة المجمع العلمي العراقي : ١/١٥٣ .

١ ـ القسم المقبول :

ونعني به ما ثبت منه بالشياع أو التواتر أو السند الصحيح ؛ أو لم يقم دليل على بطلانه ؛ أو كان متفقاً في مجمل دلالته ومعناه مع الخط العام لسير الأحداث والاسس الثابتة للعقيدة واصولها المقرَّرة .

٢ ـ القسم المرفوض :

ونعني به :

أ ـ ما كانَ غير مرضيٍّ السند : إمّا لإرساله وعدم ورود اسم الراوي المشاهِد بنفسه للحدث المرويِّ فيه ؛ أو لما ورد من طعونٍ في رواته كلاًّ أو بعضاً ، وهو في الحالين غير صالح للاعتماد والاستناد .

ومن ذلك مثلاً : ما ورد مروياً عن عبدالله بن عباس من أخبار السنين الاولى للبعثة الشريفة ولم يكن الرجل مولوداً يوم ذاك[٤٨] ؛ ولم يُسنِد روايتَه الى حاضرٍ أو مشاهدٍ للأمر المحدَّث به ، كرواياته في أول فَرْض الصلاة[٤٩] ؛ وعن اجتماع قريش في مكة[٥٠] ؛ وعن كلام المشركين مع أبي طالب[٥١] ؛ وعن تشاور المشركين في دار الندوة[٥٢] ؛ وعن أول قدوم النبي (ص) المدينة[٥٣] ، وأمثال ذلك .

وكذلك ما ورد مروياً عن أُمِّ المؤمنين عائشة عن بدء البعثة النبوية[٥٤] ؛ وفي بدء فرض الصلاة[٥٥] ؛ وفيما يتعلق بأخبار النبي (ص) في مكة قبل نقض الصحيفة[٥٦] ،

---

(٤٨) ولد عبدالله بن عباس قبل الهجرة بثلاث سنين كما في الاستيعاب : ٢/٣٤٣ واسد الغابة : ٣/١٩٣ والاصابة : ٢/٣٢٢ .

(٤٩) سيرة ابن هشام : ١/٢٦١ .

(٥٠) سيرة ابن هشام : ١/٣١٥ .

(٥١) المصدر نفسه : ٢/٥٨ .

(٥٢) المصدر نفسه : ٢/١٢٤ .

(٥٣) المصدر نفسه : ١/٣٣٠ .

(٥٤) المصدر نفسه : ١/٢٤٩ .

(٥٥) المصدر نفسه : ١/٢٦٠ .

(٥٦) المصدر نفسه : ٢/١٢ .

ولم تُسنِد ذلك الى أبيها أو الى غيره من الحاضرين ، بل حتى روايتها في الإسراء حين حدَّثت أن النبي (ص) لم يُفقَد جسدُه في تلك الليلة[٥٧] ؛ فانها لم تكن تسكن معه في بيتٍ واحد لتعلم أن الإسراء كان بالجسد أو بالروح .

ومثله ما ورد مروياً عن معاوية بن أبي سفيان من أن الاسراء كان رؤياً صادقة[٥٨] ، مع علم الجميع بأن معاوية يومذاك كان كافراً محارباً لله ورسوله ، ولا علاقة له بالرسالة ونبيها المرسَل ليكون على علمٍ بحقيقة الإسراء .

ومن هذا القبيل ما أخرجه البلاذري عن سعيد بن المسيب قال : «نظر رسول الله ـ ص ـ الى عثمان فقال : هذا التقيُّ المؤمن الشهيد شبيه ابراهيم»[٥٩] ، مع أن سعيداً هذا قد ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر[٦٠] . وكذلك ما أخرجه البلاذري عن الحسن البصري قال : «قال رسول الله ـ ص ـ : مَنْ يجهِّز هذا الجيش ـ يعني جيش العسرة ـ بشفاعةٍ متقبَّلة ؟ فقال عثمان : يا رسول الله بشفاعةٍ متقبَّلة ؟ قال : نعم على الله ورسوله ، قال : أنا أُجهِّزُهم بسبعين ألفاً»[٦١] ، وقد ولد الحسن البصري قبيل وفاة عمر بن الخطاب[٦٢] ، فكيف سمع هذان الرجلان من رسول الله ـ ص ـ !!؟ .

ب ـ ما كانت دلالته متضاربة مع الخطوط الرئيسة للاسلام وعلى الضدِّ من مُسَلَّمات الدين ؛ وإن قيل ما قيل في مدح رواته وتصحيح سنده .

ومن أبرز أمثلة ذلك قصة الزيادة في سورة النجم ، وقد ورد فيها ذكرُ الغرانيق العلى وان شفاعتهن لـتُرْتجى[٦٣] . وهي قصة ملفقة من الألف الى الياء ، ودلائل

---

(٥٧) المصدر نفسه : ٢/٤٠ .
(٥٨) المصدر نفسه : ٢/٤٠ و٤١
(٥٩) أنساب الأشراف : ٥/٣ .
(٦٠) تذكرة الحفاظ : ١/٥٤ .
(٦١) أنساب الأشراف : ٥/١٠ .
(٦٢) تذكرة الحفاظ : ١/٧١ .
(٦٣) السير والمغازي : ١٧٧ ـ ١٧٨ وطبقات ابن سعد : ١/ق١/١٣٧ وتاريخ الطبري : ٢/٣٣٨ ودلائل النبوة : ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

تلفيقها أوضح من أن تخفى ، لما حملتْ من فكرة تقديس الأصنام التي تقف على النقيض تماماً من لُبِّ الاسلام وجوهر الدين القائم على التوحيد الخالص ومحاربة الوثنية بكل ألوانها وأشكالها المختلفة ، ولذلك قال السهيلي فيه بعد ايراده : «أهل الاصول يدفعون هذا الحديث بالحجة»[٦٤] .

ومن هذا القبيل أيضاً تلك النصوص التي لا تخلو من مسّ بمقام النبوة وتوهين لشأن النبي (ص) ، وهو خاتم النبيين وسيد المرسلين ، والمنزّه عن كل ما ينافي السلوك الأمثل والالتزام الأكمل بضوابط الخلق العظيم والأدب الكريم ، فقد جاء فيما رُوي عن السيدة عائشة أنها قالت : «كان رسول الله ـ ص ـ مضطجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدَّث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدَّث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله (ص) وسوّى ثيابه . . . فلما خرج قالت عائشة (رض) : دخل أبو بكر فلم تهتشّ له ولم تُباله ، ثم دخل عمر فلم تهتشّ له ولم تُباله ، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوّيتَ ثيابك؟ فقال : ألا استحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة»[٦٥]، وهذا الحديث ـ في رأيي ـ لا اساس له من الصحة ، لأنه يتضمن من سوء الأدب في النقل والوصف ما يأباه كل مسلم حصيف ، كما أنه ينافي ما رواه البخاري وابن حنبل عن النبي (ص) نفسه من أن «الفخذ عورة»[٦٦] .

وجاء أيضاً في المرويِّ عن السيدة عائشة أنها حدَّثت فقالت: «كان رسول الله (ص) جالساً فسمعنا لغطاً وصوتَ صبيانٍ، فقام رسول الله (ص) فاذا حبشية تزفن (أي ترقص) والصبيان حولها ، فقال : يا عائشة تعالي فانظري، فجئتُ فوضعتُ لحييَّ على منكب رسول الله (ص) فجعلتُ أنظر اليها . . إذ طلع عمر فارفضَّ الناسُ عنها ، فقال رسول الله (ص) : اني لأنظر شياطين الإنس والجنِّ قد فَرُّوا من عمر.

---

(٦٤) الروض الأنف : ٢/١٢٦ .

(٦٥) صحيح مسلم : ٧/١١٦ ـ ١١٧ ومسند أحمد : ٦/٦٢ .

(٦٦) صحيح البخاري : ١/٩٨ ومسند أحمد : ١/٢٧٥ و٥/٢٩٠ .

قالت : فرجعتُ»[٦٧] . ومثله ما أخرجه أبو نعيم بسنده عن الأسود بن سريع قال : «أتيتُ النبيَّ (ص) فقلتُ : قد حمدتُ ربي بمحامد ومِدَحٍ وإياك، فقال : إن ربك عز وجل يحبُّ الحمدَ، فجعلتُ أُنشِده، فاستأذن رجل . . . فقال لي رسول الله (ص) : اسكت . . . ثم خرج فأنشدتهُ ، ثم جاء فسكّتني النبي (ص) فتكلم ثم خرج . . . . فقلتُ : يا رسول الله مَنْ هذا الذي أسكتّني له ؟ فقال : هذا عمر ؛ رجلٌ لا يحبُّ الباطل»[٦٨] .

إن كلّ ما تقدم وما كان على شاكلته مرفوض أشد الرفض ، لما فيه من إساءة الأدب لمقام النبوة، ومن الإشعار بنسبة حُبِّ الباطل وألفة الشياطين الى أقدس مَنْ خلق الله من بني آدم .

ج ـ ما كان فيه طمسٌ متعمَّد للفظٍ أو ألفاظ من الحديثاراد بعضُ الرواة إخفاءها بدافع سوء النية، لما فيها من مديحٍ لانسانٍ ربما كان الراوي يبغضه أو يتزلف بذلك الى من يبغضه .

ومن أبرز أمثلة ذلك ما رواه الطبريُّ في حديث يوم الدارحين أمر الله تعالى نبيَّه بإنذار عشيرته الأقربين ، فدعاهم وجمعهم وخطب فيهم ثم قال : «فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا» !!، فلما أحجم القوم عن الجواب ولم يقم الا عليٌّ (ع) قائلاً : أنا يا نبيَّ الله . . . قال النبي (ص) : «ان هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا»[٦٩] ، والنصُّ الصحيح أن النبي (ص) قال : «ان هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم»[٧٠] ، فوضع الراوي كلمة «كذا» بدل «وصيي» و«كذا» اخرى بدل «خليفتي فيكم» .

وكذلك ما رواه محمد بن سلمة عن ابن اسحاق في خبر غزوة العُشَيرة في السنة الاولى من الهجرة ، وجاء في آخر النص : «وفي تلك الغزوة قال لعلي بن أبي طالب

---

(٦٧) سنن الترمذي : ٥/ ٦٢١ ـ ٦٢٢ .
(٦٨) حلية الأولياء : ١/ ٤٦ .
(٦٩) تفسير الطبري : ١٩/ ١٢٢ والبداية والنهاية : ٣/ ٤٠ .
(٧٠) تاريخ الطبري : ٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(ع) ما قال»[٧١] ، ولم يذكر هذا الراوي عن ابن اسحاق ماذا قال ، ولعل الذي حذف التتمة هو محمد بن سلمة ، لأن البكائي فيما روى عن ابن اسحاق قد أوردها وهي : قال : إن أشقى الناس الذي يضرب علياً «على هذه ـ ووضع يدَه على قَرْنه ـ حتى يبلَّ منها هذه ـ وأخذ بلحيته»[٧٢] .

د ـ ما كان واضح الزيف صريح الكذب بالمنظور التاريخي المحض ، وبعيداً عن أية مناقشات أو شكوك اخرى :

ومن أبين شواهد ذلك ما أخرجه مسلم بسنده قال : «ان المسلمين كانوا لا ينظرون الى أبي سفيان ولا يُقاعِدونه ، فقال للنبي (ص) : يا نبيَّ الله ؛ ثلاثٌ أعطِنيهنَّ ، قال : نعم ، قال : عندي أحسن العرب وأجمله امُّ حبيبة بنت أبي سفيان أُزَوِّجُكها ، قال : نعم . قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال : نعم . قال : وتؤمِّرني حتى أُقاتل الكفارَ كما كنت اقاتل المسلمين ، قال : نعم ـ الى آخر الخبر ـ »[٧٣] ، وكذبُ هذا الخبر لا يحتاج الى شرح وتفصيل ، لأن أبا سفيان قد تلفظ بالشهادتين لينجو بنفسه من القتل في السنة الثامنة من الهجرة عند فتح مكة ، وكان النبي قد تزوَّج أُمَّ حبيبة وهي بأرض الحبشة[٧٤] حينما ارتدَّ زوجها الأول، أي قبل فتح مكة بأكثر من عشر سنوات .

ومثل هذا النص في الزيف والبطلان مارُوِيَ عن المسور بن مخرمة في اسطورة خطبة عليّ (ع) امرأةً في عصر النبوة وفي أيام حياة زوجه الزهراء (ع)[٧٥] ، وما رُوي عنه أيضاً في فعل النبي (ص) لما خرج الى الحديبية من تقليده الهديَ وإشعاره واحرامه بالعمرة[٧٦] ، وما روي عنه في غير ذلك وهو غير قليل ، وكل ذلك لا اصل له ولا

---

(٧١) تاريخ الطبري : ٢/٤٠٦ .

(٧٢) سيرة ابن هشام : ٢/٢٤٩ .

(٧٣) صحيح مسلم : ٧/١٧١ .

(٧٤) سيرة ابن هشام : ٤/٢٩٥ . وفي السيرة نفسها : ٤/٣٨ نصٌّ ورد فيه ذكر دخول ابي سفيان قبل إسلامه على ابنته ام حبيبة ؛ وانها طوت فراش رسول الله (ص) عنه لأنه مشرك نجس .

(٧٥) صحيح البخاري : ٥/٢٨ ومسند أحمد : ٤/٣٢٦ وسنن ابن ماجه : ١/٦٤٣ ـ ٦٤٤ .

(٧٦) صحيح البخاري : ٢/١٩٧ والتاريخ الكبير للذهبي : ١/ق ١/٢٨١ ـ ٢٨٢ .

أساس ، لأن المسور قد وُلِدَ بعد الهجرة بسنتين وكان لَمّا قُبض النبي (ص) ابن ثمان سنين[٧٧] ؛ وإن ادُّعي في احدى مزاعمه أنه سمع ذلك من النبي (ص) وهو «محتلم»[٧٨] . والصحيح أنه كان يومذاك دون الثامنة من العمر .

★★★

هذا هو غيض من فيض مما ورد في أخبار السيرة ورواياتها التي تتكدس في المصادر المعنية بلا غربلة ولا تمحيص، ولا اريد الاطالة في سرد الشواهد والأمثلة على ما تقدَّم ذكره؛ لأنها قد تخدش بعض العواطف الحساسة أو تجرح بعض المشاعر المرهفة، وليس هذا التمهيد بالمكان الذي يستساغ فيه الخدش والتجريح ، وانما المراد الأول والاخير من كل ذلك بيان الواقع المرّ الذي لا نرى مناصاً من الاعتراف بوجوده بل بكثرة وروده .

ولقد كان غرضي الرئيس من كل ما أسلفتُ الحديث عنه أن يكون القارىء الكريم على علم تام بموقفي من مصادر البحث واصوله؛ وبطريقتي المختارة في التعامل معها في الأخذ والرفض، وسوف يجد أني لم أخرج في كل ذلك عما اعتمد عليه عموم الباحثين وجمهور المؤلفين من روايات ونصوص ، ولكن بعد استبعاد كلّ ما كان غير مقبول في موازين الفحص والتحليل والجرح والتعديل، سواءً أكان ذلك إرسالاً في سند النصّ؛ أو عدمَ ثقةٍ براوٍ أو أكثر من رواته ؛ أو كان مخالفاً لاسس الاعتقاد ومنافياً لقدسية الرسول ومقامه الأسمى عند المسلمين المتأدبين بأدب القرآن تجاه نبيهم العظيم.

والله تعالى هو المسدِّد للصواب والهادي الى سواء السبيل .

---

(٧٧) الاستيعاب : ٣/٣٩٧ والاصابة : ٣/٣٩٩ .

(٧٨) صحيح مسلم : ٧/١٤١ .

الوِلادَةُ وَالنَّشْأة

أجمع الرواة قاطبة على ولادة النبي ـ ص ـ عام الفيل[1] ، واتفق معظمهم على أنَّها كانت في شهر ربيع الأول من ذلك العام[2] . ثم اختلفوا في تعيين يوم الولادة من ذلك الشهر على أقوال :

فذهب بعضهم الى ولادته في اليوم الثاني من ذلك الربيع[3] .

وقيل : في الثامن منه[4] .

وقيل : لعشر ليالٍ خلون منه[5] .

وقيل : في الثاني عشر منه[6] .

وقيل : في السابع عشر[7] .

وقيل : لثمانٍ بقين منه[8] .

---

(١) السير والمغازي : ٤٨ وسيرة ابن هشام : ١/١٦٧ وتاريخ اليعقوبي : ٢/٤ وطبقات ابن سعد : ١/ق ١/٦٢ و٦٣ وأنساب الأشراف : ١/٩٢ وتاريخ الطبري : ٢/١٥٥ والكافي : ١/٤٣٩ .

(٢) جميع المصادر الآتي ذكرها في تحديد اليوم ، وشذ الزبير بن بكّار فذهب الى ولادته في شهر رمضان (الاستيعاب : ١/١٣) .

(٣) تاريخ اليعقوبي : ٢/٤ وطبقات ابن سعد : ١/ق ١/٦٢ وأنساب الأشراف : ١/٩٢ والاستيعاب : ١/١٣ والبداية والنهاية : ٢/٢٦٠ .

(٤) البداية والنهاية : ٢/٢٦٠ ، وقال ابن كثير : «حكاه الحميدي عن ابن حزم ، ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري ... ونقل ابن عبد البَرِّ عن أصحاب التاريخ أنهم صحّحوه ، وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي ، ورجّحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير» .

(٥) طبقات ابن سعد : ١/ق ١/٦٢ وأنساب الأشراف : ١/٩٢ والبداية والنهاية : ٢/٢٦٠ .

(٦) سيرة ابن هشام : ١/١٦٧ وتاريخ اليعقوبي : ٢/٤ وأنساب الأشراف : ١/٩٢ وتاريخ الطبري : ٢/١٥٦ والكافي : ١/٤٣٩ وإكمال الدين : ١١٣ .

(٧) التهذيب : ٦/٢ والمناقب : ١/١١٨ والبداية والنهاية : ٢/٢٦٠ .

(٨) البداية والنهاية : ٢/٢٦٠ .

وكانت ولادته في شِعب أبي طالب ؛ في الدار التي آلتْ بعد ذلك لمحمد بن يوسف ؛ في الزاوية القصوى عن يسارك وأنت تدخل الدار، وقد أخرجت الخيزران ذلك البيت فصيَّرته مسجداً يصلي الناسُ فيه[٩] .

واستقبل بيتُ عبدالمطلب هذا الوليدَ السعيدَ وحيدَ عبدِالله بالفرح الغامر والسرور البالغ، كما استقبل هذا الطفلُ الكريمُ دنياه الجديدة بوجهه الوضّاء المبارك ؛ وبسمته المشرقة الطافحة بأمنيات الخير والرفاء لأهله خاصة وقومه عامة ولكلِّ أهل الأرض وبني البشر قاطبة .

إنه محمد :

سليل أشرف عائلة في العرب ؛ ووريث أمجد اسرةٍ ملكت من العزِّ والجاه والقوة والشأن ما لم يكن يدنو له الآخرون .

فهو ابن هاشم بن عبد مَنَاف ؛ عبقري قريش وزعيم مكة ؛ الذي سنَّ أول معاهدة في تاريخ البشرية بين دول عصره، لتنظيم التجارة وتيسير عمليات التسويق وحماية الطرق التي تسلكها القوافل الرائحة الغادية ، فكان الايلاف ببركة ذلك ، وكانت الرحلات الآمنة المطمئنة بين الحجاز وبين اليمن والحبشة وبلاد الشام والفرس والروم، ثم كان ذلك الخير الوفير الذي شهدته البلاد الحجازية في ظل تلك المعاهدة الحكيمة وقيادة هذا الزعيم العظيم[١٠] .

وهو ابن عبد المطلب خليفة هاشم ووارث مجده ، والمسؤول عن شؤون الكعبة والحجيج ، والشيخ المسلَّم الرئاسة في مكة وما والاها ، وحافر زمزم مانحة الماء الذي جعل الله منه كلَّ شيء حيّ ، والشاهد المعاصر لهزيمة أبرهة وجيشه الهادر؛ بالطير الأبابيل التي رمتهم بحجارة من سجِّيل فجعلتهم كعصف مأكول[١١] .

---

(٩) الكافي : ١/ ٤٣٩ والاستيعاب : ١/ ١٣ .

(١٠) يراجع في ترجمة هاشم : سيرة ابن هشام : ١/ ١٤٣ ـ ١٤٤ وطبقات ابن سعد : ١/ق ١/ ٤٣ وتاريخ الطبري : ٢/ ٢٥٢ والكامل لابن الأثير : ٢/ ١٠ وشرح نهج البلاغة : ١٥/ ٢٠٢ .

(١١) يراجع في ترجمة عبدالمطلب : سيرة ابن هشام : ١/ ٥١ و١١٦ و١٥٠ و١٥٥ وطبقات ابن سعد : ١/ق ١/ ٥١ وتاريخ الطبري : ٢/ ٢٥١ .

وهو ابن عبدالله الذي فداه ربُّه بمائة من الإبل انقاذاً له من القتل وفاءً لنذر أبيه[١٢] ، ويسَّر له الزواج بعد نجاته من الموت بالسيدة آمنة بنت وهب ؛ وهي يومئذ من فضليات النساء نسباً وشرفاً ومكانة ومحتدا[١٣] ، غير أن الأجَل لم يمهل عبدالله كي يرى ولدَه البكر المؤمَّل ، فتوفي وابنه حَملٌ في بطن أُمِّه[١٤] .

ولما حان وقت ولادة آمنة وخرج ابنها الى الدنيا «أرسلت الى جدِّه عبد المطلب أنه قد وُلِدَ لك غلام فأتِه فانظرْ اليه ، فأتاه فنظر اليه ، وحدَّثْته بما رأت حين حَملِها به وما قيل لها فيه . . . فأخذه عبدُالمطلب فدخل به الكعبة ، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه . ثم خرج به الى أُمِّه فدفعه اليها ، والتمس لرسول الله ـ ص ـ الرُّضعاء»[١٥] .

وقدمت به مرضعتُه حليمةُ بنت أبي ذؤيب السعديَّةُ مكةَ بعد فطامه ؛ فدخلت به على جدِّه ، «فأخذه عبدُالمطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة ؛ يعوِّذه ويدعو له . ثم أرسل به الى أمِّه آمنة»[١٦] ، فكان مع امِّه وجدِّه «في كلاءة الله وحفظه ، يُنْبِته نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته» حتى بلغ السادسة من العمر ، ففُجِعَ في تلك السنة بوفاة أُمِّه[١٧] ، فكان مع جدِّه عبدالمطلب . «وكان يُوضَع لعبدالمطلب فراش في ظلِّ الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ـ ص ـ يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه ، فيقول عبدالمطلب : دعوا ابني ؛ فوالله إنَّ له لَشَأناً، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده»[١٨] .

---

(١٢) السير والمغازي : ٣٣ ـ ٤١ وانساب الأشراف : ١/٧٨ ـ ٧٩ .

(١٣) انساب الأشراف : ١/٧٩ .

(١٤) سيرة ابن هشام : ١/١٦٧ وتاريخ الطبري : ٢/١٦٥ وانساب الأشراف : ١/٩٢ . وقيل : ان عبدالله مات ومحمد في المهد (تاريخ الطبري : ٢/١٦٥ والروض الأُنُف : ١/١٨٤) ، ولكن القول الأول هو الأرجح .

(١٥) سيرة ابن هشام : ١/١٦٨ ـ ١٦٩ .

(١٦) سيرة ابن هشام : ١/١٧٦ .

(١٧) السير والمغازي : ٦٥ وسيرة ابن هشام : ١/١٧٧ وانساب الأشراف : ١/٩٤ وتاريخ الطبري : ٢/١٦٥ .

(١٨) سيرة ابن هشام : ١/١٧٨ وانساب الأشراف : ١/٨١ .

ثم توفي عبدالمطلب ومحمد في الثامنة من العمر، فتولى رعايته عمُّه أبو طالب بوصيةٍ من عبدالمطلب نفسه ، «فكان اليه ومعه»[١٩] .

«فشبَّ رسول الله ـ ص ـ يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعائبها لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءةً ؛ وأحسنهم خُلْقاً ؛ وأكرمهم مخالطة ؛ وأحسنهم جواراً ؛ وأعظمهم حُلُقاً ؛ وأصدقهم حديثاً ؛ وأعظمهم أمانةً ؛ وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنِّس الرجال»[٢٠] .

ونشأ هذا الصبي نشأة فريدة بين حنان الجدِّ وعواطف الأعمام ؛ وحبهم العميق ورعايتهم الفائقة ، وتنقل بين مكة والمدينة فتعايش مع خشونة الصحراء وجفافها ، وخَبَرَ صِعابَها وأهوالها ، فأصبح بفضل ذلك قويَّ الشكيمة شجاع القلب صلب العود . ثم خرج ـ وهو غلام في التاسعة أو الثانية عشرة ـ مع عمِّه أبي طالب الى بلاد الشام ، وكان عمه قد ذهب اليها تاجراً[٢١] ، فزاده ذلك معرفةً بشؤون الحياة .

ثم شهد مع أعمامه ـ وهو في العشرين أو أقل من ذلك أو أكثر على اختلاف الروايات ـ بعضَ أيام حرب الفجار بين قريش وأحلافهم من كنانة وبين قيس عيلان[٢٢] ، فأضاف بهذا الشهود الى خبرته خبرةً وحنكةً والى درايته دراية واتقاناً .

كما حضر حلفَ الفضول مع آله وقبيلته ـ وهو ابن عشرين سنة ـ ، وكان قد دعا اليه عمُّه الزبير بن عبدالمطلب، فتعاقدت فيه قريش وتعاهدت بالله على أن تكون مع المظلوم حتى يُؤدّى اليه حقُّه[٢٣] ، فكان لمحمدٍ الفتى في هذا الحضور المزيدُ من الصقل والتعلم والاطلاع .

---

(١٩) سيرة ابن هشام : ١/١٧٨ و١٨٩ و١٩٠ وطبقات ابن سعد : ١/ق ١/٧٤ ـ ٧٥ وأنساب الأشراف : ١/٨٤ ـ ٨٥ وتاريخ الطبري : ٢/١٦٦ و٢٧٧ والكافي : ١/٤٣٩ .

(٢٠) السير والمغازي : ٧٨ .

(٢١) السير والمغازي : ٧٣ ـ ٧٦ وسيرة ابن هشام : ١/١٩١ ـ ١٩٤ وانساب الأشراف : ١/٩٦ ـ ٩٧ وتاريخ الطبري : ٢/٢٧٧ ـ ٢٧٩ والروض الأُنُف : ١/٢٠٦ . ويراجع ديوان أبي طالب (صنعة ابي هفان) : ١٤٣ ـ ١٥٠ وديوانه (صنعة علي بن حمزة) : ٥٢ ـ ٦٠ ـ وكلاهما بتحقيقنا ـ ، وما ذكره أبو طالب في أشعاره في هذه الرحلة مما رأى وشاهد من محمد من علامات النبوة وشواهدها الناطقة .

(٢٢) السير والمغازي : ٤٨ وسيرة ابن هشام : ١/١٩٥ ـ ١٩٨ وتاريخ اليعقوبي : ٢/١١ ـ ١٢ وانساب الأشراف : ١/٩٩ ـ ١٠٣ وطبقات ابن سعد : ١/ق ١/٨١ .

(٢٣) طبقات ابن سعد : ١/ق ١/٨٢ وتاريخ اليعقوبي : ٢/١٢ ـ ١٣ .

ولمّا كان رسولُ الله ـ ص ـ في عامه الخامس والثلاثين ؛ قامت قريش بهدم الكعبة لتجديد بنائها ، وجمعت القبائل الحجارة وبدأوا العمل ، «حتى اذا بلغ البنيانُ موضعَ الركن اختصموا فيه ، كلُّ قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى» ، ثم اشتدَّ الخصام في ذلك الى حدِّ الاستعداد للقتال فيما بينهم ، «فمكثت قريش أربع ليالٍ أو خمس ليال على ذلك» ، فاقترح عليهم أحدُ رجالهم ـ وكان أسَنَّهم ـ أن يجعلوا بينهم حكماً أوَّلَ مَنْ يدخل من باب المسجد، فرضوا بذلك ، «فكان أول مَنْ دخل عليهم رسول الله ـ ص ـ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ؛ قد رضينا به ؛ هذا محمد . فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبرَ قال : هلمَّ إليَّ ثوباً، فأُتِيَ به ، فأخذ الركنَ فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كلُّ قبيلةٍ بنا حيةٍ من الثوب ثم ارفعوه جميعا . ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به موضعَه وضعه بيده ، ثم بُنِيَ عليه»[٢٤] .

وكان رسول الله قبل ذلك ـ وله من العمر خمس وعشرون سنة في الرواية المشهورة ـ قد تزوَّج بخديجة بنت خويلد كما يأتي بيانه ، فحفظ الله تعالى ذريته ونسبه ببركة هذه المرأة الصالحة وما ولدتْ وأنجبتْ .

★★★

وهكذا دلف محمد الى عامه الأربعين ؛ وقد تكاملت فيه جميع صفات الرجولة الحقَّة ؛ نبلاً ومجداً ؛ وعراقة وشرفاً ؛ وذكاء وفهماً ؛ ومعرفة وعبقرية ، ثم ضمَّ اليها كلَّ ما منحته الحياة من خبرات واسعة وتجارب عظيمة الآثار : فقد رعى القطعان، ومارس التجارة، وشهد الحروب ، وحضر مجالس الاحلاف ، وجرَّب الأسفار ، وعاش حياة الصحراء القاحلة الماحلة . وكلُّ ذلك مما يدعم تلألؤ الرجولة ولمعانها في الانسان .

---

(٢٤) طبقات ابن سعد : ١/ق ١/ ٩٤ ـ واللفظ منه ـ. ويراجع في ذلك السير والمغازي : ١٠٨ ـ ١٠٩ وسيرة ابن هشام : ١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠ وتاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٤ وانساب الأشراف : ١/ ٩٩ ـ ١٠٠ وتاريخ الطبري : ٢/ ٢٩٠ .

وربما يصحُّ أن يضاف الى قائمة ميزات هذا الرجل : أنه فقير ؛ لم تلامس قلبَه قسوةُ الغنى والترف ؛ ولم تُطغِه مشاعرُ الثراء واليسار . وأنه يتيم الأبوين لم تُلِنْ قناتَه التربيةُ العاطفية السائبة ؛ ولم يقعد به التدليل المفسِد ، فكان ـ كما أُريد له ومنه ـ قويَّ الارادة حصيف الرأي متواضع الخُلُق عظيم الصبر شديد الأيد، على الرغم مما كان يمنحه جدُّه ثم عمُّه من بعده وسائرُ أهله من ألوان الود والدلال والحنان والتفضيل.

وبمجموع هذه الصفات الفضلى والخصال الرائعة كان محمد مؤهَّلاً ـ بأعلى درجات التأهيل ـ لحمل الرسالة الكبرى والقيام بواجب الأمانة العظمى ، وكانت جميع ملكاته وقابلياته وتصرفاته في مستوى ذلك المركز الكبير الخطير الذي أعدَّه الله له ؛ ولم يكن ينقصه الاّ نزول الوحي والأمر بالتبليغ .

الزَّوَاجُ والأَزْوَاج

أشرنا فيما تقدَّم الى أن هذا الفتى الهاشميَّ المرموق لما بلغ عامه الخامس والعشرين ؛ تزوَّج ـ للمرَّة الاولى ـ بالسيدة الكريمة النبيلة خديجة بنت خويلد ، وهي يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً ؛ وأعظمهنَّ شرفاً ؛ واكثرهنَّ مالاً وثراء[1] .

وكانت علاقة العمل المشترك ورابطة المضاربات التجارية وأسفارها ؛ قد شدَّتْ آصرةَ الاعجاب بين هذا الشاب وتلك السيدة ؛ بما عرفتْ عنه وعرف عنها من مزايا وأخلاق وخصال ، ثم تُوِّج ذلك الاعجاب ـ على الرغم من فارق السن ـ بالزوجية المقدَّسة القائمة على الحب الصادق والوداد العميق .

«وكانت خديجة ابنة خويلد امرأةً تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم منه . . . . فلما بلغها عن رسول الله ـ ص ـ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ؛ بعثتْ اليه فعرضتْ عليه أن يخرج في مالها تاجراً الى الشام ، وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره . . فقبله منها رسولُ الله ـ ص ـ وخرج في مالها . . . . ثم باع رسول الله ـ ص ـ سلعته التي خرج بها ؛ واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلاً الى مكة»[2] .

وأثارت مواهبُ محمدٍ وقابلياته اهتمامَ خديجة وإكبارَها ، وزادها معرفةً بهذا الشاب ما أخبرها به غلامُها ميسرة ـ وكان مرافقاً لمحمد في هذه الرحلة ـ من أمانته ونزاهته وعن طالعه وما يقول أهل الكتاب فيه . ولمستْ بيدها آثارَ ذلك من كثرة الأرباح ووفرة الأموال ونماء المكسب[3] ، فـ«عرضتْ عليه نفسها» للزواج ، فذكر النبيُّ ـ ص ـ ذلك لأعمامه فرجَّحوا له الأمر ، «فتزوَّجها»[4] ؛ على الرغم من كونها ـ كما هو المشهور ـ في الأربعين من العمر ؛ ومن زواجها قبل ذلك مرتين .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/١٩٨ و٢٠١ وأنساب الأشراف : ١/٩٨ وتاريخ الطبري : ٢/٢٨٠ .

(٢) السير والمغازي : ٨١ وتاريخ الطبري : ٢/٢٨٠ .

(٣) أنساب الأشراف : ١/٩٧ ـ ٩٨ .

(٤) السير والمغازي : ٨٢ وأنساب الأشراف : ١/٩٧ وتاريخ الطبري : ٢/٢٨١ .

وتفرَّدت السيدة خديجة بين جميع أزواج النبي بمعاشرتها اياه زوجاً غير مكلَّفٍ بالرسالة ؛ وبعيداً عن أضواء النبوة وهالتها القدسية . وحسبها فخراً أنها كانت ـ بإجماع الكلمة ـ أول من بادر الى الايمان بهذا الدين المبين ؛ وأنها بذلت كلَّ ما تملك من ثروة ومال في سبيل الله والدعوة الى توحيده .

وتميَّزت هذه المؤمنة الاولى ـ بين سائر امهات المؤمنين ـ ان الله تعالى قد خصها بشرف حفظ نسب النبوة ؛ من طريقها وطريق ابنتها حبيبة محمد ووحيدته فاطمة الزهراء ـ كما يأتي بيانه في فصل الأولاد ـ .

وكان قد تجنّى بعض أعداء الاسلام فزعم ان دافع محمد للزواج بخديجة ـ وهي تكبره خمسة عشر عاماً ـ طمعُه بثرائها وهو الفقير المعدم . ويوضح بطلانَ هذا الزعم ما نلمسه من حب النبي لها وتقديره إياها طيلة سني حياتها ؛ وما بقي يحمل لها ـ وهي في قبرها ـ من حب عظيم واحترام كبير يثير في كثيرٍ من الأحيان غَيرةَ بعض أزواجه الاخريات .

وقد روى الرواة عن السيدة عائشة قولها :

«ما غرتُ على امرأة لرسول الله ـ ص ـ ما غرتُ على خديجة مما كنتُ أسمع من ذكره لها ، وما تزوَّجني الاّ بعد موتها بثلاث سنين ، ولقد أمره ربُّه أن يبشرها ببيتٍ في الجنة من قصب ؛ لا نصب فيه ولا صخب»[٥] .

وتقول السيدة عائشة في رواية اخرى :

«دخلتْ امرأة سوداء على رسول الله ـ ص ـ فأقبل عليها واستبشر بها ، فقلتُ : يا رسولَ الله ؛ أقبلتَ على هذه السوداء هذا الإقبال ؟ ، فقال : إنها كانت تدخل على خديجة كثيراً ، وان حُسنَ العهد من الايمان»[٦] .

وتحدثنا السيدة عائشة أيضاً عن وفاء النبي ـ ص ـ لذكرى خديجة فتقول :

---

(٥) السير والمغازي : ٢٤٤ ، وقريب منه في صحيح البخاري : ٤٨/٥ وسنن الترمذي : ٧٠٢/٥ .

(٦) انساب الأشراف : ٩٨/١ .

كان رسول الله ـ ص ـ يذبح الشاة «فيتتبَّع بذلك صدائقَ خديجة ليهديها لهنَّ»[٧] .

وتقول أيضاً :

«كان رسول الله ـ ص ـ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء . فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة فقلتُ : هل كانت الاّ عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟ ! ، فغضب حتى اهتزَّ مقدَّمُ شعرِه من الغضب ، ثم قال : لا واللهِ ؛ ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنتْ بي إذ كفر الناس ، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس ، وواسَتْني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء . قالت عائشة : فقلتُ في نفسي : لا أذكرها بسيئةٍ أبداً»[٨] .

وجاء في الحديث الشريف عن رسول الله ـ ص ـ قوله :

«حسبك من نساء العالمين أربع : مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة ابنة محمد»[٩] .

وتوفيت أم المؤمنين الكبرى قبل مهاجر النبي ـ ص ـ بثلاث سنين[١٠] ؛ في السنة العاشرة من البعثة الشريفة .

★★★

وكانت للنبي ـ ص ـ بعد وفاة السيدة خديجة أزواج أُخريات أثار تعدُّدُهن حفيظة أعداء الاسلام ، فعدُّوا ذلك من أهمِّ المطاعن في هذا الدين ونبيِّه الأمين .

---

(٧) سنن الترمذي : ٥/٧٠٢ ونهاية الأرب : ١٨/١٧٢ .

(٨) نهاية الأرب : ١٨/١٧٢ .

وكان بعضٌ قد شوَّه هذا الحديث وأسقط آخِرَه ، فقد روى البخاري بسنده عن عائشة قالت : «استأذنت هالة بنت خويلد اخت خديجة على رسول الله ـ ص ـ ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك ، فقال : اللهم هالة . قالت : فغِرْتُ فقلتُ : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها» وقد حُذِف جواب النبي (ص) الذي رويناه في أعلاه . يراجع صحيح البخاري : ٥/٤٨ ـ ٤٩ .

(٩) السير والمغازي : ٢٤٤ وسنن الترمذي : ٥/٧٠٣ .

(١٠) السير والمغازي : ٢٥٤ .

وإن كلَّ مَنْ درس تاريخ النبوة يعلم أن هذا التعدد بعيدٌ كل البعد عمّا ظنوه وزعموه، كما سيتضح ذلك عندما نستعرض أسماء تلكم الأزواج وظروف التزوج بهنَّ .

وغنيٌّ عن القول ان حبَّ الرجل العظيم للمرأة وشعوره بالمتعة معها ليس مما يُعاب به، بل هو حكم الفطرة ومنطق الحياة البشرية ، والنبي بشر بمشاعره وغرائزه ﴿يأكل الطعامَ ويمشي في الأسواق﴾ ﴿قل : سُبحان ربّي هل كنتُ الاّ بَشَراً رسولا﴾ ، انما العيب كل العيب أن يطغى عليه هذا الحبُّ حتى يشغله عن تكاليفه وواجباته ، ويحمله على التفريط ببعض التزاماته ومسؤولياته، وذلك ما لا يستطيع عدو من أعدائه الشرقيين أو المستشرقين أن يقيم عليه برهاناً أبداً ، فلم تشغل المرأة محمداً عن أداء شيء مما أمره الله به وألزمه بتنفيذه ، بل لن نجد في سلوك محمد اذا أمعنّا النظر فيه الاّ أنه قد أعطى للنبوة حقَّها وللمرأة حقَّها ولفطرته البشرية حقَّها أيضاً، وتلك إحدى سمات العظمة الفذَّة في هذا الرجل العظيم .

ولو كان للهوى والشهوة سلطان على قلب محمد لَمَا عُرِفَ في مكة بالحياء والعفَّة منذ نعومة أظفاره ؛ ولاتَّخذ من الزوجات منذ مطلع شبابه مَنْ شاء من فتيات قومه العُرُب الأبكار اللائي اشتهرن بالجمال والفتنة ، ولعزف عن الاقتران بتلك المجموعة من النساء الثيبات ؛ وفيهن الشيخات أو مَنْ هُنَّ على أبواب الشيخوخة .

لقد أراد النبي بزواجه ـ في بعض الحالات ـ مُصَاهرةَ مَنْ تقوى بهم شوكتُه أو يأمن بذلك أذاهم وشرَّهم ، وقصد في حالاتٍ اخرى مَنْحَ عطفه وحنانه لبعض الأرامل والمنكوبات بسبب الاسلام وحروبه ؛ أو رعاية بعض الأسيرات من ذوات العزِّ والشرف في قومهن . وقد تجمعت بفعل هذه الدواعي الانسانية والدوافع النبيلة تلك القائمة من الأزواج اللائي عدَّهن أعداء الاسلام ـ لكثرتهنَّ ـ دليل الانسياق مع الميول الغريزية والاستسلام لنوازع النفس ورغباتها الجامحة .

واذا كان هناك ما يبعث على الأسف أو الألم في هذا الجانب فهو ما قرأناه في بعض كتب الحديث والتاريخ من نصوصٍ مسندةٍ معنعنة هي على الضدِّ مما أسلفنا

ذكره، وقد ساقها المؤلفون بلا تمحيص أو تدقيق، وربما كانت هي المشجِّع لاولئك الأعداء على التجرؤ باطلاق المزاعم في هذا الصدد وترداد الأكاذيب .

ونكتفي في التعليق على ذلك بمقتطفات مما كتبه الباحث المصري صالح الورداني في هذا الموضوع ـ وقد أشبعه شرحاً وتحليلاً ـ فقال في جملة ما قال :

«كنتُ أتصور أن المستشرقين يتجنون على رسول الله ـ ص ـ حين يتهمونه بحبِّ النساء والشغف بهن وأنه رجل جنس ، وان هذا الاتهام انما يعكس الحقد الصليبي الذي يكنُّه أمثال هؤلاء للاسلام في شخص الرسول ، حتى وقفتُ على مجموعة من الروايات في كتب السنن تدعم هذا الاتهام وتعذر أمثال هؤلاء» ، و«إنني أجزم أن أيَّ مسلم مهما كان مستواه الفكري والخلقي لا يمكن أن يقبل أن يقال عن رسوله مثلُ هذا الكلام ؛ وأن تكون حياته الجنسية مفضوحة بهذا الشكل» .

ثم روى هذا الباحثُ عن البخاري ما أورده من طواف النبي ـ ص ـ على نسائه في الليلة الواحدة ـ وله يومئذٍ تسع نسوة[11] ـ . وما أورده البخاريُّ أيضاً عن الصحابة من تحدُّثهم بأن النبيَّ أُعْطِي قوةَ ثلاثين رجلاً في الجماع[12] . وما أورده أيضاً بشأن صفية بنت حييّ بن أخطب وإعجاب النبي ـ ص ـ بها ، وأخْذِها من دحية وقد صارت من حقِّه الشرعي بازاء مالٍ أرضاه به ، ثم بنائه عليها وهو في الطريق بين خيبر والمدينة[13] . وما رواه البخاري ومسلم عن اضطجاعه ـ ص ـ مع أُم سلمة وهي حائض واغتسالهما معاً من الجنابة في إناء واحد[14] . وما رَوَياه عن عائشة من أن رسول الله ـ ص ـ كان يأمر زوجته الحائض بأن تَأْتَزِرَ ثم يباشرها[15] . وماورد في روايات اخرى من امور لم تخرج عن اطار هذه المعاني والمضامين ؛ ومنها رواية مسلم عن دخول

---

(١١) صحيح البخاري : ١/٧٦ و٧/٤ و٤٤ وصحيح مسلم : ١/١٧١ وسنن الترمذي : ١/٢٥٩ وسنن ابن ماجه : ١/١٩٤ ومسند احمد : ٣/٩٩ و١٦٠ و١٦٦ و١٨٥ و١٨٩ و٢٢٥ و٢٣٩ و٢٥٢ .

(١٢) صحيح البخاري : ١/٧٣ ، وهي «قوة أربعين رجلاً» في طبقات ابن سعد : ١/ق ٢/٩٦ .

(١٣) صحيح البخاري : ٥/١٦٨ و٧/٨ و٢٨ ومسند أحمد : ٣/٢٦٤ .

(١٤) صحيح البخاري : ١/٨٤ ومسند أحمد : ٦/٣١٨ .

(١٥) صحيح البخاري : ١/٧٩ وصحيح مسلم : ١/١٦٦ و١٦٧ وسنن ابي داود : ١/٦١ و٥٠٠ وسنن ابن ماجه : ١/٢٠٨ ومسند احمد : ٦/٣٣٥ و٣٣٦ .

النبي ـ ص ـ على أُمّ حرام بنت ملحان ـ وهي متزوجة ذات بعلٍ ـ «فأطعمته ثم جلستْ تَفْلي رأسَه فنام»[١٦] .

وبعد أن أورد الباحثُ الورداني الكثير من الشواهد منقولةً من كتب الحديث والسنن ؛ عقّبَ على ذلك فقال في خلال تعقيبه :

«ان المتأمّل في هذه الروايات يتأكد له ان رسول الله كان شديد الشغف بالنساء ؛ حتى انه كان يطوف على نسائه التسع في ليلة واحدة ، وان هذا السلوك الشهواني من قِبَلِه قد جعل الناسَ في المدينة يتحدثون عن قدرته الجنسية . . .

«وما معنى أن الرسول تسيطر عليه شهوته الى الحدِّ الذي يجعله يأخذ صفية من دحية، ويدخل بها في الطريق دون أن ينتظر دخول المدينة وهو قادم من حرب ؟» .

«وما معنى فقدان الرسول للصبر على شهوة الجنس بحيث يضاجع زوجاته وهنَّ حائضات» ؟ .

«ورواية مسلم أدهى وأمرُّ، كيف للرسول أن يدخل على امرأةٍ متزوجة وينام في حجرها وتَفْلي له رأسَه ؟» .

ثم ذكر الكاتب نفورَ عقله من هذه الأخبار ، وقطعَه باختلاق مثل هذه الروايات وبطلانها» ، ورأى «ان الذين اختلقوها انما كانوا يهدفون من ورائها الى تشويه شخصية الرسول ، لكي يمكن على ضوء هذا السلوك المنسوب للرسول تبرير سلوك الحكام وحكاياتهم مع النساء» .

ثم قال :

«ولقد بحثتُ بين شروح الفقهاء لكتب السنن عن فقيهٍ واحد ينظر لهذه الروايات بعين الناقد مدافعاً عن شخص الرسول فلم أجد الاّ تبريراً وتأكيداً لمثل هذه السلوكيات» ، وان «هذه الرؤية التي هي محل إجماع الفقهاء والمحدثين انما فتحت الأبواب لاضطهاد العقل وتكبيله بنصوص منسوبة للرسول ـ ص ـ لا يجوز الاعتراض عليها أو تجاوزها» .

---

(١٦) صحيح البخاري : ٤/١٩ و٩/٤٤ وصحيح مسلم : ٦/٤٩ وسنن ابي داود : ٢/٦ وسنن الترمذي : ٤/١٧٨ .

ثم دعا في ختام هذا الفصل من بحثه الى ضرورة إخضاع دلالة الحديث للنقد كما أُخْضِع السند ، لأنَّ «حصر نقد الحديث في دائرة السند فقط انما هي مؤامرة على العقل وعلى الاسلام» ، ورأى أن نقد السند أيضاً بطرائقه المتداولة لم يخلُ من تلاعبٍ مخطَّط ، فقد «وضِعت له قواعد خاصة تفوح منها رائحة السياسة»[١٧] .

★★★

ولكي تتضح للقارىء المنصف حقيقة ما قلناه في أسباب تعدُّد الازواج ؛ نورد ـ فيما يأتي بايجازٍ ـ أسماءهنَّ وظروف الزواج بهنَّ كما تسالم على ذكره رواة السيرة والتاريخ :

الاولى ـ خديجة بنت خويلد ـ وقد تقدَّم ذكرها ـ ، ولم يتزوج النبي غيرها إلا بعد وفاتها .

الثانية ـ سودة بنت زمعة : وهي أرملة في أواخر الشباب ، توفي عنها زوجها المسلم أيام كان النبي (ص) في مكة قبل الهجرة[١٨] ، فتزوجها النبي ليرفع عنها آلام الوحدة والترمل .

الثالثة ـ عائشة بنت أبي بكر : وهي البكر الوحيدة بين أزواج النبي ـ ص ـ[١٩] .

الرابعة ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب : أرملة توفي زوجها متأثراً بجراحه التي أُصيب بها في معركة بدر . و«لما تأيمت حفصةُ لقي عمرُ عثمانَ فعرضها عليه ، فقال عثمان : ما لي في النساء حاجة . فلقي أبا بكر فعرضها عليه فسكت ، فغضب على أبي بكر . فاذا رسول الله قد خطبها فتزوجها»[٢٠] ليرفع عنها وحشة الترمل .

الخامسة ـ زينب بنت خزيمة : تزوجت قبل النبي مرتين[٢١] ، واستشهد زوجها

---

(١٧) الخدعة : ٧٣ ـ ٧٨ .

(١٨) السير والمغازي : ٢٥٤ .

(١٩) السير والمغازي : ٢٥٥ وسيرة ابن هشام : ٤/٢٩٣.

(٢٠) طبقات ابن سعد : ٨/٥٦ ـ ٥٧ . وروى ابن ماجه في السنن : ١/٦٥٠ والذهبي في سير اعلام النبلاء :٢/٢٢٨و١٥/٤٢٥ «ان رسول الله ـ ص ـ طلق حفصة بنت عمر تطليقة ثم ارتجعها» .

(٢١) سيرة ابن هشام : ٤/٢٩٧ .

الثاني يوم بدر، فأشفق عليها النبيُّ (ص) فتزوجها إكراماً لها ولـزوجها الشهيـد، ولم تمكث في دار النبوة سوى ثمانية أشهر ثم أدركها الموت .

السادسة ـ أمُّ سلمة : جُرِحَ زوجها في معركة أحُد، وخفت وطأة الجرح حتى كاد يبرأ، ثم خرج في سريَّة من سرايا الرسول فانتقض عليه جرحه واشتدت به الحال حتى توفي، وخلَّف أرملته امَّ سلمة وأولاداً له منها[٢٢] ، فتزوجها النبي (ص) اشفاقاً عليها وعلى أطفالها، وقد امتنعت امُّ سلمة عن قبول الزواج بالنبي ـ ص ـ معتذرةً بكبر السنِّ ووجود الأطفال ، فلم يأبه النبي بعـذرها لأن الـذي حمله على ذلـك هو هـذا الذي اعتذرت به .

السابعة ـ زينب بنت جحش : ابنة عمة النبي ـ ص ـ ، وقد تزوجها لأول مرة زيد بن حارثة برغبةٍ وتشجيع من النبي ، وكأنه أراد بذلك إلغاء الفوارق النَّسَبيـة في المجتمـع الاسلامي . ولم يستـطع زيدٌ الاستمـرار في العيش معها ؛ لتعـاليها عليـه وإشعارها اياه دائماً بوضاعة أصله وشرف أهلها ، فانتهى به الامر الى طلاقها . فأمر الله تعالى نبيَّه بتزوُّجها ليكون ذلك إلغاءً عملياً للمفهـوم الخاطىء الشـائع في عـدم تزوُّج الرجل بمطلَّقة مَنْ افترضه ابناً له بالتبنِّي ، وفي ذلـك يقول الله تعـالى : ﴿فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوَّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم﴾ ، وهذه الآية صريحة في أن هذا الزواج كان بأمر الله تعـالى[٢٣] ؛ إظهاراً لحكمٍ شرعي كان يجب إظهارُه بعد نزول النهي الالهي عن التبنِّي الجاهلي وعن تـرتيب الآثار عـلى ذلك التبنِّي المزيَّف .

أمّا ما زعمه جهلةُ التاريخ وأعداءُ الاسلام من أن محمداً قصد ذات يوم دارَ زيدٍ فرأى زوجته فأعْجَبَتْه ، فحرَّض زيداً على طلاقها كي يتزوَّجها ؛ فهو واضح الكذب والبطلان ، لأن زينباً كانت ابنة عمة النبي وكان قـد رآها وعـرفها قبـل أن يزوِّجهـا زيداً ، ولو كان له فيها هوى ورغبة لضمَّها الى أزواجه ولم يحملها على قبول الـزواج بزيد .

---

(٢٢) السير والمغازي : ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

(٢٣) السير والمغازي : ٢٦٢ وسيرة ابن هشام : ٤/ ٢٩٤ .

الثامنة ـ جويرية بنت الحارث : بنت سيد بني المصطلق ، وكانت قد أُسرت في احدى المعارك الاسلامية وصارت في سهم أحد المسلمين ، فاستنجدت بالنبي على منحها مبلغاً تشتري به نفسها من آسرها المالك لها ، فعرض عليها النبي أن يدفع عنها مبلغ التحرير وأن يتزوجها بعد ذلك[٢٤] ، فسرَّت سروراً كبيراً ، وهكذا كان .

التاسعة ـ صفية بنت حيّ : وكانت قد تزوجت مرتين من أبناء قومها اليهود ، ثم أُسرت في غزوة خيبر ، فتزوجها النبي ليضرب بذلك المثل الرائع في إكرام الاسرى ورعايتهم[٢٥] .

العاشرة ـ أُمُّ حبيبة بنت أبي سفيان : تزوجت لأول مرة قبل البعثة النبوية ، وأسلمتْ مع زوجها فطارَدَتْها قريش فيمن طاردتْ من المسلمين ، فهاجرا الى الحبشة في قافلة المسلمين المهاجرين . وهناك ارتدَّ زوجُها عن دينه فلم تطاوعه زوجتُه في ارتداده ، وبقيتْ محافظةً على إيمانها على الرغم من غربتها وانقطاع صلتها بزوجها المرتد ، ولم تكن تستطيع العودة الى مكة لعلمها بما كان عليه أبوها واخوتها وكل أفراد اسرتها من عداءٍ وحربٍ على الاسلام والمسلمين .

وعندما علم النبي ـ ص ـ بهذه التفاصيل أوعز بمفاوضتها في أمر الزواج به ، فوافقتْ ورحَّبت[٢٦] ، ثم عادت مع جعفر بن أبي طالب الى المدينة لتصبح إحدى أزواج النبي وامهات المؤمنين ، إكراماً لها على صبرها وتحمُّلها الآلام في سبيل الثبات على الاسلام .

الحادية عشرة : ميمونة بنت الحارث : أرملة كانت في التاسعة والأربعين من العمر حينما وهبت نفسها للنبي طالبةً منه أن يضمَّها الى أزواجه كما جاء بصريح القرآن في قوله تعالى : ﴿وامرأة مؤمنة إنْ وهبتْ نفسَها للنبي﴾ ، ولبّى رسول الله ـ ص ـ طلبها فأدخلها في عداد امهات المؤمنين[٢٧] .

★★★

---

(٢٤) السير والمغازي : ٢٦٣ وسيرة ابن هشام : ٤/ ٢٩٥ .

(٢٥) السير والمغازي : ٢٦٤ وسيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩٦ .

(٢٦) السير والمغازي : ٢٥٩ .

(٢٧) سيرة ابن هشام : ٤/ ٢٩٦ .

وهكذا نجد بعد استعراض هذه القائمة وقراءتها بامعان أنه لم يكن لدوافع اللذة والشهوة ؛ وهوى النفس والجنس ؛ أيّ دخلٍ في هذا التعدُّد والكثرة . وهل يعدُّ الرجل الذي يقترن بهذا العدد من الأرامل والعجائز ـ مع قدرته على انتقاء غيرهن من ذوات الجمال والشباب ـ رجلاً مستجيباً لغرائزه ومستسلماً للذائذه ؟!!

بل هل يمكن أن يكون هذا الرجل الاّ ذلك الانسان الرسالي المرتفع على كل أحاسيس الرغبات الجسمية الى أعلى مراتب الشعور بالمسؤولية السامية ؛ المصحوبة بالرأفة الدافقة والشفقة النادرة والحنان الفذ الكبير .

الأَبْنَاءُ والبَنَات

اشتهر بين المؤرخين أن للنبي (ص) من السيدة خديجة ثلاثة أبناء وأربع بنات .

أما الأبناء فهم :

القاسم .

الطاهر .

الطيِّب[1] .

وقد مات هؤلاء الأبناء بأجمعهم قبل الأسلام[2] إذْ أدركهم الموت وهم اطفال صغار «يرضعون»[3] ، وكنيةُ النبي المعروفة «أبو القاسم»[4] انما هي تكنيةٌ بأكبر هؤلاء . وقيل : «ولدت خديجةُ لرسول الله ـ ص ـ غلامَيْن . القاسم وعبدالله»[5] ، ولكن المشهور هو الذي تقدَّم ذكره .

ولم نجد في الروايات التاريخية المعنيَّة بهؤلاء الأبناء ما يبعث على الشك في صحتها أو التردد في قبولها .

ثم كان له ـ ص ـ بعد ذلك ابنٌ آخر هو ابراهيم ، وأُمُّه مارية القبطية التي أهداها اليه المقوقسُ ملك مصر . ومات ابراهيم ـ وهو ابن ثمانية عشر شهراً ـ في سنة عشر من الهجرة[6] .

---

(١) السير والمغازي : ٨٢ و٢٤٥ وسيرة ابن هشام : ١/٢٠٢ والكافي : ١/٤٣٩ .

(٢) السير والمغازي : ٨٢ وسيرة ابن هشام : ١/٢٠٢ .

(٣) السير والمغازي : ٢٤٥ .

(٤) السير والمغازي : ٨٢ وسيرة ابن هشام : ١/٢٠٢ وانساب الأشراف : ١/٣٩٦ .

(٥) السير والمغازي : ٢٤٥ . وأورد السهيلي في احدى رواياته : ان الطاهر هو عبدالله ؛ وان اسمه الذي سُمِّي به أوّلاً : عبدالله (الروض الأُنُف : ١/٢١٤) ، وروى ابن شهر اشوب ان القاسم وعبدالله هما الطاهر والطيِّب (المناقب : ١/١١٠) .

(٦) الروض الأُنُف : ١/٢١٦ .

وأمّا البنات فقد ذهب الجمهور الى أنّهنّ :

زينب .

رقية .

أُمّ كلثوم .

فاطمة[٧] .

وأنهن وُلِدن بأجمعهن ـ في أكثر الروايات وأشهرها ـ قبل البعثة ونزول الوحي على النبي ـ ص ـ[٨] .

ومن مسلّمات التاريخ : أن السيدة خديجة كانت قد تزوجت مرتين قبل زواجها برسول الله ـ ص ـ ، فقد تزوجها «وهي بِكرٌ: عتيقُ بن عائذ بن عبدالله بن مخزوم . . . ثم هلك عنها فتزوجها بعده أبو هالة النباشُ بن زرارة أحد بني عمرو بن تميم حليف بني عبدالدار . . ثم هلك عنها»[٩] . وكانت ـ رضي الله عنها ـ قد ولدت لكلٍ من زوجَيْها المذكورَيْن بعضَ الأولاد ، على اختلافٍ بين الرواة في العدد وفي الذكورة والأنوثة .

ولكننا عندما نمعن النظر في صحة انتساب هؤلاء البنات الأربعة للنبي ـ ص ـ نجد أن التحقيق التاريخي المعمَّق لا يعين على التصديق بهذه النسبة وإن اشتهرت ، بل لانجد بعد التحليل والتمحيص مَنْ نقطع ببنوَّتها له ـ ص ـ غير فاطمة .

ونورد فيما يأتي شواهد هذا التردد فيما وقفنا عليه من قرائن الشك وأمارات النفي :

أ ـ زينب :

روى بعضُ المؤرخين : ان زينباً وُلِدَتْ وللنبي ـ ص ـ ثلاثون سنة من العمر[١٠] ، وأنها أكبر الأخوات[١١] . وقد تزوَّجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزّى

---

(٧) السير والمغازي : ٨٢ و٢٤٥ وسيرة ابن هشام : ١/٢٠٢ وتاريخ اليعقوبي : ٢/١٤ وتاريخ الطبري : ٢/٢٨١ والكافي : ١/٤٣٩ .

(٨) السير والمغازي : ٨٢ وسيرة ابن هشام : ١/٢٠٢ .

(٩) السير والمغازي : ٢٤٥ والروض الأنف : ١/٢١٥ ـ ٢١٦ .

(١٠) الاستيعاب : ٤/٢٩٢ واسد الغابة : ٥/٤٦٧ والتبيين :٦٨ ونهاية الأرب : ١٨/٢١١ .

(١١) أنساب الأشراف : ١/٣٩٧وسير أعلام النبلاء : ٢/٢٤٦ .

ابن عبد شمس ـ وكان ابنَ خالتها ـ قبل أن يبْعَث أبوها بالرسالة ؛ فولدت له علياً ـ مات صغيراً ـ وأُمامة[١٢] .

وقد أسلمت زينب حين أسلمت أُمُّها في أول البعثة[١٣] ، وفرق الاسلام بينها وبين زوجها لبقائه على شركه ، الا أن رسول الله ـ ص ـ لم يقدر يومذاك على تنفيذ هذا التفريق ، فبقيت ـ على اسلامها ـ في دار الزوجية[١٤] .

والمستفاد من هذه الروايات في مجموعها: ان زينباً كانت حين بعثة أبيها في العاشرة من العمر ، وأنها كانت قد تزوجت وولدت ولدين في أثناء هذه المدة . فهل يُصَدَّق أن يُعزى لبنتٍ زواجٌ وولدان وهي بَعْدُ في العاشرة ؟ وهل من المقبول أن يُفتَرض زواجُها وهي في السادسة أو السابعة من العمر ؟ وأنها ولدت أولَ ولدٍ لها وهي في الثامنة ؟

ذلك ما يدفعنا الى الشك في كون زينب من صلب رسول الله ـ ص ـ ؛ وان كنّا لا نشك في كونها ربيبته ، ومما يزيد من هذا الشك ويضيف اليه قوة: ما رواه ابن اسحاق وغيره من أن لخديجة بنتاً من زوجها أبي هالة اسمها زينب[١٥] ، وروى ابن شهراشوب السروي ان زينب ورقية كانتا ابنتي هالة اخت خديجة[١٦] .

ب ـ رقية :

ج ـ أُمّ كلثوم :

ذكر بعضُ المؤرخين أن رقية وُلِدتْ وللنبي ـ ص ـ من العمر ثلاث وثلاثون سنة ؛ وأن اختها أمّ كلثوم أصغر منها[١٧] .

---

(١٢) السير والمغازي : ٢٤٦ ودلائل النبوة : ٢٨٢/٧ .

(١٣) سيرة ابن هشام : ٣٠٦/٢ .

(١٤) سيرة ابن هشام : ٣٠٧/٢ وانساب الاشراف : ٣٩٧/١ وطبقات ابن سعد : ٢٤/٨ والمحبَّر : ٥٣ وتاريخ الطبري : ٤٦٧/٢ ـ ٤٦٨ واسد الغابة : ٤٦٧/٥ ونهاية الأرب : ٢١١/١٨ .

(١٥) سيرة ابن هشام : ٢٩٣/٤ ونهاية الأرب : ١٧١/١٨ .

(١٦) المناقب : ١٠٩/١ .

(١٧) الاستيعاب : ٢٩٢/٤ ونهاية الأرب : ٢١٢/١٨ .

وروى المؤرخون أيضاً: أنهما تزوَّجتا عُتْبَة وعُتَيْبة ابني أبي لهب بن عبد المطلب قبل البعثة ؛ وأنهما أسلمتا عندما أسلمتْ أُمُّهما في أول البعثة[18] . ولمّا جاهر النبي ـ ص ـ بدعوته طلَّق ابنا أبي لهبٍ هاتين السيدتين الكريمتين ، وكان ذلك بطلبٍ من أمّ جميل أو أبي لهب ـ على اختلاف الروايات ـ ، فتزوَّج عثمانُ بن عفّان رقيَّةَ وهاجر بها الى الحبشة مع المهاجرين الأوَل[19] .

وعندما نتساءل في ضوء ما تقدَّم عن إمكان زواج رقية بابن ابي لهب قبل تجاوزها السابعة من العمر ـ وقد طُلِّقت وهي في هذه السن أو بعدها بقليل ـ ؛ وعن امكان زواج ام كلثوم وطلاقها وهي لم تتجاوز السادسة في أكثر الفروض ، فان الجواب الراجح أن ذلك بعيد جداً بل غير ممكن ؛ الاّ اذا كانتا ابنتَيْ خديجة من أحد زوجَيْها الأوَّلَيْنِ أو أن كلَّ واحدةٍ من زوج ، فيكون عمرهما عند الزواج أكبر مما قيل بعشر سنوات أو يزيد . أما اذا أخذنا برواية البيهقي بأن رقية قد تزوجها عثمان في الجاهلية[20] فان الأمر يبدو أكثر جلاء ووضوحاً .

د ـ فاطمة :

وبنوَّتها للنبي ـ ص ـ من أشهر الحقائق وأبين الأمور ، وقد أثِر عن النبي فيها من أحاديث التكريم وعبارات الاجلال ما لم يُؤثَر عنه في زينب ورقية وأُمِّ كلثوم ، وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد راوياً : «كان اختصاص رسول الله ـ ص ـ لفاطمة أكثر من اختصاصه للبنت الاخرى وللثانية التي تزوَّجها عثمان بعد وفاة الاولى»[21] .

---

(١٨) سيرة ابن هشام : ٢/٣٠٦ وطبقات ابن سعد : ٨/٢٤ و٢٥ .

(١٩) سيرة ابن هشام : ٢/٣٠٧ والمحبَّر : ٥٣ وأنساب الأشراف : ١/٤٠١ وتاريخ الطبري : ٢/٣٣٠ و٣٣١ و٣٤٠ والاغاني : ١٦/١٧٥ وسير اعلام النبلاء : ٢/٢٥١ و٢٥٢ ونهاية الأرب : ١٨/٢١٢ والاصابة : ٤/٢٩٧ .

وقد وهم الحافظ الذهبي في السير في تخطئته ابن سعد في نصِّه على زواج عتبة برقية قبل النبوة ؛ وقال : «وصوابه : قبل الهجرة» ، وذلك سهو بيِّن منه ، والصواب ما قاله ابن سعد ، لأن طلاق عتبة لزوجته كان في أوائل البعثة والدعوة، بدليل زواج عثمان برقية وهجرتها معه الى الحبشة في السنين الاولى من البعثة الشريفة. ويُراجَع في ذلك السير والمغازي : ٢٢٣ وسيرة ابن هشام:١/٣٤٦ .

(٢٠) دلائل النبوة : ٧/٢٨٢ .

(٢١) شرح نهج البلاغة : ٩/٢٥ .

وحسبنا من كلِّ ذلك المأثورِ عن رسول الله ـ ص ـ في ابنته الوحيدة الزهراء أن نقرأ قولَه :

«خيرُ نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد»[٢٢] .

وقوله ـ كما ورد في المتواتر عنه ـ : إنها «سيدة نساء العالمين» و«سيدة نساء المؤمنين» و«سيدة نساء هذه الامة» و«سيدة نساء أهل الجنة»[٢٣] .

وإنَّها ـ أيضاً ـ بصريح الحديث : بضعةٌ من رسول الله ـ ص ـ يُؤذيه ما آذاها ويُغضِبه ما أغضبها[٢٤] .

وهذا هو الشرف الأكبر الذي ليس فوقه زيادة لمستزيد ، ولم يُؤثَر عنه ـ ص ـ بعضه أو جزء منه في حق زينب أو رقية أو أم كلثوم .

★★★

ومما يجدر ذكره في هذا المقام بشيء من التفصيل : أني كنتُ قد أشرتُ في بحثي عن «النبوة» ـ وهو مطبوع أكثر من مرة ـ الى شكّي في أبوَّة محمد ـ ص ـ لزينب ورقية وأمِّ كلثوم ؛ والى ظنّي بأنهن بنات خديجة من زوجَيْها الأوَّلَيْن[٢٥] ، ثم نبَّهتُ على ذلك أيضاً فيما بعد فيما علَّقتُه على حرف الهمزة من معجم (العباب الزاخر) للصغاني عند قول مؤلِّفه : «ابنة النبي ـ ص ـ الاولى التي زَوَّجها منه [أي من عثمان] رقيَّة والثانية أمُّ كلثوم ـ رضي الله عنهما ـ» فقلتُ : «يبدو من البحث التاريخي المعمَّق أنهما بنتا خديجة من زوجَيْها السابقَيْن قبل النبي ـ ص ـ»[٢٦] .

وعندما قرأ أحمد عبدالغفور عطار الحجازي تعليقتي هذه على كلام مؤلِّف العباب كتب مقالاً في جَريدة (المدينة المنورة) الحجازية بعنوان (رافضيٌّ كذوب ينفي

---

(٢٢) مسند احمد : ١/٢٩٣ والاستيعاب : ٤/٣٦٥ والاصابة : ٤/٣٦٦ .

(٢٣) صحيح البخاري : ٥/٢٥ وصحيح مسلم : ٧/١٤٣ ومسند أحمد : ٦/٢٨٢ وطبقات ابن سعد : ٨/١٧ والاستيعاب: ٤/٣٦٤ و٣٦٥ والاصابة : ٤/٣٦٧ .

(٢٤) يراجع في ذلك : صحيح البخاري : ٥/٢٦ وسنن الترمذي : ٥/٦٩٩ ومسند أحمد : ٤/٣٢٣ وحلية الأولياء : ٢/٤٠ ومجمع الزوائد : ٩/٢٠٣ .

(٢٥) النبوة : هامش صفحات ٦٤ ـ ٦٦ .

(٢٦) العباب الزاخر/ حرف الهمزة : ٨٢ .

ابوة الرسول عن ابنتيه رقية وام كلثوم) أورد فيه ما ذكرتُه في التعليق على قول الصغاني ثم قال معقّباً على ذلك :

«وهذه فرية من هذا الرافضي ، فابوّة الرسول ـ ص ـ لهما ثابتة لاشكَّ فيها ، ولو صح زعمُ الرافضي لما قدَّر الصحابة هذه الابوّة بعد أن نزل قول الله عز وجل : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ ، ومعروف أن أسبابَ نزول هذه الآية كما قال ابن عمر ـ رض ـ : ماكنّا ندعو زيد بن حارثة الاّ زيداً بن محمد حتى نزلتْ ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ .

«وكان رسول الله ـ ص ـ قبل نزول هذه الآية قد أشهد على نفسه قائلاً : «اشهدوا أن زيداً ابني أرِثُه ويرثني» ، وصار الناس يدعون زيداً بن محمد حتى نزلت تلك الآية ؛ فنُسِب الى أبيه الحقيقي فصار اسمه زيد بن حارثة ، وصار كلُّ دعيٍّ يُنْسَب الى أبيه بعد نزول تلك الآية الشريفة .

«ولو لم تكن رقية وام كلثوم ابنتي رسول الله حقاً لَمَا نسبهما الى نفسه ؛ ولَما نسبهما اليه صحابته الكرام ، لأن في تلك النسبة مخالفةً لأمر الله عز وجل ، وما كان رسول الله ليخالف أمر ربِّه ، وكذلك صحابته ـ رض ـ مما يثبت ابوّته لهما .

«أمّا زعم محمد حسن آل ياسين فباطل محض ، وان نفي ابوة رسول الله ـ ص ـ عن ابنتيه الكريمتين : رقية وام كلثوم ؛ كذب صراح ! ! وكفر بواح ! ! وردّة صارخة»[٢٧] ! !

هكذا قال هذا الكُوَيْتِب وهو يكفِّر مسلماً يقول ربي اللهُ ويتشهد الشهادتين ، بل ينسب اليه الارتداد الصارخ الذي يجب بثبوته قتلُه ! ! .

وقد فات هذا الجاهلَ بمعاني القرآن وأسبابِ النزول وأحكام الفقه الأسلاميِّ أن النهي الالهي عن التبني ـ كما عَنَتْه الآية الشريفة التي أوردها ـ انما ينصبُّ على اولئك العبيد الذين تبنّاهم الناس في العصر الجاهلي وجعلوهم أبناء لهم ؛ مثل زيد بن محمد الذي ذكره عطار بالاسم ؛ ومثل كثيرين آخرين لم يسمِّهم ؛ كأمية المنسوب بالتبني

---

(٢٧) جريدة المدينة المنورة/ العدد (٥٤٤٢) / الصفحة الثالثة/ الجمعة ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٠١هـ / ٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٨١م .

لعبد شمس والوليد المنسوب لعقبة بن أبي مُعَيط وغيرهما ممن ذكرهم المؤرّخون . فجاء الأمر الالهي في تلك الآية صريحاً بالغاء التبني ووجوبِ عَزْوِ كل واحدٍ من هؤلاء لأبيه إن عُلِمَ ، وإنْ لم يُعْلَم آباؤهم كانوا إخواناً في الدين ، إن كانوا مسلمين .

وهذا كله ممّا لا خلاف فيه ، ولكنه لا يرتبط بمسألة البنات التي هي مورد البحث والمناقشة ، لأنها تمثّل عنواناً آخر من عناوين الفقه والشريعة ، وقد أطلق القرآن الكريم على ذلك اسم (الرَّبائب) أي بنات النساء اللائي كنَّ أُمّهاتٍ من أزواجٍ سابقين ثم تزوَّج بهنَّ بعد وفاة اولئك رجالٌ آخرون ، فضمُّوا بناتهنَّ اليهم ولم يفرّقوا بينهن وبين أمّهاتهن ، وهو موضوع يختلف كل الاختلاف عن قضية التبني التي أقحمها عطار في كلامه المتخبِّط .

ولو قرأ هذا الجاهلُ نصَّ الآية الثالثة والعشرين من سورة النساء لرأى أن الله تعالى قد جعل الرَّبائبَ اللائي يكنَّ في كلاءة الرجال المتزوجين بامهاتهنَّ في عداد البنات الصُّلبيين في تحريم التزوُّج بهنَّ ، ورتَّب على ذلك أحكاماً خاصة يعرفها الواقفون على معاني القرآن الكريم والعارفون بتفاصيل مسائل الفقه الاسلامي .

★★★

ولو لم يكن هذا العطار جاهلاً لعرف أن انتساب الربيب والربيبة الى المربّي ـ وهو زوج الأمّ ـ كان معروفاً عند العرب قبل الاسلام وبعده ؛ وقد تكرَّر ذكره في تراث السلف :

١ ـ فقد نصَّ الطبري[٢٨] على انتساب بني عليٍّ لعمهم عليٍّ بن مسعود ، واستشهد على ذلك ببيتٍ لكعب بن زهير جاء فيه :

صدموا عليّاً يوم بدرٍ صدمةً دانتْ عليٌّ بعدها لنزارِ

وقال السكّريُّ في شرح هذا البيت :

«عليٌّ أخو عبد مَنَاة بن كنانة بن خزيمة من أمّه» ، «وهو علي بن مسعود بن مازن ابن ذئب بن حارثة . . . من غسّان . . . فحَضَنَ عليٌّ بن مسعود بني أخيه عَبْدِ مَنَاة فغلب عليهم»[٢٩] .

---

(٢٨) تاريخ الطبري : ٢/٢٦٦ .

(٢٩) شرح ديوان كعب بن زهير : ٣٤ .

وقال الزَّبيديُّ شارحُ القاموس موضحاً ذلك : «بنو عليٍّ قبيلةٌ من كنانة ، وهم بنو عبد مَنَاة ، وانما قيل لهم بنو عليّ عزوةً الى علي بن مسعود الأزدي ـ وهو أخو عبد مناة لأُمِّه ـ ، فخلف على أُمِّ وَلَدِ عبد مناة وهم بكرٌ وعامر ومرَّة ، وامهم هند بنت بكر بن وائل النزارية ، فربّاهم في حجره ، فنُسِبوا اليه . والعرب تنسب ولدَ المرأة الى زوجها الذي يخلف عليها بعد أبيهم»[٣٠] .

٢ ـ وورد في المصادر اسم عبّاد بن أخضر المازني ، ولم يكن عبّادٌ ابناً لأخضر ، بل هم عَبّاد بن علقمة المازني ، وكان أخضرُ زوجَ أمِّه ، وغَلَبَ عليه[٣١] .

٣ ـ وروى ابن أبي الحديد في ترجمة هند بن أبي هالة ـ ابن خديجة من زوجها أبي هالة النباش بن زرارة ـ قال : «ثم أولد هندُ بن أبي هالة هندَ بن هند ، فهند الثاني أكرمُ الناس جَدّاً وجَدَّةً ، يَعْني رسولَ الله ـ ص ـ وخديجة»[٣٢] ، ولم يكن رسول الله ـ ص ـ جدَّه الحقيقي بل زوج جدَّته .

---

(٣٠) تاج العروس/ تركيب (علا) . ويراجع ايضاً في انتساب بني علي لزوج امهم : جمهرة النسب للكلبي : ١٣٤ والاشتقاق لابن دريد : ٥٤ .

(٣١) الكامل للمبرد : ٢٥٣/٣ وشرح نهج البلاغة : ٨٩/٥ .

(٣٢) شرح نهج البلاغة : ١٣٢/١٥ .

البِعْثَة

تسالمت الروايات التاريخية على أن محمداً كان يتحنَّث قبل بعثته في غار حراء ، وهو غارٌ يقع في جبلٍ قريب من مكة ، وكان «يخرج الى حراء في كل عامٍ شهراً من السنة ينسك فيه» ، حتى اذا أتمَّ مدة نسكه عاد الى مكة ؛ ولكنه لا يدخل داره بعد عودته حتى يطوف بالكعبة .

«حتى اذا كان الشهر الآخر الذي أراد الله عز وجل ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها» ، «وكانت الليلة التي أكرمه الله عز وجل فيها برسالته . . . جاءه جبريل بأمر الله تعالى . . . فقال : اقرأ» .

فقال له النبي ـ ص ـ : «وما أقرأ»؟

قال : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربُّك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علَّم الانسانَ ما لم يعلم﴾ ، ثم انتهى فانصرف[1] .

وجاء في الرواية عن النبي ـ ص ـ أنه قال :

«سمعتُ منادياً ينادي من السماء يقول : يا محمد ؛ أنت رسول الله ، وأنا جبريل»[2] .

وانصرف راجعاً الى أهله فرأته خديجة قلقاً مهموماً ، فقالت له : يا أبا القاسم ؛ أين كنتَ؟ ، فحدَّثها بما سمع ورأى . وأحسَّت باضطرابه وتخوُّفه من هذه المسؤولية العظمى وعبئها الكبير الخطير ، فقالت له : «أبشِرْ يا ابن عم واثبتْ له ، فوالذي تحلف به إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأُمَّة» .

---

(١) السير والمغازي : ١٢١ وسيرة ابن هشام : ١/٢٥١ ـ ٢٥٣ . ومضمونه في طبقات ابن سعد : ١/ق ١/ ١٣٠ وتاريخ الطبري : ٢/٢٩٨ .

(٢) السير والمغازي : ١٢١ وسيرة ابن هشام : ١/٢٥٣ .

«ثم قامت فجمعت ثيابها عليها ، ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل ـ وهو ابن عمِّها ، وكان قد قرأ الكتب وسمع التوراة والانجيل ـ ، فأخبرته الخبر وقصَّت عليه ما قصَّ عليها رسولُ الله (ص) . . . فقال ورقةُ : قُدُّوس قدوس ؛ والذي نفسُ ورقة بيده ، لئن كنتِ صَدَقْتِني يا خديجة ؛ إنه لَنَبيُّ هذه الامة ، وانه ليأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى»[3] .

وتقول الروايات : ان ذلك كان لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان[4] ـ ورسول الله (ص) يومئذٍ ابنُ أربعين سنة[5] ـ ؛ أو لسبع وعشرين من رجب[6] ؛ أو لثمان من ربيع الأول[7] . كما وردت روايات اخرى تذكر تاريخاً غير ما تقدَّم[8] ؛ ومنها ما لم يُعَيِّنْ فيها شهرٌ أو عُيِّنْ ولم يُنَصّ على يوم[9] .

أما النصُّ الالهي على نزول القرآن الكريم في شهر رمضان فقد قال السهيلي في بيان المراد منه :

«هذا يحمل تأويلَيْن :

«أحدهما : أن يكون أراد بدءَ النزول وأوَّلَه ، لأن القرآن نزل في أكثر من عشرين سنة في رمضان وغيره .

«والثاني : ما قاله ابنُ عباس : انه نزل جملة واحدة الى سماء الدنيا . . ثم نزلت منه الآية بعد الآية ؛ والسورة بعد السورة ، في أجوبة السائلين والنوازل الحادثة . . . وهذا التأويل أشبه بالظاهر ؛ وأصحُّ في النقل»[10] .

---

(٣) السير والمغازي : ١٢٢ وسيرة ابن هشام : ١/٢٥٣ ـ ٢٥٤ وتاريخ الطبري : ٢/٣٠١ ـ ٣٠٢ .

(٤) طبقات ابن سعد : ١/ق ١/١٢٩ وتاريخ الطبري : ٢/٢٩٤ .

(٥) السير والمغازي : ١٣٠ وسيرة ابن هشام : ١/٢٤٩ وتاريخ الطبري : ٢/٢٩٠ و٢٩١ والكافي ١/٤٣٩ .

(٦) التهذيب : ٦/٢ والمناقب : ١/١١٩ .

(٧) الاستيعاب : ١/١٣ .

(٨) تاريخ اليعقوبي : ٢/١٥ وتاريخ الطبري : ٢/٢٩٣ و٢٩٤ والمناقب : ١/١١٩ ونهاية الأرب : ١٦/١٦٩ .

(٩) السير والمغازي : ١٢١ و١٣٠ وسيرة ابن هشام : ١/٢٥٦ .

(١٠) الروض الأُنُف : ١/٢٧٥ .

وأيّاً ما كان اليومُ الذي نزل فيه الوحيُ والشهرُ الذي حدث فيه ذلك ؛ فقد أصبح محمدٌ منذ جاءه جبريل وبلّغه قول الله تعالى : ﴿اقرأ﴾ رسولَ الله ونبيَّ هذه الامة .

وقد شطَّ بعضُ الرواة كل الشطط في وصف حال النبي ـ ص ـ حين فوجيء بنزول جبريل عليه لأول مرةٍ ؛ يأمره بالقراءة ويبشره بالرسالة ، فزعموا أن المَلَكَ كان يغطُّ ـ أو : يغتُّ ـ محمداً حتى يبلغ منه جهده وهو يقول له : ﴿اقرأ﴾ ، والنبي يقول له : «ما أنا بقارئ» ، وأنه ـ ص ـ عاد من حراء «ترجف بوادرُه» أو «يرجف فؤاده» من الفزع ؛ حتى دخل على خديجة فقال : «زمِّلوني زمِّلوني» «لقد خشيتُ على نفسي» ، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع ، ولكنه لم يهدأ حقاً ولم يُصدِّق ما رأى وما سمع حتى هدَّأه ورقة بن نوفل ، ثم عاد الى فزعه واضطرابه وحزن حزناً شديدا لمّا انقطع الوحي عنه بعد نزوله الأول[11] ، وكأنه كان غير واثقٍ من أمره ! ! .

وزاد الطبري هذه القصص والأساطير اغراقاً في الخيال والشطط ؛ فروى عمَّن ادَّعى السماع من رسول الله ـ ص ـ أنه لما خوطب بالرسالة همَّ أن يطرح نفسه من حالق[12] ؛ أي ينتحر برَمْي نفسه من أعلى الجبل ؛ تخلُّصاً من هذا الأمر الخطير ، وأنه قال لخديجة : «ما اراني الاّ قد عُرِضَ لي»[13] أي أصابني مسٌّ من الجنِّ أو الجنون ! ! .

وكلُّ هذه المزاعم والمختلقات ـ في نظر المسلم النبيه ـ منافية لمقام النبوة ، ومنافية لما عُرِف به محمد من قوة البصيرة ومن عمق الايمان بالله وتوحيده ونبذ ما عليه قومُه من الشرك وعبادة الأوثان ، بل تنافي ما اعترف به لهذا الرجل جميعُ أعدائه وأصدقائه من ذهن ثاقب ؛ وفكر بعيد الغور ؛ ونفس مطمئنة اليقين ؛ وقلب ثابت الوعي ، لا تعبث به الأخيلة والأوهام ، ولا تعصف به المخاوف والظنون ، ولا يحتاج الى تطمينات كتابيٍّ اسمه ورقة بن نوفل أو مهدِّئاته .

وليس معنى هذا كله أنه ـ ص ـ لم يقلق ولم يشعر بعِظَم وطأة ما كان مما أُمِرَ به وما سيكون ، لعلمه بخطورة هذه المهمَّة الصعبة وثقل عبئها وضخامة مسؤولياتها ،

---

(١١) صحيح البخاري : ٦/٢١٤ ـ ٢١٥ .
(١٢) تاريخ الطبري : ٢/٢٩٨ .
(١٣) تاريخ الطبري : ٢/٢٩٩ .

وهو معنى آخر لا يمتُّ بأي صلة من الصِّلات الى الشك والجبن والفزع والرعب المؤدي الى العزم على الانتحار أو خوف الجنون كما زعمت تلك الروايات الملفَّقة .

كما أن هذا كله لا يعني كذب قصةِ ورقة بن نوفل من أساسها ، اذ من الممكن أن يبادر هذا الكتابيُّ الى الايمان بالنبي ـ ص ـ اثر سماعه من قريبته خديجة تفصيلَ ما حدث ؛ وربطِه بين ذلك وبين ما قرأ في الكتب السماوية السابقة من التبشير بنبوة هذا النبي ، ولكن المرفوض من القصة أن يكون ورقة هو السبب في تصديق النبي بما أُنزل عليه واقتناعه بنبوته وبعثته .

إن هذه الخزعبلات التي رواها الطبري وغيره معزوَّةً الى النبي ـ ص ـ حينما بلَّغه جبريل بالرسالة ؛ وهذه الحالات الشاذَّة التي صُوِّرَ فيها هذا الرجل العظيم وهو يتلقّى أمر السماء بقراءة ما أُوحي اليه ، هي التي حملت أعداء الاسلام على تسمية هذا الوحي الالهي بالغيبوبة ؛ وعدِّه ظاهرةً من ظواهر نوبات الصرع التي كانت تعتري هذا الرجل فيزعم في كل نوبةٍ منها أنه كان يتلقّى وحيَ اللهِ تعالى وقرآنَهَ .

ولقد أجاد المستشرق بودلي في الجواب عن ذلك إذ قال :

«ما كان الصرع ليجعل من أحدٍ نبياً أو مشرِّعاً ، وما رفع الصرع أحداً الى مراكز التقدير والسلطان يوماً ، وكان يعتبر مَنْ كانت تنتابه مثلُ هذه الحالات في الأزمنة الغابرة مجنوناً أو به مسٌّ من الجن . مع أنه لو كان هناك مَنْ يُوصَف بالعقل ورجاحته فهو محمد»[14] .

★★★

و«كانت خديجة أول مَنْ آمن بالله ورسوله ؛ وصدَّق ما جاء به ، فخفَّف اللهُ بذلك عن رسول الله ـ ص ـ . لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك الاّ فَرَّج اللهُ عنه بها اذا رجع اليها ، تثبته وتخفِّف عنه . . وتهوِّن عليه أمر الناس»[15] .

---

(١٤) الرسول ـ الترجمة العربية ـ: ٧٢ .

(١٥) السير والمغازي : ١٣٢ وسيرة ابن هشام : ٢٥٧/١ وتاريخ الطبري : ٣٠٧/٢ .

«ثم ان جبريل أتى رسولَ الله ـ ص ـ حين افترضت عليه الصلاة . . فتوضأ جبريل ـ ع ـ ومحمد ينظر اليه . . . ثم قام فصلى ركعتين . . . . ثم رجع النبي ـ ص ـ قد أقرَّ اللهُ عينَه وطابت نفسُه . . . فأخذ بيد خديجة . . . فتوضأ كما توضأ جبريل ، ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة» .

«ثم كان هو وخديجة يصليان سرّاً»[16] .

«ثم ان عليَّ بن أبي طالب جاء بعد ذلك بيومين فوجدهما يصلّيان ، فقال عليٌّ : ما هذا يا محمد؟ ، فقال النبي ـ ص ـ : دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك الى الله وحده والى عبادته . . . فمكث عليٌّ تلك الليلة . ثم ان الله أوقع في قلب عليّ الاسلام ، فأصبح غادياً الى رسول الله ـ ص ـ حتى جاء فقال : ما عرضتَ عليَّ يا محمد؟ ، فقال له رسول الله ـ ص ـ : تشهد أنْ لا إله الاّ الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللاّت والعزّى ، وتبرأ من الأنداد ، ففعل عليٌّ وأسلم . . وكتم عليٌّ اسلامَه ولم يظهر به»[17] .

وروى ابنُ اسحاق بسنده عن اسماعيل بن اياس بن عفيف عن أبيه عن جدِّه : أنه جاء مكة تاجراً ، فأتى العباسَ بن عبدالمطلب يبتاع منه ويبيعه ، قال : «فبينا نحن إذ خرج رجلٌ من خباءٍ فقام تجاه الكعبة يصلي ، ثم خرجت امرأة فقامت تصلّي معه ، وخرج غلام فقام يصلي معه . فقلتُ : يا عباس ؛ ما هذا الدين؟ . . . فقال العباس : هذا محمد بن عبدالله يزعم أن الله أرسله . . . وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنتْ به ، وهذا الغلام ابن عمِّه عليُّ بن أبي طالب آمن به»[18] .

ثم «ان رسول الله ـ ص ـ كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة ، وخرج معه عليُّ بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فاذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك . . ثم ان أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان ، فقال لرسول الله ـ ص ـ : يا ابنَ أخي ، ما هذا

---

(١٦) السير والمغازي : ١٣٦ .

(١٧) السير والمغازي : ١٣٧ ، وملخّص منه في سيرة ابن هشام : ١/٢٦٣ .

(١٨) السير والمغازي : ١٣٧ ـ ١٣٨ وتاريخ الطبري : ٢/٣١١ .

الدين الذي أراك تدين به؟ ، قال : أي عم ؛ هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم . . بعثني الله بـه رسولاً الى العبـاد ، وأنت ـ أي عم ـ أحقُّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ودعوتُه الى الهدى» . . . فقال أبو طالب : «أي ابن أخي ؛ اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن ـ واللهِ ـ لا يُخْلَص اليـك بشيءٍ تكرهه ما بقيتُ» .

قال ابن اسحاق : «وذكروا أنه قال لعليّ : أي بنيَّ ؛ ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟ ، فقال : يا أبت ؛ آمنتُ بالله وبرسول الله وصدَّقتُه بما جاء به ، وصلَّيت معه لله ؛ واتَّبعتُه» . فقال له : «أما إنَّه لم يَدْعُكَ إلاّ الى خيرٍ ؛ فالزمه»[19] .

وتتابع بعد ذلك آحاد قليلون من الناس في الـدخول في دين الله ، ثم دخـل الناس فيه «أرسالاً ؛ من النساء والرجال ، حتى فشا ذكرُ الاسلام وتُحُدِّث به . . . فأعظمتْ ذلك قريش وغضبت له ، وظهر فيهم لرسول الله ـ ص ـ البغي والحسد ، وشخص له منهم رجال فبادوه العداوة وطلبوا له الخصومة»[20] .

★★★

ولمّا حان الوقت وآن الأوان أمر الله تعالى رسوله ـ ص ـ «أن يصدع بما جاء به ، وأن ينادي الناس بأمره ، وأن يدعو الى الله تعالى» ، وأنزل عليـه قولـه عزَّ وجـل : ﴿فـاصدع بمـا تُؤمَر وأعـرضْ عن المشركين﴾ ، وقـوله تعـالى : ﴿وأنْذِرْ عشـيرتـك الأقـربين ، واخفضْ جنـاحَـك لمن اتَّبعـك من المؤمنين ، وقـل : إني أنـا النـذيـر المبين﴾[21] .

ولم يجد النبي ـ ص ـ بدّاً ـ وقد أمره الله تعالى ـ من اطاعة هذا الأمر على كل حال ، فجمع عشيرته الأقربين ، «وهم يومئذٍ أربعون رجلاً ؛ يزيدون رجلاً أو ينقصـونه ، فيهم أعمامه : أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب» ، وخاطبهم النبي ـ ص ـ قائلاً :

---

(١٩) سيرة ابن هشام : ١/٢٦٣ ـ ٢٦٤ وتاريخ الطبري : ٢/٣١٣ ـ ٣١٤ .
(٢٠) السير والمغازي : ١٤٤ وسيرة ابن هشام : ١/٢٨٠ .
(٢١) السير والمغازي : ١٤٥ وسيرة ابن هشام : ١/٢٨٠ ـ ٢٨١ وتاريخ الطبري : ٢/٣١٨ .

«يا بني عبدالمطلب ؛ إني ـ واللهِ ـ ما أعلم شاباً في العرب جاء قومَه بأفضل ممّا جئتكم به ، إني قد جئتُكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني اللهُ تعالى أن أدعوكم اليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ؟» .

«فأحجم القوم عنها جميعاً ، ولم يقم الاّ عَليٌّ فقال : أنا يا نبيَّ الله أكون وزيرك عليه» .

فنادى النبي ـ ص ـ في القوم قائلاً :

«إنَّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ؛ فاسمعوا له وأطيعوا» .

«فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[٢٢] .

★★★

«ومضى رسولُ الله ـ ص ـ على ما هو عليه يُظهِر دينَ الله ويدعو اليه» .

ولمّا «رأتْ قريش رسول الله ـ ص ـ لايُعتِبُهم من شيء أنكروه عليه ؛ من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا عمَّه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يُسلمْه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش الى أبي طالب . . فقالوا : يا أبا طالب ؛ ان ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا ، فإمّا أن تكفَّه عنّا وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه . . فقال أبو طالب قولاً رفيقاً ؛ وردَّ ردّاً جميلاً ، فانصرفوا عنه» .

«ثم ان قريشاً تآمروا بينهم على مَنْ في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ـ ص ـ الذين أسلموا ، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم . . . ومنع اللهُ منهم رسولَه بعمِّه أبي طالب»[٢٣] .

---

(٢٢) تاريخ الطبري : ٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١ وكامل ابن الأثير : ٢/ ٤١ ـ ٤٢ وشرح نهج البلاغة : ١٣/ ٢١٠ ـ ٢١١ وتاريخ أبي الفدا : ١/ ١١٦ ـ ١١٧ .

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في تفسيره : ١٩/ ١٢٢ ولكن بنصّ «فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا» الى أن يقول على لسان النبي ـ ص ـ : «ان هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا» . وقد أثارت هذه «الكذا وكذا» إعجاب الحافظ ابن كثير فروى النصّ بهذا اللفظ في البداية والنهاية : ٣/ ٤٠ وفضّله على نصّ الطبري في تاريخه .

(٢٣) السير والمغازي : ١٤٧ ـ ١٤٨ وسيرة ابن هشام : ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٧ .

«ثم ان قريشاً مشوا الى أبي طالب تارة اخرى فكلّموه وقالوا : ما نحن يا أبا طالب ـ وإن كنتَ فينا ذا منزلةٍ بسنّك وشرفك وموضعك ـ بتاركي ابنَ اخيك على هذا حتى نُهلِكه أو يكفَّ عنّا ما قد أظهر بيننا من شتم آلهتنا وسبِّ آبائنا وعيب ديننا ، فإن شئتَ فاجمع لحربنا وإن شئتَ فدع ، فقد أعذرنا اليك وطلبنا التخلُّص من حربك وعداوتك» .

فبعث أبو طالب الى رسول الله ـ ص ـ فأخبره بما جاء به القوم ، وقال له : «فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك ولا تحمِّلْني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت . . فظنَّ رسول الله ـ ص ـ أنه قد بدا لعمِّه فيه بداء وأنه خاذِلُه ومسلمه . . . فقال رسول الله ـ ص ـ : يا عمّ ؛ لو وُضِعَت الشمسُ في يميني والقمرُ في يساري ما تركتُ الأمرَ حتى يُظْهِرَه الله أو أهلك في طلبه . ثم استعبر رسول الله ـ ص ـ فبكى» ، فقال له أبو طالب حين سمع ورأى ذلك : «امضِ على أمرِك ؛ وافعل ما أحببتَ ، فواللهِ لا نُسْلِمُك»[٢٤] .

«ثم ان قريشاً اشتدَّ أمرُهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ـ ص ـ ومَنْ أسلم معه منهم ، فأغْرَوْا برسول الله ـ ص ـ سفهاءهم فكذَّبوه وآذوه ورموه بالشِّعر والسِّحْر والكهانة والجنون ، ورسولُ الله ـ ص ـ مُظهِرٌ لأمر الله لا يستخفي به ، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه اياهم على كفرهم»[٢٥] .

«ثم انهم عَدَوْا على مَنْ أسلم واتَّبع رسولَ الله ـ ص ـ من أصحابه ، فوثبت كلُّ قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين ؛ فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش ؛ وبرمضاء مكة اذا اشتد الحرُّ»[٢٦] .

وتحمَّل النبي ـ ص ـ على اثر ذلك كله من صنوف الأذى وألوان العدوان ما لا يتَّسع هذا المختصر لسرد وقائعه وتفاصيله .

و«لمّا رأى رسولُ الله ـ ص ـ أصحابَه وما يصيبهم من البلاء والشدَّة . . وانه

---

(٢٤)سيرة ابن هشام : ١/٢٨٤ ـ ٢٨٥ وتاريخ الطبري : ٢/٣٢٥ ـ ٣٢٦ .
(٢٥)سيرة ابن هشام : ١/٣٠٨ ـ ٣٠٩ .
(٢٦) سيرة ابن هشام : ١/٣٣٩ .

لا يقدر على أن يمنعهم من قومهم ، وأنه ليس في قومهم من يمنعهم كما منعه عمُّه أبو طالب ، أمرهم بالهجرة الى أرض الحبشة ، وقال لهم : ان بها مَلِكاً لا يُظْلم الناسُ ببلاده في أرض صدقٍ ، فتحرزوا عنده حتى يأتيكم الله عز وجل بفرج منه ويجعل لي ولكم مخرجاً» .

«فهاجر رجالٌ من أصحابه الى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفروا الى الله عزَّ وجل بدينهم . واستخفى آخرون باسلامهم»[٢٧] .

وبقي النبي ـ ص ـ في مكة يدعو لدينه ما وجد الى ذلك سبيلاً ، وعانى من مطاردة قريش وأذاهم وعنتهم ما لا يعلم تفاصيله الا الله تعالى وحده .

«ثم ان خديجة بنت خويلد وأبا طالب ماتا في عامٍ واحد ؛ فتتابعت على رسول الله ـ ص ـ المصائبُ بهلاك خديجة وأبي طالب» ، فقد «كانت خديجة وزيرة صدق على الاسلام» يشكو اليها آلامه ويبثها أحزانه ، وكان عمُّه له «عضداً وحرزاً في أمره ومَنَعَةً وناصراً على قومه» . وكانت وفاتها قبل مهاجره الى المدينة بثلاث سنين[٢٨] .

وبوفاة أبي طالب «نالت قريش من رسول الله ـ ص ـ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب . حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً» ، فـ«دخل رسول الله ـ ص ـ بيته والتراب على رأسه ، فقامت اليه احدى بناته فجعلت تغسل عنه الترابَ وهي تبكي ، ورسولُ الله ـ ص ـ يقول لها : لا تبكي يابُنَيَّة ؛ فان الله مانعٌ أباكِ»[٢٩] .

ولم يجد النبي ـ ص ـ بعد وفاة أبي طالب بدّاً من مغادرة مكة ؛ نجاةً بحياته من أيدي المشركين ؛ وأملاً بالدعوة الى الله في مكان آخر من البلاد الحجازية ، فخرج الى الطائف «يلتمس النصرة من ثقيف والمَنَعَة بهم من قومه» .

«فلما انتهى رسول الله ـ ص ـ الى الطائف عمد الى نفرٍ من ثقيف هم يومئذٍ سادة ثقيف وأشرافهم . . . فجلس اليهم . . . فدعاهم الى الله ، وكلَّمهم بما

---

(٢٧) السير والمغازي : ١٧٤ وسيرة ابن هشام : ١/٣٤٤ .

(٢٨) السير والمغازي : ٢٤٣ وسيرة ابن هشام : ٢/٥٧ .

(٢٩) سيرة ابن هشام : ٢/٥٧ ـ ٥٨ .

جاءهم له من نصرته على الاسلام ؛ والقيام معه على مَنْ خالفه من قومه» . فأبى القوم ذلك ، «فقام رسول الله ـ ص ـ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف» ، فـ «أغْرَوْا به سفهاءهم وعبيدَهم يسبونه ويصيحون به»[٣٠] ، وكان «يمشي ـ ص ـ بين سماطَيْنِ منهم ؛ فكلما نقل قَدَماً رجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء»[٣١] ، و«اجتمع عليه الناسُ وألْجَأوه الى حائطٍ [أي بستان] . . . فعمد الى ظلِّ حَبَلَةٍ من عنب فجلس فيه» ، «ورجع عنه منْ سفهاء ثقيف مَنْ كان يتبعه» ، فأنشا يدعو ربَّه :

«اللهم اليك أشكو ضعفَ قوَّتي ؛ وقلَّة حيلتي ؛ وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت ربُّ المستضعَفين ، وأنت ربّي ، الى مَنْ تَكِلُني ؟ الى بعيدٍ يتجهَّمُني ؟ أم الى عدوٍّ ملَّكتَه أمري ؟ ، ان لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ؛ وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة ؛ من أن تُنزل بي غضبَك ؛ أو يحلَّ عليَّ سخطُك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الاّ بك»[٣٢] .

★★★

«ثم ان رسول الله ـ ص ـ انصرف من الطائف راجعاً الى مكة حين يئس من خير ثقيف» ؛ فوجد قومَه هناك «أشدَّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ؛ إلاّ قليلاً مستضعَفين ممن آمن به» ، فرأى أن عليه أن يعرض نفسَه على قبائل العرب في المواسم «يدعوهم الى الله ويخبرهم أنه نبيٌّ مرسل ، ويسألهم أن يصدِّقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به»[٣٣] .

«فكان رسول الله ـ ص ـ على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم ؛ أتاهم يدعو القبائل الى الله والى الاسلام ، ويعرض عليهم نفسَه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف الا تصدّى له فدعاه الى الله وعرض عليه ما عنده»[٣٤] .

---

(٣٠) سيرة ابن هشام : ٢/٦٠ ـ ٦١ .
(٣١) الروض الأُنُف : ٢/١٧٧ .
(٣٢) سيرة ابن هشام : ٢/٦١ ـ ٦٢ .
(٣٣) سيرة ابن هشام : ٢/٦٣ ـ ٦٤ .
(٣٤) سيرة ابن هشام : ٢/٦٧ .

«فلمّا أراد الله عز وجل إظهارَ دينه واعزاز نبيه ـ ص ـ وانجاز موعده له ، خرج رسولُ الله ـ ص ـ في الموسم الذي لقيه فيه نفرٌ من الأنصار ، فعرض نفسَه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً . . . قال : أفلا تجلسون أكلِّمكم ؟ ، قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . . . فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام . . ثم انصرفوا عن رسول الله ـ ص ـ راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا»[٣٥] .

«فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسولَ الله ـ ص ـ ، ودعوهم الى الاسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دارٌ من دور الأنصار الاّ وفيها ذكرٌ من رسول الله ـ ص ـ» .

«حتى اذا كان العامُ المقبلُ وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوه بالعقبة ـ وهي العقبة الاولى ـ فبايعوا رسولَ الله ـ ص ـ» ، وكان نصُّ البيعة ـ كما روى أحدهم ـ : «على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادَنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف» .

«فلما انصرف عنه القوم بعث رسولُ الله ـ ص ـ معهم مصعبَ بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار بن قُصَيّ ، وأمره أن يُقرِئهم القرآن ؛ ويعلِّمهم الاسلام ؛ ويفقِّههم في الدين»[٣٦] .

«ثم ان مصعب بن عمير رجع الى مكة ، وخرج مَنْ خرج من الأنصار من المسلمين الى الموسم . . حتى قدموا مكة ؛ فواعدوا رسول الله ـ ص ـ العقبة من اوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه ؛ واعزاز الاسلام وأهله ؛ واذلال الشرك وأهله» .

ويقول أحدُ حضّار هذا الاجتماع مبيِّناً ما حدث فيه :

«حتى اذا مضى ثلثُ الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ـ ص ـ نتسلَّل

---

(٣٥) سيرة ابن هشام : ٢/ ٧٠ ـ ٧١ .

(٣٦) سيرة ابن هشام : ٢/ ٧٢ و٧٥ و٧٦ .

تسلُّل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان» .

«فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ـ ص ـ حتى جاءنا . . . فتكلَّم رسول الله ـ ص ـ فتلا القرآن ، ودعا الى الله ، ورغَّب في الاسلام . ثم قال : «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» ، ثم قال لهم : «أخْرِجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم» ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس» .

وبعد أن تمّت البيعة قال لهم رسول الله ـ ص ـ : «إرفَضُّوا الى رحالكم»[٣٧] .

«وكان رسول الله ـ ص ـ قبل بيعة العقبة لم يُؤذَنْ له في الحرب ولم تحلل له الدماء ، انما يُؤمَر بالدعاء الى الله والصبرِ على الأذى والصفحِ عن الجاهل . وكانت قريش قد اضطهدتْ مَن اتَّبعَه . . . فهم من بين مفتونٍ في دينه ، ومن بين معذَّبٍ في أيديهم ، وبين هاربٍ في البلاد فراراً منهم» .

«فلما عَتَتْ قريش على الله عز وجل ، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيَّه ـ ص ـ ، وعذَّبوا ونفوا مَنْ عَبَدَه ووحَّده وصدَّق نبيَّه واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله ـ ص ـ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلتْ في اذنه له في الحرب واحلالِه له الدماءَ والقتال . . قول الله تبارك وتعالى ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا ، وانَّ الله على نصرهم لَقدير ، الذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله﴾ الى آخر الآيات» .

«فلمّا أذن الله تعالى له ـ ص ـ في الحرب ، وبايعه هذا الحيُّ من الأنصار على الاسلام والنصرة له ولمن اتَّبعه . . أمر رسولُ الله ـ ص ـ أصحابه . . . بالخروج الى المدينة والهجرة اليها واللحوق باخوانهم من الأنصار» .

«وأقام رسول الله ـ ص ـ بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّه في الخروج من مكة والهجرة الى المدينة»[٣٨] .

---

(٣٧) سيرة ابن هشام : ٢/٨٣ ـ ٩٠ .

(٣٨) سيرة ابن هشام : ٢/١١٠ ـ ١١١ .

الإعْجَازُ والمُعْجِزَات

لمّا كانت النبوة ـ وهي السفارة الالهية الكبرى في الأرض ـ من الشؤون العظيمة التي يكثر المدَّعون لها فيشتبه الصدق بالكذب وتلتبس الحقيقة بالزيف ، كان لابدَّ من وجود أمارة تدل على صدق المدَّعي فيما ادَّعى وزعم ، وكان لابدَّ أن تأتي هذه الأمارة فوق مستوى الأفعال العادية التي قد يستطيع المدعي الكاذب أن يأتي بمثلها . وبذلك ينحصر معنى «المعجز» بالاتيان بما يخرق القوانين الطبيعية المعتادة .

و«الإعجاز» ـ في اللغة ـ : إحداث العجز ، يقال : أعجزتُ فلاناً أي جعلته عاجزاً ، وفي الاصطلاح : أن يأتي المدعي لمنصب إلهيّ بما يخرق قانون الطبيعة ويعجز عنه الناس ؛ شاهداً على صدق دعواه .

وينبغي أن لا نغفل : أنه ليس من الإعجاز المصطلح عليه : ما يُظْهره الساحر أو العالم ببعض العلوم النظرية الدقيقة ؛ وإن جاء بشيء يعجز عنه غيره . ذلك لأن العلوم النظرية ذات قواعد معلومة عند أهلها ، ولابد لتلك القواعد أن توصل الى نتائجها وإن احتاجت الى دقة ومهارة في التطبيق .

واذن . لابد في النبوة من المعجز .

ولابدَّ أن يكون هذا المعجز مطابقاً للمدَّعىٰ .

وبذلك يكون صاحب هذا المعجز هو النبي من قبل الله تعالى حقّاً وصدقاً ، ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلّا بإذن الله﴾ .

وانما صحَّ القول بكون الإعجاز دليلاً على صدق المدَّعي وصحة الادِّعاء ، لأن المعجز بحكم كونه خارقاً لقوانين الطبيعة ونواميسها المعتادة ؛ لا يمكن أن يقع من أحدٍ الّا بإقدارٍ من الله تعالى ، ﴿ما كان حديثاً يفترىٰ ، ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ . وبذلك يكون المعجز الذي يظهر على يد مدَّعي النبوة دليلاً على صدقه ، بما يكشفه من رضا الله عز وجل بنبوته ؛ إذ أقدره على الاتيان به ، وقد أشار جلَّ وعلا الى هذا المعنى بقوله في كتابه المجيد : ﴿ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم

لقطعنا منه الوتين﴾ . وبقوله أيضاً : ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من ربِّ العالمين ، أمْ يقولون افتراه !! قل : فأْتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

وكان لرسولنا الأعظم ـ ص ـ نوعان من المعجز :

الأول ـ القرآن المجيد ، وهو المعجزة الخالدة على مرِّ القرون .

الثاني ـ المعجزات التي شاهدها المسلمون الأوَّلون ـ وهم عدد غير قليل ـ ، ثم تواتر عنهم نقلها ؛ فأُلِّفتْ فيها الكتب ؛ واحتشدت بروايتها أسفار الحديث ، وما تزال تُرْوىٰ حتى اليوم وبعد اليوم بهذا النحو من تواتر النقل وتسالِمِه ؛ على تعاقب الأجيال وكرِّ السنين .

وقد حاول بعض الجهلة والمعاندين أن يشكِّكوا في تلك المعجزات غير القرآن ، بل ادعى بعضهم أن في آيات القرآن ما يدل على نفي كل معجزة للنبي ـ ص ـ غيره ، وأن القرآن هو المعجزة الوحيدة التي جاء بها رسول الله ـ ص ـ تصديقاً لدعواه ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿وما مَنَعَنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذَّب بها الأوَّلون﴾ ، إذ زعموا أن هذه الآية ظاهرة في أن النبي ـ ص ـ لم يأت بآيةٍ غير القرآن ؛ وأن السبب في عدم الارسال بها تكذيب الأولين من الامم بالآيات التي أُرسلتْ اليهم .

وقد أفاض استاذنا المغفور له الامام الخوئي في دحض هذه الشبهة وكشف زيفها فقال ما خلاصته[1] :

إن المراد بالآيات التي نفتها الآية الكريمة والتي كذَّب بها الأولون من الامم هي الآيات المقترحة من قبل الامم على أنبيائها . فالآية الكريمة تدلنا على أن النبي ـ ص ـ لم يُجب المشركين الى ما اقترحوه عليه من الآيات ، ولا تنفي عنه صدور المعجزة مطلقاً ، ولو صلح تكذيبُ المكذِّبين أن يكون مانعاً عن الإرسال بالآيات لكان مانعاً عن الإرسال بالقرآن أيضاً ، إذ لا وجه لتخصيص المنع بالآيات الاخرى ، خصوصاً

---

(١) البيان في تفسير القرآن : ١/٧٦ ـ ٧٩ .

وان القرآن أعظم المعجزات التي جاء بها الأنبياء ، وهذا يدلنا على أن الآيات الممنوعة قسم خاص وليست مطلق الآيات .

على أن تكذيب الامم السابقة لو صلح أن يكون مانعاً عن تأثير الحكمة الإلهية في الارسال بالآيات ؛ لصلح أن يكون مانعاً عن ارسال الرسول ، وهذا باطل بالضرورة وخلاف المفروض أيضاً ، فتعينَّ أن يكون المقتضي للارسال بالآيات هو اقتراح المقترحين . وواضح ان المقترحين انما يقترحون اموراً زائدة على الآيات التي تتم بها الحجة ، وان هذا المقدار الزائد منها لا يجب على الله أن يرسل به ابتداء ، ولا يجب عليه أن يجيب اليه اذا اقترحه المقترحون ، وإن كان لا يستحيل عليه ذلك اذا اقتضت المصلحة .

ان هذه الآيات المقترحة كاشفة في حقيقتها عن لجاج المقترِح وعناده ، إذ لو كان طالباً للحق لصدَّق بالآية الاولى ، لأنها كافية في اثبات المطلوب ، ولأن معنى اقتراحه هذا أنه قد التزم على نفسه بتصديق النبي اذا أجابه الى هذا الاقتراح ، فاذا كذَّب بالآية المقترحة بعد صدورها كان مستهزئاً بالنبي وبالحق الذي دعا اليه .

وخلاصة القول : أنه لا دلالة لشيءٍ من آيات القرآن على نفي المعجزات الاخرى غير القرآن ، على الرغم من كونه المعجزة الكبرى للنبي ـ ص ـ وإنْ تعدَّد ظهور المعجز على يديه .

★★★

وليس التمييز الصائب بين المعجز الحقيقي وغيره أمراً سهلاً ميسوراً لكل أحدٍ كما يبدو لأول وهلة ، بل لن يقدر عليه غير علماء الصنعة التي يكون ذلك المعجز على شاكلتها ؛ لأنهم أعرف بها وأدرىٰ بخصوصياتها ، وهم الذين يستطيعون التفريق بين ما يعجز البشر عن الاتيان بمثله وبين ما يمكنهم ، ولذلك كان العلماء أسرع تصديقاً بالمعجز ، و﴿انما يخشىٰ اللهَ من عباده العلماء﴾ ، لأن غير العالم لا يقوىٰ على التمييز بين الصدق والكذب ، فيبقىٰ باب الشك مفتوحاً أمامه ما دام جاهلاً بمبادئ ذلك العلم ؛ ومادام يحتمل أن المدَّعي قد اعتمد على وسائل علمية ربما تكون معلومة عند الخاصة من رجال تلك الصنعة ، فيتباطىء عن الاسراع في التصديق ، ولهذا السبب

اقتضت الحكمة الالهية أن تكون معجزةُ كـل نبي مشابهـةً للعلم الشائـع في زمانـه ؛ والذي يكثر الممارسون له والعارفون به من أهل عصره ، ليكون ذلك سبباً في سرعـة التصديق وإحكام الحجة . ومن هنا نجد أن السحرة في عصر موسى كانوا أسرع من غيرهم الى الإقرار ببرهان نبيهم ، لأنهم رأوا أن ما جاء به رسولهم خارج عن الحدود العلمية المقرَّرة للسحر .

ولمّا كان العرب في عصر نزول القرآن قد بلغوا الغاية في الكلام البليغ ومعرفة فنون الفصاحة وضروب الأدب ؛ كان لابد بمقتضى الحكمة الالهية أن تتمشى معجزة نبي الاسـلام مع هـذه الظاهـرة البارزة ، فجـاء رسول الله ـ ص ـ بمعجـزة القرآن وبلاغة اللسان ، ليعلم كل عربيّ أن هذا الكلامَ الهيٌّ محض ؛ خارجٌ ببلاغته المتناهية عن طاقة فصحاء البشر وامكاناتهم الفكرية والأدبية .

وعلى الرغم من وجود معجزات اخـرى للنبي ـ ص ـ غير القـرآن كما أسلفنـا ذكره ؛ فان القرآن أعظم هذه المعجزات شأناً وأقومها بالحجة ، لأن العربي الجاهـل بعلوم الطبيعة وسنن الكون قد يشك في تلك المعجزات وينسبها الى أسباب علمية لا يعرفها ؛ وفي طليعتها السحر الذي كان من أقرب الأسباب الى ذهنه الساذج ، ولكنه بما كان يتحلىٰ به من معرفةٍ بفنون البلاغة وأسرار الكلام الفصيح لا يشك في إعجاز القرآن وعدم قدرة البشر على الاتيان بمثله . على أن تلك المعجزات الاخرى المـرئية للعـين موقَّتـةُ البقاء ، إذ سرعـان ما تصبـح خبراً يتنـاقله الرواة ؛ وحـديثاً تتـداوله الأفواه ، فينفتح فيها باب الشك والارتياب ؛ وتغدو عرضة للتصديق والتكـذيب . أما القرآن فهو باقٍ بقاء السماوات والأرض ، واعجازه ماثل أمام كل جيل وواضـح لكل ذي عينين .

وقد علم كلُّ مَنْ بلغته الدعوة الاسلامية أن محمداً ـ ص ـ قد دعا جميع الناس والامم الى الاسلام ، وأقام الحجة عليهم بالقرآن ، وتحدّاهم باعجازه أن يأتوا بمثله ولـو كان بعضهم لبعضٍ ظهيـراً ، ثم تنزّل فـطلب منهم أن يـأتـوا بعشر سـورٍ مثله مفتريات ، ثم تحدّاهم بالاتيان بسورة واحدة . ولو كـان العرب بكـل مَنْ فيهم من بلغاء وادباء قادرين على ذلـك لأجابـوه على هـذا التحدّي وأسقـطوا حجته بـاتيانهم

بمثله ، ولكنهم عندما سمعوا القرآن أقروا بالأمر الواقع وأذعنوا لإعجازه ، وعلموا أنهم لا يستطيعون المعارضة ، فصدَّق قوم منهم وأعلنوا إسلامهم ، وركب آخرون رؤوسهم فأصروا على العناد والتحدّي والامتناع .

ويروي المؤرخون : ان الوليد بن المغيرة المخزومي مرَّ يوماً في المسجد الحرام فسمع النبيَّ ـ ص ـ يتلو القرآن ، فأصغى له من بعيد ثم ذهب الى مشركي قومه فكان مما قال لهم : لقد سمعتُ من محمدٍ كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجنِّ ، وانَّ له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانَّه يعلو ولا يُعْلى[٢] .

ويروي هشام بن الحكم : انه اجتمع في بيت الله الحرام سنةً من السنين أربعةً من كبار الادباء والمفكرين في عصرهم : ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني وعبدالملك البصري وابن المقفَّع ـ وكانوا من الدَّهريَّة المنحرفين عن الاسلام ـ فخاضوا في حديث الحج ونبي الاسلام ، ثم استقرَّ الرأي لديهم على ضرورة قيامهم بمعارضة القرآن الذي هو معجزة هذا الدين ، ليسقط إعجازُه بمعارضتهم اياه ومباراتهم له ، وتعهَّد كلُّ واحدٍ منهم أن ينقض رُبْعاً من القرآن ، وجعلوا الموعدَ لإنجاز هذه المهمة موسمَ الحج القابل . وعندما اجتمعوا في الميقات المعينِّ في بيت الله الحرام تذاكروا فيما فعلوا ، فأخبرهم ابن أبي العوجاء بأنه قضى العام كلَّه متأملاً في مجاراة قوله تعالى : ﴿فلمّا استيأسوا منه خلصوا نجيّاً﴾ فلم يقدر على مثله ، كما أخبرهم عبدالملك بأنه قضى عامه مفكراً في مباراة قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس ضُرِبَ مثلٌ فاستَمِعوا له : ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب﴾ فلم يستطع ذلك ، كذلك كان أمرُ أبي شاكر مع قوله تعالى : ﴿لو كان فيهما آلهة الاّ الله لفسدتا﴾ فقد عجز عن الاتيان بشبيهٍ لها ، ولم يكن ابن المقفَّع بأحسن حظّاً من أصحابه ؛ فقد قضى عامه عاجزاً عن معارضة آيةٍ واحدة هي قوله تعالى : ﴿وقيل : يا أرض ابلعي ماءكِ ، ويا سماءُ أقلعي . وغيض الماءُ ، وقُضيَ الأمرُ ، واستوتْ على الجوديِّ ،

---

(٢) يراجع في تفاصيل حديث الوليد مع قومه القرشيين سيرة ابن هشام : ١/٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

وقيل : بُعْداً للقوم الظالمين﴾ . يقول هشام : وبينما هم في ذلك إذ مرَّ بهم جعفر بن محمد الصادق (ع) فنظر اليهم وقال : ﴿قل : لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ؛ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرا﴾[٣]

★★★

واستمرَّ أعداء الاسلام والمنحرفون عنه ـ على اختلاف عقائدهم وأفكارهم وفلسفاتهم ومناهجهم ـ في حربهم لهذا المعجز «القرآن الكريم» ؛ وفي التشكيك في إعجازه وصلاح أحكامه وصدق أخباره ، وبذل هؤلاء الأعداء والمنحرفون على مرِّ القرون حتى اليوم والى ما بعد اليوم من الطاقات والجهود ومن حملات الدسِّ والتشكيك ـ أملاً في تحقيق هدفهم اللئيم ـ ما لا يدركه حساب ولا يبلغه إحصاء[٤] .

وكان من أهمِّ ما أثاروا من شُبَهٍ في هذا الصدد : تكرارهم القول بوجود تناقضٍ بين آيات القرآن ينفي إعجازه ؛ ويدل دلالة قاطعة ـ بزعمهم ـ على أنه من صنع البشر وليس من وحي السماء . وضربوا لذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿آيتك ألاّ تكلِّم الناسَ ثلاثة أيام الاّ رمزا﴾ إذ تناقض ذلك مع قوله تعالى في مكان آخر من القرآن : ﴿آيتك ألاّ تكلِّم الناسَ ثلاث ليالٍ سويّا﴾ ، فان الآية الاولى حدَّدت المدة

---

(٣) الاحتجاج : ٢٠٥ .

(٤) ولعل من جملة أساليب التشكيك ما قرأناه في الصفحة السادسة من جريدة الجمهورية العراقية في ١٩٧٦/٢/٣م خلال مقالٍ يتحدث فيه كاتبه عن الطوفان ، وقد جاء فيه ما نصه :

«الطوفان حادثة واقعية طبيعية لم يعد ثمة مجال للشك فيها . أما الشخصية شخصية الطوفان فهي واحدة بالتأكيد رغم اختلاف الأسماء : زيوسدرا في النص السومري ـ وهو أقدم نصّ ـ ؛ واثرخاسيس في النص البابلي . . . . وفي التوراة والقرآن نوح . . . . ان النصَّ الأصلي هو النص السومري كما ذكرنا ؛ وقد اعتمده كل الذين جاؤا من بعد» . وما أدري هل يقصد الكاتب ان محمداً قد اعتمد النصَّ السومري عندما ألَّف القرآن ؟؟!!! .

وجاء في الصفحة الأخيرة من جريدة الجمهورية أيضاً في عدد يوم ١٩٧٦/٧/٢٩م ما نصه :

«أكد البروفسور اندريه كابار مدير معهد العلوم الطبيعية في بلجيكا أن الطوفان قد حدث فعلاً» !!! .

ومعنى ذلك أن الإخبار القرآني لم يكن مقنعاً للكاتب في حدوث الطوفان حتى أيَّده وأكَّده البروفسور المذكور !!!

بثلاثة أيام ، في حين نصَّت الآية الثانية على تحديدها بثلاث ليال .

ويكفينا في تفنيد هذه الشبهة أن نشير الى أن لفظ اليوم في اللغة العربية ـ وهي اللغة التي أُنزل بها القرآن ـ قد يطلق ويراد به بياض النهار فقط ؛ كقوله تعالى : ﴿سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام﴾ ، وقد يطلق ويراد منه مجموع النهار والليل كقوله تعالى : ﴿تمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ . كما أن لفظ الليل قد يطلق ويراد به مدة مغيب الشمس كقوله تعالى : ﴿والليل اذا يغشىٰ﴾ وقوله تعالى : ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيّام﴾ ، وقد يطلق ويراد منه سواد الليل وبياض النهار كلاهما كقوله تعالى : ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ .

واذا كان استعمال لفظي الليل واليوم في هذين المعنيين جائزاً وصحيحاً في اللغة لم يكن في الآيتين الكريمتين أي تناقض أو اختلاف ، فقد استُعْمِل لفظا الأيام والليالي بمعنى مجموع بياض النهار وسواد الليل ، وليس فيهما ما يثير الشبهة لولا سوء الفهم أو سوء الغرض . ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا﴾ .

★★★

وعلى الرغم من كون القرآن معجزة باسلوبه البليغ المتناهي في البلاغة ، وبيانهِ الفصيح الذي لا يستطيع البشر الاتيان بمثله ، وانسجامِه الرائع المنزَّه عن كل تضادٍّ أو تناقض أو اختلاف . فان هناك جوانب اخرى لإعجازه لا تقل عن هذا الجانب أبداً ، ولعل من أبرزها وأكثرها لفتاً للنظر ودلالة على المطلوب ما أودع الله تعالى فيه من أنواع المعارف وأسرار العلوم وخفايا الحقائق الكونية ، مما لا سبيل الى احتمال كونه صادراً من بشرٍ عاش تلك الحقبة من الزمن ، ولم يكن أمامه من سبيلٍ لإدراك مثل هذه الامور .

ومع إقرارنا بأن القرآن الكريم كتابُ دينٍ وعقيدة وتشريع ، وليس كتابَ فلكٍ أو كيمياء أو فيزياء . فاننا نشاهد عَرَضاً في غير واحدةٍ من آياته أخباراً دقيقة عن كثير من سنن الكون ومسائل الطبيعة ؛ مما لا يمكن العلم به في تلك العصور إلّا من طريق الوحي الالهي .

وقد أخذ القرآن باسلوب حكيم جدّاً في إخباره عن هذه الأسرار ، فصرَّح

ببعضها حيث يحسن التصريح ، وأشار الى بعضها حيث تكون الإشارة أوْلىٰ ، لأن بعض تلك الحقائق مما يستعصي فهمه على عقول الناس يومئذ ، فكان من الحكمة أن يشير اليها إشارة تتضح لأهل العصور المقبلة حينما يتقدَّم العلم وتتجلّىٰ الحقائق[٥] .

★★★

إن ما شاهده الناس المعاصرون للحقبة النبوية الاولى بعد البعثة الشريفة في مكة المكرمة من معجزات نبينا الأعظم المأثورة ـ غير القرآن الكريم ـ كان أوسع وأكثر مما يتسع له نطاق هذه الأوراق المضغوطة المحدَّدة ، وقد أوردتْها المصادرُ الكبرى والكتب المختصة بشؤون السيرة ؛ أوتلك التي جمعت الحديث أو عُنيت بالتاريخ ؛ بكل اسهاب وتفصيل ، وبامكان الراغب بالوقوف على ذلك أن يرجع الى تلك المصادر لاستيعاب أخبارها وقراءة نصوصها الكاملة .

ومع ذلك كلّه فقد رجح عندي أن أستعرض في هذه العجالة معجزتين منها بالخصوص ، ورد ذكرهما في القرآن الكريم بياناً لما تحقق فيهما من إعجاز هائل يفوق مدركات العقول الساذجة التي لا يصل مداها الى ما هو أبعد من المحسوس المعتاد ؛ ويتجاوز عطاء الأذهان البدائية التي لا تستطيع وعيَ حقائق الامور وأسرارها فتخلط بين المستحيل والممكن بلا فرزٍ ولا تمييز ، فنقول ـ وبالله التوفيق ـ :

١ ـ الإســـــراء

أُسْرِيَ برسول الله ـ ص ـ ذات ليلةٍ من المسجد الحرام بمكة المكرمة الى المسجد الأقصى في مدينة القدس ؛ ثم أُعيد الى موطنه في تلك الليلة نفسها قبل أن ينبلج الصبح ، «وكان في مسراه وما ذُكِرَ منه بلاءٌ وتمحيص وأمرٌ من أمرِ الله عز وجل في قدرته وسلطانه ، فيه عِبْرَة لأولي الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدَّق وكان من أمر الله على يقين . فأسرى به كيف شاء وكما شاء ؛ ليُرِيَه من آياته ما أراد»[٦] .

---

(٥) وقد استعرضنا بعض شواهد ذلك في كتابنا «النبوة» : ٤٣ ـ ٥١ ، فلا نكرر ولا نعيد .

(٦) السير والمغازي : ٢٩٥ وسيرة ابن هشام : ٢/٣٧ .

وأنزل الله تعالى في هذه المسيرة المعجزة قولَه عز وجل : ﴿سبحان الذي أسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ؛ لنُرِيَه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير﴾ .

وكان ذلك قبل مهاجَرِه بستة عشر شهراً[٧]

وجاء في الرواية : أنه ـ ص ـ «أُتِيَ بالبُرَاق . . . فحُمِل عليها ، ثم خرج به صاحبُه [أي جبريل] يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى الى بيت المقدس ، فوجد فيه ابراهيمَ الخليلَ وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء قد جُمِعوا له ، فصلّىٰ بهم» .

«ثم انصرف رسولُ الله ـ ص ـ الى مكة ، فلمّا أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر» ، فأنكر أكثرُ الناس ذلك وقالوا : «ان العِيرَ لَتُطْرَد شهراً من مكة الى الشام مُدْبِرةً وشهراً مُقْبِلة ، أفيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع الى مكة !»[٨] .

ثم ضجَّ هؤلاء المنكرون قائلين : «وما آيةُ ذلك يا محمد ؟ فإنّا لم نسمع بمثل هذا قطّ» ، «فوصف لهم شيئاً شيئاً مما يعرفونه» ، ثم قال :

«آيةُ ذلك أني مررتُ بعِير بني فلان بوادي كذا وكذا ، فأنفرهم حسُّ الدابة [أي البراق] فنَدَّ لهم بعيرٌ ، فدللتُهم عليه وأنا موجَّه الى الشام . ثم أقبلتُ حتى اذا كنتُ بضَجَنان مررتُ بعِير بني فلان فوجدتُ القومَ نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطّوا عليه بشيء ؛ فكشفتُ غطاءه وشربتُ ما فيه ثم غطيتُ عليه كما كان . وآيةُ ذلك : أن عِيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنيَّةَ التنعيم يقدمها جملٌ أورقُ عليه غِرَارتان إحداهما سوداء والاخرى برقاء» .

«فابتدر القومُ الثنيَّةَ» ، فلقوا الجملَ الذي ذكره ، وسمعوا من الركب قصةَ الإناء والماء الذي كان فيه ؛ وقضيةَ البعير الذي ندَّ لهم»[٩] ، «فكان ذلك معجزة له باهرة ؛ ودلالة واضحة ؛ لولا العناد»[١٠] .

---

(٧) السير والمغازي : ٢٩٧ .

(٨) سيرة ابن هشام : ٢/٣٨ ـ ٣٩

(٩) سيرة ابن هشام : ٢/٤٣ ـ ٤٤ ، وقريب منه في التبيان : ٦/٤٤٦ .

(١٠) التبيان : ٦/٤٤٦ .

«ثم اختلف أهل العلم في صفة إسراء الله تبارك وتعالى بنبيه ـ ص ـ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى : فقال بعضُهم : أسرى الله بجسده ، فسار به ليلاً على البُرَاق . . . . ثم رجع الى المسجد الحرام من ليلته ، فصلى به صلاة الصبح» .

«وقال آخرون : بل أُسْرِيَ بروحِه ، ولم يُسْرَ بجسده» ، معتمدين في ذلك على خبرِ عائشة : أنه أُسْرِيَ بروحه ؛ وزَعْمِ معاوية : ان الإسراء كانت رؤيا صادقة[11] .

ويعلّق الطبري على ذلك فيقول :

«والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرىٰ بعبده محمد ـ ص ـ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، كما أخبر الله عبادَه ، وكما تظاهرت به الأخبارُ عن رسول الله ـ ص ـ . . . . ولا معنى لقول مَنْ قال : أُسْرِيَ بروحه دون جسده . لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته . . . . ولا كان الذين أنكروا حقيقةَ ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكراً عندهم ولا عند أحدٍ من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة ؛ فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقلّ» .

«وبعد : فان الله انما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا أنه أسرىٰ بروح عبده . . . . ولا دلالة تدل على أن مراد الله من قوله : ﴿أسرى بعبده﴾ أسرى بروح عبده ، بل الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله ـ ص ـ أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدوابُّ لا تحمل الاّ الأجسام»[12] .

ولا ريب أن ما قاله الطبري رأياً ودليلاً هو الصواب بعينه .

وقال الفخر الرازي في إثبات الجواز العقلي للاسراء بالجسد :

إنَّ «الحركة الواقعة في السرعة الى هذا الحدِّ ممكنةٌ في نفسها ، والله تعالى قادر

---

(١١) تفسير الطبري : ١٥/٥ و١٦ .

(١٢) تفسير الطبري : ١٥/١٦ ـ ١٧

على جميع الممكنات» ، و«ان الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل الى آخره ما يقرب من نصف الدَّوْر» ، و«جاء في القرآن : ان الرياح كانت تسير بسليمان ـ ع ـ الى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة» ، و«ان القرآن يدل على أن الذي عنده علمٌ من الكتاب أحضر عرشَ بلقيس من أقصى اليمن الى أقصى الشام في مقدار لمح البصر . . . . واذا كان ذلك ممكناً في حق بعض الناس علمنا أنه في نفسه ممكنُ الوجود» .

ثم قال :

لقد ثبت أن القول بالاسراء بالبدن «أمرٌ ممكن الوجود في نفسه ، أقصىٰ ما في الباب أنه يبقىٰ التعجبُ ، الاّ أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام ، بل هو حاصل في جميع المعجزات ، فانقلابُ العصا ثعباناً . . . ثم تعود في الحال عصاً صغيرة كما كانت أمرٌ عجيب . . . . وكذا القول في جميع المعجزات . . . . [و] مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال» .

ثم لخَّص زبدة الكلام في المسألة قائلاً :

«قال أهل التحقيق : الذي يدلُّ على أنه تعالى أسرىٰ بروح محمد ـ ص ـ وجسده من مكة الى المسجد الأقصى : القرآن والخبر . أما القرآن فهو هذه الآية [يعني آية الاسراء] . وتقريرُ الدليل أن العبدَ اسمٌ لمجموع الجسد والروح ، فوجب أن يكون الاسراء حاصلاً لمجموع الجسد والروح» ، «وأما الخبر فهو الحديث المروي . . . وهو مشهور»[13] .

★★★

ثم أجمع المفسِّرون والمحدِّثون والمؤرخون : أنه عُرِجَ بالنبي ـ ص ـ في تلك الليلة الى السماء[14] ، «وأوحى اليه هنالك ما شاء أن يُوحي ، ثم رجع الى المسجد الحرام من ليلته»[15] . وان ذلك كان «في يقظته دون منامه» عند أغلب اولئك القائلين .

---

(١٣) تفسير الرازي : ٢٠/١٥٠ .

(١٤) تفسير الطبري : ١٥/٣ ـ ٥ وسيرة ابن هشام : ٢/٤٤ ـ ٤٥ والكشاف : ٢/٤٣٧ والروض الأُنف : ٢/١٥٤ وتفسير الرازي : ٢٠/١٥٠ .

(١٥) تفسير الطبري : ١٥/٥ .

«والذي يشهد بـه القرآنُ الإسراءُ من المسجـد الحرام الى المسجـد الأقصى ، والباقي يُعْلَم بالخبر»[16] .

وقد استنبط المفسِّرون أصلَ قصةِ المعراج من آيـات سورة النجم ؛ واقتبسـوا بعضَ تفاصيلها من الأحاديث والأخبار التاريخية ، ولكننا لم نر في تلك الآيات دلالةً صريحة على المعراج المذكور ، وانما المستفاد منها مجموعة أفكار عامة تخص النبيَّ ـ ص ـ ومقامَه الشامخ ، ويمكن ربطها بأجمعها بالاسراء وما رأى فيه النبي ـ ص ـ من آيات ربه الكبرى ، كما يمكن تلخيص دلالاتها الرئيسة على النحو الآتي :

تنزيه اللهِ تعالى رسولَه ـ ص ـ عن الضلال : ﴿ما ضلَّ صاحبُكم﴾ .

وعَمَلَه عن الغواية : ﴿وما غوىٰ﴾ .

ونطقَه عن الهوى : ﴿وما ينطق عن الهوىٰ﴾ .

وفؤادَه عن الكذب : ﴿ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأىٰ﴾ .

وبَصَرَه عن الزيغ : ﴿ما زاغ البصرُ﴾ .

ونَظَرَه عن الطغيان : ﴿وما طغىٰ﴾ .

وقد شذَّ بعض الرواة فحمَّلوا هذه الآيات أكثر مما تتحمَّل ألفاظها ، بل نسبوا اليهـا بعضَ ما لا يصح في الدين ولا ينسجم مـع أُسـس الايمان بـالله عـز وجـل ، كذهابهم الى التجسيم فيما رووه عن ابن عباس وأبي هريرة وأحمد بن حنبل وأبي الحسن الأشعري من أنَّ محمداً ـ ص ـ «في معراجه رأى ربَّه»[17] ، ونصَّ الأشعريُّ على أنه ـ ص ـ «رآه بعينيْ رأسِه»[18] ، ونصَّ ابن اسحاق على أن جبريل حمل محمداً ـ ص ـ حتى «انتهى بـه الى السـماء السـابعـة ، ثم انتهى بـه الى ربِّـه»[19] ، وروى الـطبري عن عكرمة : ان محمداً قد «رأى ربَّه» وقال عكرمة : «قد رآه ، قد رآه ، قد رآه ، ثم قد رآه حتى ينقطع النفس»[20] ، كما روى عن ابن عباس : ان رسول الله ـ ص ـ قال :

---

(١٦) التبيان : ٦/٤٤٦ .

(١٧) الروض الأُنُف : ٢/١٥٦ .

(١٨) الروض الأُنف : ٢/١٥٦ .

(١٩) سيرة ابن هشام : ٢/٤٩ .

(٢٠) تفسير الطبري : ٢٧/٤٨ .

«رأيت ربي في أحسن صورة . . . . فوضع يَدَه بين كتفيَّ فوجدتُ بَرْدَها بين ثَدْيَيَّ»[٢١] .

وعلَّق الرازي على ادِّعاء الرؤية هذا : بأنه «ضعيف سخيف . . . وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان»[٢٢] .

ويبدو أن الذي أوقع هؤلاء في هذا الادعاء الفاسد والزعم الباطل ما فهموه بسذاجة من قوله تعالى : ﴿ثم دنا فتَدَلىٰ﴾ ، فذهبوا الى تفسير ذلك بأن جبرئيل عرج برسول الله ـ ص ـ «الى السماء السابعة ، ثم علا به بما لا يعلمه الا الله حتى جاء سدرةَ المنتهىٰ ، ودنا الجبار ربُّ العزَّة فتدلّىٰ !! حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله اليه ما شاء»[٢٣] .

ولكن القائلين بالتنزيه ـ وهم أتباع المنهج العقلي من مفكري المسلمين ـ أنكروا ذلك أشدَّ الإنكار وقالوا : ان الذي دنا هو جبرئيل من رسول الله ـ ص ـ ؛ فتدلّىٰ جبرئيل فتعلَّق عليه في الهواء[٢٤] .

ثم زادوا في ايضاح هذا المعنى فقالوا في تفسير الآية التالية لتلك الآية وهي قوله تعالى : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنىٰ﴾ معناه : «كان بينه [أي النبي] وبين جبرائيل مقدار قاب قوسين أو أدنى»[٢٥] .

وقالوا في تأكيد ما ذهبوا اليه : ان قوله تعالى : ﴿ما كذب الفؤادُ ما رأىٰ﴾ يعني ما رأى محمدٌ من مقدورات الله تعالى وملكوته[٢٦] ، وقال المبرد : «معناه : صدق الفؤادُ فيما رأى»[٢٧] .

---

(٢١) تفسير الطبري : ٢٧/ ٤٩ .
(٢٢) تفسير الرازي : ٢٨/ ٢٨٦ .
(٢٣) تفسير الطبري : ٢٧/ ٤٤ و٤٥ .
(٢٤) تفسير الطبري : ٢٧/ ٤٤ والتبيان : ٩/ ٤٢٣ والكشاف : ٤/ ٢٨ .
(٢٥) التبيان : ٩/ ٤٢٣ .
(٢٦) التبيان : ٩/ ٤٢٤ .
(٢٧) تفسير الرازي : ٢٨/ ٢٨٩ .

وقد أوضح الله تعالى هذا المعنى بقوله : ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ ، وعنى بكبراها «حين رُقِيَ به الى السماء فأُرِيَ عجائب الملكوت[٢٨]» ، وذلك هو الذي نصَّت عليه آية الاسراء ﴿لنُرِيَه من آياتنا﴾ .

وروى الرازي وجهاً آخر في تفسير آية الدنوِّ والقرب فقال : «ارتفع النبيُّ - ص - حتى بلغ الافق الأعلى من البشرية ، وتدلّىٰ جبريل - ع - حتى بلغ الافق الأدنىٰ من الملكية ، فتقاربا ولم يبق بينهما الاّ حقيقتهما»[٢٩] .

وعلى كل حال ؛ فالمسألة غير واضحة المعالم ، وذهب بعضهم الى أن العروج انما كان بالروح دون الجسد ؛ وهو المرويُّ عن الحسن في قوله : «عُرِج بروح محمد - ص - الى السماء وجسدُه في الأرض»[٣٠] .

ولكنَّ أكثر المفسرين يقولون : انه صعد بجسمه حتى رأى ملكوت السماوات ؛ وأن ذلك كان في اليقظة لا في المنام[٣١] .

ولمّا كان العروج في اللغة العربية هو الارتقاء والصعود ؛ فربما يصحُّ أن يُحْمَل ما ورد في آيات سورة النجم على الإسراء المنصوص عليه في القرآن الكريم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وهو في واقعه عروجٌ وارتقاء وصعود . والله تعالى هو العالم بأسرار الكتاب وحقائق الامور .

أما الرؤية المزعومة لله تعالى فهي - على سخفها كما وصفها الفخر الرازي - مرفوضة في كل الأحوال رفضاً مطلقاً ؛ لا تجزئة فيه بين النبي وغيره وبين الدنيا والآخرة ، ويعدُّ كل قائل بها مجسِّماً مخالفاً لقوله تعالى : ﴿لا تُدركه الأبصار﴾ وقوله الآخر : ﴿ولا يحيطون به عِلْماً﴾ ، وخارجاً على حكم العقل بكونه عز وجل غير ماديّ وغير محكوم بقيود الزمان والمكان والجهة كما هو مقرَّر في محله من الفلسفة والكلام . وبذلك يكون المعنى الوحيدُ والفريد للرؤية أينما وردتْ في القرآن المجيد والحديث الصحيح رؤية آيات الله في صنعه وخلقه ؛ كما قال جلَّ وعلا : ﴿إنَّ في خَلْق

---

(٢٨) الكشاف : ٤/ ٣٠ .
(٢٩) تفسير الرازي : ٢٨/ ٢٨٧ .
(٣٠) التبيان : ٩/ ٤٢٤ .
(٣١) التبيان - أيضاً - : ٩/ ٤٢٤ .

السماوات والأرض واختلافِ الليل والنهار والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناسَ وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبَثَّ فيها من كلِّ دابَّة وتصريفِ الرياح والسحابِ المسخَّرِ بين السماء والأرض لآيات لقومٍ يعقلون﴾ ﴿إنَّ في خَلْقِ السماوات والأرضِ واختلافِ الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب﴾ .

وقد يقول قائل : إن الله تعالى قد استعمل لفظ النظر في قوله عزَّ وجل : ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة ؛ الى ربِّها ناظرة﴾ وهو ظاهر في الرؤية .

والجواب على ذلك : أوَّلاً ـ ان النظر هو عموم التطلُّع والفكر في الشيء ؛ وليس معناه الرؤية البصرية بالخصوص ، ومن الشاهد الصريح على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون﴾ .

وثانياً ـ ما ذهب اليه الشريف المرتضى في أماليه من أن «الى» في هذه الآية اسمٌ لا حرف ؛ ومعناه النِّعمة ؛ والجمع آلاء ، فيكون المراد من قوله : ﴿الى ربها ناظرة﴾ أنَّها ناظرة نعمة ربها .

وثالثاً ـ لو تنزلنا فسلَّمنا بأن المراد بالنظر هنا الرؤية بمعناها الماديِّ المباشر وبأن «الى» حرف جرٍّ ، فانه استعمال للكلمة مجازاً بحذف المضاف ، أي ان قوله : ﴿الى ربها ناظرة﴾ يعني أنها : الى ثواب ربها ناظرة ، وقد تكرر حذف المضاف في القرآن في أكثر من آية ومورد ، قال تعالى : ﴿واسأل القريةَ التي كنّا فيها والعِيْرَ التي أقبلنا فيها﴾ أي : أهلَ القرية وراكبي العِير .

٢ ـ انشـــقاق القمـــر

وهو معجزة اخرى من معجزات نبينا الأعظم ـ ص ـ ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ ، وتناقل الرواة ذلك في مختلف مصادر التفسير والحديث ، وكان هذا الحدث الهائل ـ كما يروي الطبري ـ «على عهد رسول الله ـ ص ـ وهو بمكة قبل هجرته الى المدينة ، وذلك أن كفّار مكة سألوه آية ، فأراهم ـ ص ـ انشقاق القمر آيةً ، حجةً على صدق قوله وحقيقة نبوَّته ،

فلمّا أراهم أعرضوا وكذّبوا وقالوا : هذا سحر مستمرٌّ سَحَرَنا محمد ، فقال الله جلّ ثناؤه : ﴿وإنْ يَرَوْا آية يُعْرِضوا ويقولوا : سحرٌ مستمر﴾[٣٢] .

وروى الزمخشري عن «بعض الناس : ان معناه ينشق يوم القيامة»[٣٣] .

وقال الطوسي :

«ومن أنكر انشقاق القمر وأنه كان ؛ وحَمَلَ الآيةَ على كونه فيما بعد ـ كالحسن البصري وغيره واختاره البلخي ـ فقد ترك ظاهِرَ القرآن ، لأن قوله : ﴿انشقَّ﴾ يفيد الماضي ، وحَمْلُه على الاستقبال مجاز . وقد روى انشقاقَ القمر عبدُالله بن مسعود وأنسُ بن مالك وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم ومجاهد وابراهيم . وقد أجمع المسلمون عليه ، ولا يعتدُّ بخلاف مَنْ خالف فيه لشذوذه ، لأن القول به اشتهر بين الصحابة فلم ينكره أحد ، فدلَّ على صحته وأنهم أجمعوا عليه ، فخِلافُ مَنْ خالف فيما بعد لا يُلتَفَتُ اليه» .

«ومَنْ طعن في انشقاق القمر بأنه لو كان لم يَخْفَ على أهل الأقطار ؛ فقد أبْعَدَ ، لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم ، ولأنه كان ليلاً فيجوز أن يكون الناس نياماً فلم يعلموا به ؛ لأنه لم يستمر لزمانٍ طويل ، بل رجع فالتأم في الحال»[٣٤] .

وقال الفخر الرازي :

«وقال بعض المفسرين : المراد سينشق . وهو بعيد ولا معنى له ، لأن مَنْ منع ذلك ـ وهو الفلسفي ـ يمنعه في الماضي والمستقبل ، ومن يجوِّزه لا حاجة به الى التأويل . . . والقرآن أدلُّ دليل وأقوى مثبتٍ له ، وإمكانُه لا يُشَكُّ فيه»[٣٥] .

وقد أصدر في عصرنا الحاضر أحَدُ العلماء الهنود وهو الاستاذ ابن مظهر معين الدين رهبر فارقي كتاباً يُعنىٰ بهذا المعجز من منظور علمي ؛ سمّاه «نئي مشاهدات اور معجزه شق القمر» ، وترجمة عنوانه الى العربية : معجزة شق القمر في ضوء

---

(٣٢) تفسير الطبري : ٢٧/٨٤ .

(٣٣) الكشاف : ٤/٣٦ .

(٣٤) التبيان : ٩/٤٤٣ .

(٣٥) تفسير الرازي : ٢٩/٢٨ .

المشاهدات الجديدة ، وقد كتبه باللغة الاوردية وطبعه في حيدر آباد سنة ١٩٦٨م ، وتحدَّث في فصوله الاولى عن المعجزة : معناها والفائدة المتوخاة منها وكيف يقدر النبي على الاتيان بها وما هو الفرق بينها وبين السحر . ثم تحدَّث عن شق القمر وأثبت حصوله ووقوعه بالآثار والشواهد العلمية ، «وبحث بحثاً ممتعاً في تحديد وقت المعجزة : أي هل كان في أول الليل أو نصفه أو آخره ، مستنبطاً ذلك من الآثار والمعلومات الجغرافية . وأثبت بدلائل عقلية أنه مازالت الى يومنا هذا آثارُ الشقِّ في القمر . وأورد لإثبات ذلك مقتبسات للمحققين الاوربيين مثل الدكتور بيرسي ولكنس وغيرهما ، كما اقتبس من بعض الكتب ان رؤية المعجزة لم تنحصر في الجزيرة العربية ؛ بل شوهدت في بعض البلدان الاخرى أيضاً ولاسيما الهند»[٣٦] .

---

(٣٦) مجلة ثقافة الهند/ يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية/ المجلد ٢٠/ العدد الثاني/ ابريل ١٩٦٩م .

العِصْمَة

لعل من أوضح معطيات العقل وايحاءاته البديهية أن لا يُؤمن أحدٌ من ذوي الألباب بنبوة إنسانٍ من البشر يتلقّىٰ أخبار السماء ويلقيها على الناس ديناً يجب الرضوخ له والاقرار به ؛ إلّا اذا كان هذا الانسان النبي في أعلى مراتب الكمال ومدارج الامتياز ؛ في صدق الحديث ؛ وعدم السهو ؛ والأمن من الزلل ؛ والامتناع عن فعل المعصية ـ أية معصية ـ ؛ والالتزام بفعل الطاعة ـ أية طاعة ـ ، لكي يكون منزّهاً الى درجة القطع واليقين عما يوجب الشك في سلامة أقواله وأعماله وجميع تصرفاته .

وهذا ما أطلق عليه علماءُ الكلام اسمَ «العصمة» .

وتكون العصمة على هذا ؛ عبارة عن طاقةٍ داخلية متيقظةٍ في نفس النبي تهيمن عليه فتمنعه من كل تركٍ لطاعةٍ ؛ أو فعلٍ لمعصية ؛ أو زللٍ في قولٍ ؛ أو خللٍ في عمل ؛ أو تناقضٍ في تصرف .

وعلى الرغم من بداهة هذا المعنى وضرورة تمثّله في مبعوث السماء فان للمذاهب الاسلامية في هذا الموضوع كثيراً من الكلام وكثيراً من الخلاف فيما بينها فيه . وقد بيّن الفخر الرازي بعضاً من تلك الآراء والخلافات فقال .

«اختلف الناس في عصمة الأنبياء عليهم السلام . وضَبْطُ القولِ فيه أن يقال : الاختلاف في هذا الباب يرجع الى أقسام أربعة :

«أحدها : ما يقع في باب الاعتقاد .

«وثانيها : ما يقع في باب التبليغ .

«وثالثها : ما يقع في باب الأحكام والفتيا .

«ورابعها : ما يقع في أفعالهم وسيرتهم .

«أمّا اعتقادهم الكفر والضلال فان ذلك غير جائز .

«أما النوع الثاني ـ وهو ما يتعلّق بالتبليغ فقد أجمعت الامة على كونهم معصومين عن الكذب والتحريف فيما يتعلّق بالتبليغ . . . . واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه

منهم عمداً كما لا يجوز أيضاً سهواً .

«وأما النوع الثالث ـ وهو ما يتعلّق بالفتيا ـ فأجمعوا على أنه لا يجوز خطأُهم فيه على سبيل التعمُّد ، وأمّا على سبيل السهو فجوَّزه بعضهم وأبَاه آخَرون .

«وأمّا النوع الرابع ـ وهو الذي يقع في أفعالهم ـ فقد اختلفت الامةُ فيه على خمسة أقوال :

«أحدها : قول مَنْ جوَّز عليهم الكبائر على جهة العمد ، وهو قول الحشوية .

«والثاني : قول مَنْ لا يجوِّز عليهم الكبائر ؛ لكنه يجوِّز عليهم الصغائر على جهة العمد إلاّ ما ينفِّر كالكذب والتطفيف ، وهذا قول أكثر المعتزلة .

«القول الثالث : انه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا بكبيرة على جهة العمد البتّة ، بل على جهة التأويل ، وهو قول الجبائي .

«القول الرابع : انه لا يقع منهم الذنب الاّ على جهة السهو والخطأ .

«القول الخامس : انه لا يقع منهم الذنب لا الكبيرة ولا الصغيرة ، لا على سبيل القصد ولا على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل والخطأ ، وهو مذهب الرافضة (كذا)»[1] .

★★★

ومع معرفة مقام النبي وتأثيره المباشر في الحياة العامة ؛ بحكم كونه المثل والقدوة والمتّبَع ؛ والحجةَ على الجميع في قوله وفعله وتقريره ؛ فان القول بالعصمة ضروري لا مفرَّ من الاقرار به والاذعان له . وعلى ذلك سار الفكر الشيعي الاماميُّ مؤكِّداً وجوب العصمة وحتميتها ، منفرداً بقوله هذا بين سائر خطوط الفكر الاسلامي الاخرى التي لم تجد ضرورةَ الايمان بتنزيه الأنبياء على هذا المستوى من التنزيه المطلق المجرَّد من كل الشوائب وإن صغرت وحقرت ، بما فيهم المعتزلة العقليون الذين ذهبوا ـ مع تأكيدهم الواضح الصريح على عصمة الأنبياء عن فعل الكبائر ـ الى تجويز

---

(١) تفسير الرازي : ٣/٧ .

فعلهم الصغائر «التي لاحظَّ لها إلاّ في تقليل الثواب دون التنفير»[2] كما مرَّت الاشارة اليه .

وعلى الرغم من أن المسألة من الوضوح بمكان ولا تحتاج الى تطويل بحثٍ وتفصيل دليل ، لما ذكرناه من بداهة الموضوع ؛ ومن شهادة الوجدان بأن النبي الذي لا يؤمَنْ سهوُه وزللُه ؛ واشتباهُه وخطأُه ؛ وارتكابه المعاصي والمنافيات ، لا يمكن تصديقه فيما يقول ؛ واتِّباعهُ فيما يفعل ؛ واطاعتُه فيما يأمر وينهىٰ ويحكم ويقرِّر .

أقول : على الرغم من ذلك فان الموضوع قد اقتحم جميع الكتب الكلامية المعنية بهذه المطالب ، وكذلك غير الكلامية منها كالتفسير ومباحث الاجتهاد ، وكان من أهمِّ أسباب ذلك وجود بعض الآيات القرآنية التي قد يشعر ظاهرها بارتكاب الذنب وفعل المعصية من قبل نبينا الأعظم ـ ص ـ .

ولمّا كنّا بصدد استيعاب هذا البحث للجوانب الرئيسة من السيرة الشريفة كان لابدَّ لنا من استعراض تلك الآيات المشعِرة بذلك ؛ ومن بيان الغرض المراد منها ، ـ تكراراً موجزاً لما سبق منّا بحثُه في كتاب «النبوة» بشيء من الإسهاب ـ ، حتى يتضح الأمر لكلِّ من يلتبس عليه ذلك ؛ ويُقطَعَ الطريقُ على وساوس الشكوك والشبهات بحجج اليقين القاطع والدليل الناصع .

الآية الاولىٰ : ﴿وإنْ كان كبر عليك إعراضُهم فإن استطعتَ أن تبتغي نَفَقاً في الأرض أو سُلَّماً في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجَمَعَهم على الهدى ، فلا تكونَنَّ من الجاهلين﴾ .

لقد رأى بعضُ الجهلة وأعداء الاسلام ان في هذه الآية جانبين يمسّانِ مقامَ النبوة هما : عتاب الله تعالى لرسوله ؛ وتأثُّر النبي وتألُّمه من عدم قدرته على الاتيان بالمعجزات أو عدم إقدار الله إياه على ذلك .

---

(٢) مذاهب الاسلاميين للدكتور عبدالرحمن بدوي : ٤٧٨/١ . ويراجع كتاب (المنخول) للغزالي : ٢٢٣ ـ ٢٢٥ فقد ذكر مؤلفه فيه عدم وجوب عصمة الأنبياء ، وزاد على ذلك فقال : «إنّا نجوِّز أن ينبِّئ الله تعالى كافراً ويؤيده بالمعجزة»(كذا) . وعلق محقق الكتاب على ذلك في الهامش فقال : «وخالف الروافض [يعني الشيعة الامامية] فذهبوا الى امتناعها [أي المعصية]» .

والحقُّ أن هذا الفهم لمعنى الآية انما هو فهم سطحي ساذج يدل على جهلٍ تامّ باسلوب القرآن وطريقته في التعبير . أمّا العارفون بمنهج القرآن والواقفون على أساليبه وطرائقه في البيان فانهم يفهمون من هذه الآية ان حماس محمد واهتمامه بهداية قومه كان بالغاً حدَّه ، وان الخطاب الالهيَّ له فيها انما يقوم على أساسٍ من هذا المنطلق .

وقد حدثنا القرآن الكريم ـ بالتكرار والتأكيد ـ عن حرص النبي على ايمان قومه ومنتهى رغبته بمبادرتهم الى ذلك ؛ كما في قوله تعالى : ﴿وما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنين﴾ وقوله جل وعلا : ﴿إن تحرصْ على هداهم فانَّ الله لا يَهْدي مَنْ يضلُّ﴾ وقوله أيضاً : ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم حريصٌ عليكم﴾ .

وعندما نستعرض الآية الشريفة موضوع البحث ونحاول فهمها في ضوء ما مرَّ ؛ نجد أن معناها قد اتضح بكل جلاء وعلى النحو الآتي : انك يا محمد لو صعدتَ الى السماء أو دخلتَ في جوف الأرض في سبيل هداية قومك فانك لن تحصل على مبتغاك ولن يؤمنوا بك بهذه العجالة وكما تريد .

فهل في ذلك ما يوحي بعتبٍ أو يومىء الى لَوْم ؟ .

ان المراد من الآية المذكورة هو بيان أن هؤلاء العصاة المتمردين على أمر الله لن تنفعهم الآيات ولن تجذبهم المعجزات الى حظيرة الايمان طوعاً واختياراً . نعم يمكن تحقيق ذلك بطريق الجبر الالهي لهم على الطاعة وإكراههم عليها بموجب القدرة الالهية التي لا تُقْهَر ، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدىٰ﴾ ، ولكن الله تعالى ـ كما تقرَّر في مباحث العدل ـ لم يجبر عباده على ذلك ولن يكرههم عليه ، بل ترك لهم حريَّة الاختيار المطلقة في الايمان ، ﴿قد أفلح من زَكّاها ، وقد خاب مَنْ دَسّاها﴾ .

أمّا إشعار الآية بحزن النبي ـ ص ـ وتألّمه من العجز عن الاتيان بمعجزةٍ تقنع هؤلاء الكافرين ؛ فهو ادّعاء لا شاهد له ولا دليل عليه ، لأن النبي يعلم أن الآيات والمعجزات انما تصدر من الله تعالى وليست من صنعه هو ؛ لأنه عبدالله ورسوله ، وقد أعلمته هذه الآية بأن عدم إقداره على الاتيان بما يريد منها ليس بسبب إهمال الله تعالى له ؛ أو عدم اهتمامه بأمره ؛ أو إعراضه عن تحقيق رغبته ، وانما بسبب علم الله جلَّ وعلا بحقيقة نوايا هؤلاء الكافرين ؛ وبإصرارهم على عنادهم الذي لا تنفع معه

آية ولا تجدي هداية .

الآية الثانية : ﴿ما كانَ لنَبيٍّ أنْ يكونَ له أسْرىٰ حتّىٰ يثخنَ في الأرْضِ تُريدونَ عَرَضَ الدُّنيا ، والله يُريدُ الآخرة ، والله عزيز حكيم﴾ .

لقد زعم بعضهم أن هذه الآية صريحة في معاتبة النبي ؛ والعتاب دليل المخالفة للأمر الالهي في الأسر والأسرىٰ .

وهذا الزعم ـ في واقعه ـ أوهن من بيت العنكبوت ، لأن الآية لم تحمل أي معنىً من معاني المخالفة والمعاتبة ، ولا علاقة لها بالمعصية والذنب والخروج على الأوامر المقرَّرة ، وليس فيها سوى التنبيه علىٰ أن منهج الأنبياء السابقين قائم على قتل كل عدوٍّ يظفرون به حيّاً في الحروب الدينية لا أسْره ، ليُرهِب ذلك أعداءَ الله ؛ ويعتبروا به فيمتنعوا عن محادَّة الله ورسوله . أما أسْرُهم وأخْذُهم أحياءً فلن يُسْمَح به إلّا بعد انتشار الدين وتوسُّع رقعته واستقرار حال المؤمنين به ، ويكون النبيُّ حينذاك مخيَّراً فيهم بين المَنِّ والفداء .

وهكذا يظهر أن الآية انما تتحدَّث عن حكمٍ شرعي لم يُبَلَّغ به رسولُ الله ـ ص ـ قبل اليوم ؛ بعيداً عن أي ذنبٍ منه أو عتابٍ له ، شأنها في ذلك شأن كلِّ الأحكام الشرعيَّة التي أنزلها الله تعالىٰ في كتابه الحكيم على نبيه العظيم .

الآية الثالثة : ﴿عَفَا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حَتّىٰ يتبيَّنَ لك الذين صدقوا وتَعْلم الكاذبين﴾ .

لقد ادَّعىٰ بعضهم أن مخاطبة النبي بجملة ﴿عَفَا الله عنك﴾ دليل على ارتكاب الذنب ، لأن العفو لا يكون الّا حيث يكون الذنب .

والحقيقة أن معنى هذه الآية لا يتضح بجلاء ما لم يُقْرَأ ما سبقها وما يليها مما يُتِمُّ معناها ويبيِّن المراد منها ، قال تعالى : ﴿لو كانَ عَرَضاً قريباً وسَفَراً قاصداً لاتَّبعوك ، ولكنْ بعدتْ عليهم الشُّقَّةُ ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يُهْلِكُونَ أنفسَهم ، والله يَعْلَمُ انَّهم لكاذِبُون ، عَفَا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتّىٰ يتبيَّنَ لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأْذِنُكَ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليمٌ بالمتَّقين ، إنَّما يستأْذِنُكَ الذين لا يؤمنون بالله واليوم

الآخر وارْتابَتْ قلوبُهم فهم في رَيْبِهم يتردَّدُون ، ولو أرادوا الخروجَ لأعَدُّوا له عُدَّةً . . . ﴾ الى آخر الآية ، سورة التوبة/٤٢ ـ ٤٦ .

ومن التأمل في هذه الآيات نجد أن قوله : ﴿عَفَا الله عنك﴾ لم يكن عفواً عن ذنبٍ بالمعنىٰ الشرعي ، أي عن مخالفةٍ لحكمٍ من أحكام الله ، وانما كان الغرض منه إرشاد النبي الى الوسيلة التي يستطيع أن يعرف بواسطتها الصادقين والكاذبين من اولئك الذين اعتذروا عن المشاركة في الجهاد .

فلو لم يأذن لهم بالتأخر لعرف الذين صدقوا وعرف الكاذبين ، ولكنَّ إذنه للذين زعموا عدم استطاعتهم الخروج للحرب قد أخفى محكَّ التمييز بين الصادق والكاذب ، إذ اعتذر الطرفان وحصلا على الإذن فلم يمكن التمييز بينهما .

هذا ، ويجب أن لا نغفل عن أن الإذن بالتخلف كان من صميم صلاحيات النبي ـ ص ـ التي نصَّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأْذَنْ لمن شِئتَ منهم﴾ . كما ينبغي أن لا نغفل أيضاً عن أن خروج المنافقين كان ينطوي على خطرٍ كبير يعرِّض تضامن الجيش ووحدة كلمته للتخلخل والاضطراب ، بما يحتمل أن يثيروا من فتن وبلابل ، وينشروا من أكاذيب وأضاليل ، وقد نبَّه الله تعالى على ذلك في ذيل الآيات التي أوردناها فيما سبق فقال عزَّ من قائل : ﴿لو خرجوا فيكم مازادوكم إلاّ خبالاً ولأوْضَعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾ .

واذن . فليس في الآية ما يدل على معصية أو ذنب ، وانما هي في واقعها صورة من صور التوجيه الالهي لنبيه الكريم في طريقة امتحان الناس ؛ بعدم الاستعجال بالاذن لهم ، لتتضح حقيقة نواياهم العقيدية ؛ فيعرف الصادق والكاذب منهم على أبين وجهٍ وأجلاه .

الآية الرابعة : ﴿فإنْ كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا اليكَ فاسألِ الذين يقرأون الكتابَ من قبلك ، لقد جاءكَ الحقُّ من رَبِّكَ فلا تكونن من الممترين﴾ .

لقد تخيَّل بعضهم أن هذه الآية صريحة في أن محمداً كان شاكّاً في حقيقة ما أنزل الله تعالى اليه ومتردداً في صحته .

وللمفسِّرين في بيان الغرض من هذه الآية رأيانِ أو وَجْهانِ :

الأول : ما ذهب اليه ثعلب والمبرّد من أن معنىٰ ﴿فإنْ كنتَ في شكٍّ﴾ أي فقل يا محمد للكافر : إنْ كنتَ في شك مما أنزلنا اليك فاسألْ .

الثاني ـ وهو الأوْجَهُ ـ : ان الخطاب بظاهره موجّه للنبي بالذات ولكنّه في واقعه موجّه الى عموم الناس . وفي القرآن الكريم نظائر كثيرة لهذا الاسلوب من الخطاب ، كقوله تعالى : ﴿يا أيها النبيُّ اتّقِ الله ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين﴾ وقوله تعالى : ﴿لئنْ أشركتَ ليحبطنَّ عَمَلُك﴾ وقوله تعالى : ﴿يا أيها النبيُّ اذا طلّقْتُم النساءَ﴾ ، كما أن من نظائره أيضاً قوله تعالى : ﴿وإذْ قال الله يا عيسى بن مَرْيم أأنْتَ قلتَ للناس : اتّخذوني وأُمّي إلهَيْن من دون الله﴾ وقد علم الله أنَّ عيسىٰ لم يقلْ ذلك ولم يَفُهْ به .

ومما يدل على رجحان هذا الوجه ما جاء في آخر الآيات التي كانت منها تلك الآية المتقدمة ؛ وهو قوله جلَّ وعلا : ﴿قُلْ : ياأيها الناسُ إنْ كنتم في شكٍّ من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ ، فقد جاء فيها بصريح اللفظ أن المخاطَب بالشك ليس النبيَّ نفسه ؛ وانما اولئك الكفّار المتمردون على أمر الله والرافضون للايمان والاذعان المطلق لحكم الله وشرعه ودينه .

الآية الخامسة : ﴿وإذْ تقول للذي أنْعَمَ الله عليه وأنعمتَ عليه : أمْسِكْ عليك زوجَك ، واتّقِ الله ، وتُخْفي في نفسِك ما الله مُبْديه ، وتخشىٰ الناسَ ، والله أحَقُّ أنْ تخشاه ، فلما قضىٰ زيدٌ منها وَطَراً زوَّجْناكها﴾ .

لقد ادّعى المدّعون أن في هذه الآية عتاباً ولَوْماً للنبي على ما يخفيه في نفسه مما يخشى أن يقف الناسُ عليه ، وهو ادّعاء باطل من نسج الخيال ، لأن هذه الآية ـ كما يعرف المطلعون ـ ترتبط بقصة زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش ، وقد تقدّم منّا في فصل (الزواج والأزواج) بحث هذه القضية وبيان ملابساتها فلا نعيد القول فيه ، وان نظرة موضوعية فاحصة يلقيها القارئُ على ما سلف بيانه توضح له المقصود من الآية وتجلو معاني جُمَلها وألفاظها المعبّرة عن سياق القصة ومراحلها المتعددة ، من دون أن تحمل في طياتها أي معنىً من معاني اللّوم أو العتاب المزعوم .

الآية السادسة : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلّا اذا تمنّىٰ ألقىٰ

الشيطان في امنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكِم الله اياته ، والله عليم حكيم . ليجعل ما يُلقي الشيطانُ فتنةً للذين في قلوبهم مَرَضٌ والقاسِيَة قلوبُهم ، وانَّ الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أُوتوا العِلمَ انَّه الحَقُّ من ربِّك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبُهم ، وانَّ الله لهادِ الذين آمنوا الى صراطٍ مستقيم﴾ .

لقد قيل ان ظاهر هذه الآية دالٌّ على أن للشيطان مجالاً كبيراً للعبث والتدخُّل في سلوك الأنبياء وأقوالهم وأعمالهم ، وقد زاد بعض الوضّاعين في تجلية هذا القول أو تأكيده بما لفّقوه في أحاديثهم المختلقة عن اسطورة «الغرانيق» وادِّعاء نزول هذه الآية موضوع البحث بهذه المناسبة كما تأتي الاشارة اليه .

والحقيقة أن فهم هذه الآية معتمد في أصله على تحديد معنى «التمني» ومعرفة مدلول هذه الكلمة في هذا السياق . وقد ذكر المفسِّرون واللغويون لها هنا معنيين :
المعنى الأول : إن التمني هو حديث النفس[٣] وهو تمني القلب ، أي تقدير الأنسان وجودَ ما يحبُّه . ويكون معنى الآية وسياقها حينئذٍ على النحو الآتي :

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبي الّا﴾ كانوا على مستوى المسؤولية في إخلاصهم للرسالة ؛ وفي جهادهم الكبير وعملهم الدائب في نشر الدعوة وتبليغ الشريعة ؛ وفي تحمُّلهم المصاعب والمصائب التي تواجههم خلال قيامهم بذلك . وكان أعداء الله وأعداء الرسالات السماوية يبذلون كل وسعهم وطاقتهم في محاربة سفراء الله وافساد خططهم وإجهاض أي نجاح حققوه في هذه السبيل .

فـ ﴿اذا تَمَنّىٰ﴾ الرسولُ أو النبيُّ نجاحَ مهمته بما عزم وخطَّط ورسم ؛ من طرقٍ للدعوة ؛ ووسائلَ لنشر العقيدة ؛ ﴿ألقىٰ الشيطانُ في أمنيته﴾ ما يذهب بسعادته وابتهاجه ، بما يصوِّر له من عقبات التقدم ومن احتمالات الفشل ؛ وبما يهيِّج به أتباعه وأنصاره ضدَّ الرسالة ، فتذوب حينذاك مشاعر السعادة لدى الرسول أو النبي بما يخشى من عدم نجاح خططه ؛ وبما يتوقَّع من أفعال الأعداء وتكالبهم عليه .

ولكنَّ الله تعالى بالمرصاد ، ﴿فينسخ الله﴾ ويزيل بإقامة المعجزات وظهور الحجج وإنجاح مساعي الأنبياء والرسل ﴿ما يُلقي الشَّيْطانُ﴾ من فتنةٍ بين الناس ؛

---

(٣) روى القرطبي في تفسيره : ١٢ / ٨٥ عن الكسائي والفرّاء أن تمنّىٰ معناه حدَّث نفسَه .

ومن إغراءٍ لهم بمحاربة الدين ، ﴿ثم يُحكِم الله آياتِه﴾ بنَصْر أنبيائه ورسله ، ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾ .

وانما يُقيم الله المعجزاتِ والحججَ والأدلة على صحة هذه النبوّاتِ وصدقِ هذه الرسالات ﴿ليجعلَ ما يُلقي الشيطانُ﴾ من مكائد وشُبَهٍ وشكوكٍ ﴿فتنةً﴾ واختباراً ﴿للّذين في قلوبهم مرضٌ والقاسِيةِ قلوبُهم﴾ ممن لا تؤثرُ فيهم الآياتُ والمعجزاتُ ولا تخضعُ عقولُهم للمنطق والحجة والبرهان ، ﴿وإنَّ الظالمين لفي شقاقٍ بعيد﴾ .

﴿وليعلم الذين اوتوا العِلْمَ﴾ بما يُشاهِدون من الأدلّة والبراهين ﴿أنَّه الحَقُّ من ربِّك فيؤمنوا به فتُخْبِت له قلوبُهم . وانَّ الله لَهَادِ الذين آمنوا الى صراطٍ مستقيم﴾ .

المعنىٰ الثاني: ان التمني في الآية معناه التلاوة ، ويكون المقصود: «أنَّ مَنْ أُرسِل قبلك من الرسل كان اذا تلا على قومه ما يوحي الله اليه حرَّفوا عليه وزادوا فيما يقول وأنقصوا كما فعلت اليهود . وأُضيف ذلك الى الشيطان لأنه هو الذي يُغْوي الناسَ بذلك، فينسخ الله ما يُلقي الشيطانُ أي يزيله ويدحضه بظهور حججه .

«وخرج هذا على وجه التسلية للنبي ـ ص ـ لمّا كذب المشركون عليه وأضافوا الى تلاوته من مَدْحِ آلهتهم ما لم يكن فيها»[4] .

وهذا هو الوجه الوجيه والفهم الواعي للمراد من هذه الآية .

أما الأساطير الواردة بهذه المناسبة فقد صرَّح المحققون من المفسرين أنه لا يصح منها شيء[5] ، على الرغم من رواية كثيرٍ من المحدِّثين والمفسرِّين والمؤرخين لنصِّها الباطل المرفوض ؛ ومحاولتهم تصديقَ ذلك وتأويلَه ، بل ان فيها من التطاول على مقام النبوة والمسِّ بذلك المقام ما لا يرضاه الجاهل البليد فضلاً عن العالِم المدرِك[6] .

الآية السابعة : ﴿عَبَسَ وتولّىٰ ، أنْ جاءه الأعمىٰ ، وما يُدْرِيكَ لعلَّه يَزَّكّىٰ ؛ أو يَذَّكَّرُ فتنفعه الذكرىٰ﴾ .

---

(٤) مجمع البيان : ٤/٩١ .

(٥) تفسير الرازي : ٢٣/٥٠ والروض الأُنُف : ٢/١٢٦ .

(٦) يراجَع في نصوص تلك الأساطير : السير والمغازي : ١٧٧ ـ ١٧٨ وطبقات ابن سعد : ١/ق١/١٣٧ وتفسير الطبري : ١٧/١٨٦ ـ ١٩٠ وتاريخ الطبري : ٢/٣٣٨ ـ ٣٤١ وتفسير القرطبي : ١٢/٨٠ ـ ٨٥ .

لقد زعم الزاعمون أن في هذه الآيات لَوْماً وتعنيفاً للنبي ـ ص ـ على عبوسه وإعراضه عن هذا المؤمن الأعمى ، ولا يكون اللوم الاّ اذا كان هناك ذنبٌ وخروجٌ على التعاليم الالهية المقررة .

والحقُّ أنه ليس في هذه الآيات تصريح جليٌّ بارتكاب ذنبٍ كما ادَّعىٰ المدَّعون ، سواء أقلنا بأن المعنيَّ بها النبيُّ نفسه أم غيره ، بل ليس فيها ما هو أكثر من التوجيه والتنبيه ، والإرشاد الى الأَوْلىٰ والأجْدر بالفعل والاتِّباع .

وللمفسرين في شرح هذه الآيات رأيانِ أو قولان :

الأول : ما ذهب اليه الأكثر ، وهو «ان المراد به النبي ـ ص ـ . . . وذلك ان النبي ـ ص ـ كان معه جماعة من أشراف قومه ورؤسائهم قد خلا بهم ، فأقبل ابنُ أُمِّ مكتوم ليسلِّم ؛ فأعرض النبي ـ ص ـ عنه كراهية أن تكره القومُ إقبالَه عليه ، فعاتبه الله على ذلك»[٧] .

الثاني : ما ذهب اليه الشيخ محمد بن الحسن الطوسي تعليقاً على القول المتقدم فقال : «هذا فاسد ، لأن النبي ـ ص ـ قد أجَلَّ الله قدرَه عن هذه الصفات ، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب وقد وصفه بأنه ﴿علىٰ خُلُقٍ عظيم﴾ وقال : ﴿ولو كنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضُّوا من حولك﴾ . . . . ومَنْ عرف النبيَّ ـ ص ـ وحُسْنَ أخلاقه وما خصَّه الله تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن الصحبة . . . . كيف يقطِّب في وجه أعمىٰ جاء يطلب الاسلام . علىٰ أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ منزَّهون عن مثل هذه الأخلاق وعمّا هو دونها ، لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والإصغاء الى دعائهم»[٨] .

ولهذا رجَّح الشيخ المذكور «أن هذه الآيات نزلت في رجلٍ . . . . كان واقفاً مع النبي ـ ص ـ . فلما أقبل ابنُ ام مكتوم تنفَّر منه وجمع نفسَه ؛ وعبس في وجهه ؛ وأعرض بوجهه عنه ، فحكىٰ الله تعالى ذلك وأنكره . . . . وقوله : ﴿وما يدريك﴾ خطاب للنبي ـ ص ـ ؛ وتقديره : قل يا محمد : وما يدريك» الى آخر الآيات[٩] .

---

(٧) روى ذلك الطوسي في التبيان : ١٠/٢٦٨ .

(٨) التبيان : ١٠/٢٦٨ .

(٩) التبيان : ١٠/٢٦٩ .

ويبدو أن الشيخ الطوسي باختياره هذا الرأي الحصيف والفهم العميق للآيات وسياقها ؛ قد سار على نهج استاذه الشريف المرتضى علي بن الحسين الذي ذهب هذا المذهب فقال : «ليس في ظاهر الآية دلالة على توجُّهها الى النبي ـ ص ـ . بل هو خبر محض لم يصرَّح بالمُخْبَر عنه ، وفيها ما يدل على أن المعنيَّ بها غيره ، لأن العبوس ليس من صفات النبي ـ ص ـ مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين . ثم الوصف بأنه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء لا يُشْبه أخلاقه الكريمة . . . . فالظاهر أن قوله : ﴿عبس وتولّى﴾ المراد به غيره»[10] .

ثم يزيد الشريف المرتضى المسألة ايضاحاً فيقول :

«فإنْ قيل : فلو صحَّ الخبر الأول هل يكون العبوس ذنباً أم لا ؟ . فالجواب : ان العبوس والانبساط مع الأعمى سواء ، إذ لا يشقُّ عليه ذلك ، فلا يكون ذنباً ، فيجوز أن يكون عاتب الله سبحانه بذلك نبيَّه ـ ص ـ ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق ؛ وينبِّهه على عظم حال المؤمن المسترشد ؛ ويعرِّفه أن تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه أوْلى من تأليف المشرك طمعاً في ايمانه»[11] .

واذن ، ليس في هذه الآيات ـ على كل المحتملات ـ ما يزيد على مجرد التوجيه والتنبيه ، وليس العتاب ـ هنا ـ الاّ تعبيراً آخر عن التسديد والارشاد الالهي لنبيه الأعظم ـ ص ـ ، نظير قوله تعالى مخاطباً رسوله أيضاً : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربَّهم بالغَدَاة والعشيِّ﴾ وأمثاله .

الآية الثامنة : ﴿ليغفر لك الله ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخَّر﴾ .

وليس في الكلام العربي ـ كما ادعى المدعون ـ أصرح من كلمة ﴿ذنبك﴾ في نسبة فعل الذنب للنبي ـ ص ـ .

ومع أن المفسِّرين قد ذكروا عدة وجوه في بيان المراد من لفظ الذنب في هذه الآية فان أوجه الوجوه في ذلك ما اختاره الشريف المرتضى رحمه الله ـ وهو مَنْ هو في العلم واللغة والأدب ـ ، فقد ذكر[12] : ان المراد من قوله تعالى : ﴿ذنبك﴾ هو ذنب قومك

---

(١٠) مجمع البيان : ٥/٤٣٧ .

(١١) مجمع البيان : ٥/٤٣٧ .

(١٢) تنزيه الأنبياء : ١١٧ .

معك ، وعلَّل ذلك بأن كلمة «الذنب» مصدر ، ومعروف في علم النحو أن المصدر قد يضاف الى الفاعل كما نقول : أعجبني سلوكُك أو أدبك أو فعلك ؛ فنضيف المصدرَ الى فاعله . وقد يضاف الى المفعول كما نقول : ساءني مرضُك أو حبسُك ؛ فنُضيفه الى مَنْ وقع عليه المرض أو الحبس وهو المفعول .

ولفظة «ذنبك» هنا في الآية من اضافة المصدر الى المفعول ، ويُراد به الذنب الذي وقع على النبي ـ ص ـ من قومه المشركين ؛ من شتم واستهزاء وتكذيب وأذى وحرب . بل لا يلتئم سياق الآيات إلاّ اذا فسَّرنا الجملة على هذا النحو ، قال تعالى : ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ويُتمَّ نعمتَه عليك﴾ ، فقد جاء الغفران مترتِّباً على الفتح ، ولم يكن في يوم نزول الآيات فتح ، لأنها نزلت بعد صلح الحديبية ، وقد سمّى الله تعالى ذلك الصلح فتحاً لأنه كان الطريقَ الى فتح مكة والممهِّدَ له ، وان المعنى الكامل لهذه الآيات ؛ اذا صغناها بلغة جلية الدلالة واضحة الألفاظ لأفهامنا الحاضرة ؛ يكون كما يأتي :

إنّا فتحنا لك بهذا الصلح فتحاً مبيناً يهيىء لك أمرَ دخولِ مكة ، وسيغفر لأجلك اللهُ ما تقدَّم من ذنبِ قومك نحوك وما تأخَّر منه بعد هذا الصلح الى أن يتحقق الفتحُ ويدخلوا في دين الله ، وبذلك يتمُّ الله نعمتَه عليك بالفتح والنصر واسلام قومك المعاندين .

واذا كان «الذنب» هو الذنب الذي فعله النبي نفسه كما تخيَّل بعض السطحيين فما علاقة ذلك بالفتح؟ ولماذا يترتب الغفران على هذا الفتح المأمول ، بل لا نجد لهذا الترتب معنى الاّ اذا كان للفتح ارتباط بغفران ذنب اولئك الذين أساؤا للنبي ممن ستُفْتَح بلادُهم للجيش النبوي وينهار كيانهم الجاهلي ، فيدخلون في دين الله أفواجاً .

الآية التاسعة : ﴿ووَجَدَكَ ضالاً فهَدَىٰ﴾ .

والضَّلال في هذه الآية خلاف العصمة قطعاً كما تخيَّل بعض المتخيلين .

والحقيقة ان الضلال في اللغة هو الذهاب والانصراف . وكان النبي ـ كما نعلم ـ لا يعرف كيف يعبد الله ؛ وكيف يقوم بواجب التقرب اليه ، أي انه كان

منصرفاً عن العبادة بمعناها الخاص ، حتى هداه الله اليها بانزال رسالة الاسلام عليه ، وهذه الآية جزء من سلسلة آيات عدَّد الله تعالى فيها نعمه على النبي ـ ص ـ وعناياته المتلاحقة به : ﴿ألَمْ يجدْك يتيماً فآوىٰ ، ووجدك ضالاً فهدىٰ ، ووجدك عائلاً فاغنىٰ﴾ فذكر عزَّ وجلَّ أنه قيَّض لمحمدٍ اليتيم مَنْ آواه وربّاه ، وهيّأ له وهو الفقير مَنْ حباه وأغناه ، ثم هداه الى العبادة والاسلام بعد أن كان ضالاً عن ذلك أي تائهاً منصرفاً لا يعرفه ولا يهتدي اليه .

الآية العاشرة : ﴿ووضعنا عنك وِزْرَك﴾ .

وما الوزر ـ في النظرة السطحية الساذجة ـ الاّ الذنب وارتكاب المعصية .

والحقيقة أن الوزر في اللغة هو الثقل ، وانَّما سميت الذنوب أوزاراً لأنها تثقل حاملها وتجهده ، ويكون ـ في ضوء ذلك ـ كلُّ ما يثقل الانسانَ ويهمّه ويجهده وزراً وثقلاً ؛ تشبيهاً له بالحمل الثقيل المجهد ، كما شُبِّه به الذنب فسُمِّي وزراً أيضاً .

وكان في مقدمة ما يثقل النبيَّ ويجهده ؛ ويثير همَّه وألَمَه ؛ هو ما كان عليه قومُه من شركٍ وضلال وإعراضٍ عن الدعوة ؛ وعدم إذعانٍ للرسالة ؛ وتمردٍ على الدين الذي أُرسِل به ، وما كان عليه هو والقلَّة المؤمنة المستضعفة من تحمل الوان الاذى والتعذيب والمطاردة والتنكيل ؛ ومن عدم القدرة على صدِّ شرور المشركين وعدوان المعتدين .

وهذا هو «الوزر» الذي عنته الآية الكريمة ؛ أي الهم الثقيل الذي كان ينقض ظهر النبي ألماً وحزناً وتأثراً .

ولعل من أوضح الشواهد علىٰ كون هذا المعنى هو المقصود بالآية المذكورة تعقُّب ذلك بقوله تعالى : ﴿ورفعنا لك ذِكْرَك ، فانَّ مع العسر يسراً ، إنَّ مع العسر يسرا﴾ ، إذ لا يلتئم رفعُ الذكر وحصولُ اليسر بعد العسر الاّ مع كون المراد بالوزر هو الهمّ الثقيل الذي كان يعاني منه النبي ما يعاني ؛ بسبب إعراض قومه عن الهدى والاسلام والصراط المستقيم .

الكِتَابَةُ والقِرَاءَة

من المسائل المتصلة بصفات الكمال الانساني وخصال الامتياز والتفوُّق أنْ يوصف الرجل بكونه يقرأ ويكتب ، وتلك فضيلة من الفضائل التي يصح أن يتنافس فيها المتنافسون ؛ وخاصة في ذلك العهد الذي كان يغلب عليه الجهل وتشيع فيه الأمّيَّة .

ولكنَّ كثيراً من الباحثين والمفكرين المسلمين قد نفوا معرفة القراءة والكتابة عن النبي ؛ وعدُّوا تلك الاميَّة من معجزاته ومناقبه البارزة ، وكان دليلهم الأكبر على ذلك ما ورد في القرآن الكريم مكرَّراً من وصفه بالأُمّيِّ ، كقوله تعالى : ﴿الذين يتَّبعون الرسولَ النبيَّ الاميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل﴾ وقوله عزَّ من قائل : ﴿فآمِنوا باللّهِ ورسوله النبيِّ الأُميِّ الذي يؤمِنُ بالله وكلماته﴾ [سورة الأعراف/ ١٥٧ و١٥٨] .

وقال المفسِّرون في بيان ذلك :

«قال الزجّاج : الأُميُّ : الذي هو على صفة أُمَّة العرب ، قال ـ ص ـ : «إنّا أُمَّة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب» ، فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون ، والنبي ـ ص ـ كان كذلك ، فلهذا السبب وُصِف بكونه أُمِّيّاً»[1] .

وروى آخرون : أن المراد بالأُمي هنا نسبة النبي الى مدينته مكة التي تسمّى أيضاً : أُمَّ القرى[2] ، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿لتنذر أُمَّ القرى ومَنْ حولها﴾ [سورة الأنعام/ ٩٢] ، وقوله تعالى : ﴿وما كان ربُّك مُهْلِك القرى حتى يبعث في أُمِّها رسولا﴾ [سورة القصص/ ٥٩] .

---

(١) تفسير الرازي : ١٥/٢٣ ، وتقدم منه ذلك فيه : ٣/١٣٩ . وورد هذا المعنى أيضاً في تفسير القرطبي : ٢/٥ و٧/٢٩٨ .

(٢) مجمع البيان : ٢/٤٨٧ وتفسير القرطبي : ٧/٢٩٩ .

وقال اللغويون في شرح معنى «الأُمّيّ» و«الأُمّيّين» في القرآن الكريم :

«الأُمّيُّ : الذي لا يكتب . قال الزجّاج : الأميُّ : الذي على خِلْقَة الأُمّة ؛ لم يتعلّم الكتاب ؛ فهو على جِبِلّته . وفي التنزيل العزيز : ﴿ومنهم أُمّيّون لا يعلمونَ الكتابَ الاّ أمانيّ﴾ . قال أبو اسحاق : معنى الأُمّيّ : المنسوب الى ما عليه جَبَلَتْه أُمّه أي لا يكتب ، فهو في أنه لا يكتب أُمّيٌّ ، لأن الكتابة هي مُكتَسَبة ؛ فكأنه نُسب الى مايُولَدُ عليه أي على ما وَلَدَتْه أُمّه عليه . . وفي الحديث : «إنّا أُمّة أُمّيّة لا نكتب ولا نحسب» أراد أنهم على أصل ولادة امّهم لم يتعلّموا الكتابة والحساب ؛ فهم على جِبِلّتهم الأُولى . وفي الحديث : «بُعِثتُ الى أُمّةٍ اميّة» قيل للعرب : الأُمّيّون ؛ لان الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، ومنه قوله : ﴿بَعَثَ في الأُميين رسولاً منهم﴾ .

«وقيل لسيدنا محمد رسول الله ـ ص ـ الأُمّيُّ ؛ لأن أُمّة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب ، وبَعَثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخَلّة احدى آياته المعجزة ، لأنه ـ ص ـ تلا عليهم كتاب الله منظوماً ؛ تارة بعد اخرى ؛ بالنُّظْم الذي أنزل عليه ؛ فلم يغيّره ولم يبدّل الفاظه»(٣) .

★★★

ومهما يكن من أمر ؛ فمن المسلَّم به والمتَّفق عليه أن النبي ـ وقد نشأ في هذه الأمّة الأُميّة التي يندر بين أبنائها مَنْ يعرف القراءة والكتابة ـ كان قبل البعثة أميّاً كسائر أفراد قومه ، والقرآن الكريم صريح في ذلك ، فقد قال تعالى : ﴿وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون﴾ [سورة العنكبوت/ ٤٨] ، كما يدلُّ على ذلك قوله عز وجل : ﴿وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلا﴾ [سورة الفرقان/ ٥] ، إذ أن جُملتَي ﴿اكتتبها﴾ و﴿تُملى عليه﴾ جليّتا الدلالة على أن محمداً باعتراف أعدائه لم يكن يعرف الكتابة قبل نزول القرآن ، ولذلك اتّهموه بكونه قد طلب من غيره أن يكتب له ما جاء في أسْطار(٤) الأولين وكُتُبهم ؛ وأن يُمليَ

(٣) لسان العرب/ تركيب أمم .

(٤) أسطار : جمع سَطْر ، وجمع أسطار أساطير ، أي ان «أساطير» هنا في الآية جمع الجمع وليست جمع اسطورة كما توهم كثيرون ، ومن نظائر أساطير في كونها جمعَ الجمع : أناييب جمع أنياب ؛ وأبابيت جمع أبيات ؛ وأيامين جمع أيمان ؛ وأظافير جمع أظفار ؛ وأخادير جمع أخدار ؛ وأعاصير جمع أعصار ؛ وأفاويه جمع أفواه . تراجَع هذه التراكيب في التهذيب ولسان العرب .

عليه الكاتبُ ما كتب ـ أي يقراه عليه ـ لأنه لا يحسن القراءة أيضاً .

وقال الشيخ الطوسي في تفسير آية سورة العنكبوت :

«بَيَّنَ تعالى أنه لم يكتب ، لأنه لو كَتَبَ لشكَّ المبطلون في القرآن وقالوا : هو قرأ الكُتُبَ ؛ أو هو يصنِّفه ويضمُّ شيئاً الى شيءٍ في حالٍ بعد حال ، فاذا لم يحسن الكتابة لم تسبق اليه الظنَّة»[٥] .

وقال الفخر الرازي في تفسير الآية نفسها :

المراد أن «هذا القرآن ممَّن لم يَكتُبْ ولم يقرأ عينُ المعجزة ؛ فيُعْرفَ كونه مُنْزَلاً ، وقوله تعالى : ﴿اذاً لارتاب المبطلون﴾ فيه معنىً لطيف ؛ وهو أن النبي اذا كان قارئاً كاتباً . . يكون للمبطل وجه ارتيابٍ ، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه»[٦] .

★★★

ثم وقع الخلاف وتعدَّد القول في حال النبي بعد البعثة ، فهل قرأ وكتب بعد ذلك أو بقيت الأميَّة صفةً ثابتة له ـ ص ـ طيلة حياته؟؟

إنَّ آية سورة العنكبوت قد نفت عن النبي هذين الوصفين قبل البعثة ، وهو صريحُ معنى قولهِ : ﴿وما كنت تتلو من قبله﴾ أي قبل نزول القرآن ، ولكنها لم تتحدث عنها بعدها فلم تنفِ ولم تثبت شيئاً من ذلك بواضح الكلام وصريح القول .

وذهب الفخر الرازي الى بقائه ـ ص ـ اميّاً مدى عمره الشريف ، وعدَّ ذلك من جملة معجزاته ، وقال :

«وبيانه من وجوه :

«الأول : انه ـ ص ـ كان يقرأ عليهم كتابَ الله منظوماً مرة بعد اخرى من غير تبديل ألفاظِه ولا تغيير كلماته ، والخطيب من العرب اذا ارتجل خطبة ثم أعادها فانه لابد وأن يزيد فيها وأن ينقص . . . فكان ذلك من المعجزات .

«والثاني : انه لو كان يحسن الخطَّ والقراءة لصار متَّهماً في أنه ربما طالع كُتُبَ الأوَّلين ؛ فحصَّل هذه العلوم من تلك المطالعة ، فلمَّا أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلُّمٍ ولا مطالعة ؛ كان ذلك من المعجزات[٧]» .

---

(٥) التبيان : ٨/٢١٦ .

(٦) تفسير الرازي : ٢٥/٧٧ .

(٧) تفسير الرازي : ١٥/٢٣ .

ثم قال بعد صفحات :

من «المعجزات التي ظهرت في ذاته المباركة . . أنه كان رجلاً اميّاً لم يتعلّم من استاذ ؛ ولم يطالع كتاباً ؛ ولم يتفق له مجالسةُ أحدٍ من العلماء ؛ لأنه ما كانت مكةُ بلدةَ العلماء . وما غاب رسولُ الله ـ ص ـ عن مكة غيبةً طويلة يمكن أن يقال إنَّه في مدَّة تلك الغيبة تعلَّم العلوم الكثيرة . . فكان ظهورُ هذه العلوم العظيمة عليه مع أنه كان رجلاً أمّيّاً لم يلقَ استاذاً ولم يطالع كتاباً ؛ من أعظم المعجزات»[٨] .

وأخرج الذهبي بسنده عن عون بن عبدالله بن عتبة عن أبيه قال :

«ما مات النبي ـ ص ـ حتى قرأ وكتب» .

ثم علَّق على كلام ابن عتبة فقال :

«لم يَرِدْ أنه ـ ص ـ كتب شيئاً الا ما في صحيح البخاري من أنه يوم صلح الحديبية كتب اسمَه (محمد بن عبدالله) . . . وما خرج عن كونه اميّاً بكتابة اسمه الكريم ، فجماعةٌ من الملوك ما علموا من الكتابة سوى مجرد العلامة ، وما عدَّهم الناسُ بذلك كاتبين ، بل هم اميون ، فلا عبرة بالنادر . . والله تعالى فمن حكمته لم يُلْهِمْ نبيَّه تعلُّمَ الكتابة ولا قراءة الكتب حَسْماً لمادة المبطلين . . ثم ما المانع من تعلُّم النبيِّ ـ ص ـ كتابةَ اسمِه واسم أبيه مع فرط ذكائه وقوة فهمه . . . ثم هذا خاتمه في يده ونقشه «محمد رسول الله» ، فلا يظن عاقل أنه ـ ع ـ ما تعقَّل ذلك ، فهذا كله يقتضي أنه عرف كتابة اسمه واسم أبيه»[٩] .

وقال في موضع آخر من كتابه :

«يجوز على النبي ـ ص ـ أن يكتب اسمه ليس إلاّ ؛ ولا يخرج بذلك عن كونه أميّاً . . وقد كان ـ ص ـ سيد الأذكياء ، ويبعد في العادة أنَّ الذكيَّ يُمْلي الوحيَ وكُتُبَ الملوك وغيرَ ذلك على كُتّابه ؛ ويرى اسمَه الشريف في خاتمه ؛ ولا يعرف هيئةَ ذلك . . وبعضُ العلماء عَدَّ ما كتبه يوم الحديبية من معجزاته ؛ لكونه لا يعرف الكتابة وكَتَبَ . فانْ قيل : لايجوز عليه أن يكتب ؛ فلو كتب لارتاب مبطل ولقال :

---

(٨) تفسير الرازي : ١٥/ ٢٩ .

(٩) سير أعلام النبلاء : ١٤/ ١٩٠ ـ ١٩١ .

كان يُحْسِن الخطَّ ونَظَرَ في كتب الأوَّلين . قلنا : ما كتب خطّاً كثيراً حتى يرتاب به المبطلون . بل قد يقال : لو قال مع طول مدة كتابة الكُتّاب بين يديه : لا أعرف أن أكتب اسمي الذي في خاتمي ؛ لارتاب المبطلون أيضاً ولقالوا : هو غاية في الذكاء فكيف لا يعرف ذلك؟ بل عَرَفَه وقال لا أعرف . فكان يكون ارتيابهم أكثر وأبلغ في إنكاره»[١٠] .

وكان المفسِّر القرطبي قد جزم هو الآخر بأُميَّة النبي طيلة حياته وقال :

«الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وانما أمَرَ مَنْ يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجّى» ، وقال : «ويكونه اميّاً في امةٍ أميَّةٍ قامت الحجة وأُفحِم الحاسدون وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يدَه فيكتب وتكون آيةً ، وانما الآيةُ أن لا يكتب»[١١] .

★★★

وهناك من مفكري المسلمين مَنْ ذهب الى أنه ـ ص ـ قد كتب بعد البعثة وقرأ ، ويأتي في جملة هؤلاء عددٌ من علماء الاندلس وفي مقدمتهم أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفى سنة ٤٧٤هـ ؛ وقد ألَّف رسالة في الموضوع سمّاها (تحقيق المذهب من أن النبي ـ ص ـ كَتَب) ، واستدلَّ على ذلك بقول الشعبي : «ما مات النبي ـ ص ـ حتى كتب» ، وبما رواه أبو كبشة السلولي : «أنه ـ ص ـ قرأ صحيفةً لعيينة بن حصن ، وأخبر بمعناها»[١٢] .

ورأى هؤلاء ان هذا لا ينافي كونه اميّاً قبل ذلك بنص القرآن ، «بل رأوه زيادة في معجزاته ، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته ، وذلك أنه كتب من غير تعلُّمٍ لكتابةٍ ولا تعاطٍ لأسبابها ، وانما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركاتٍ كانت عنها خطوط . . فكان ذلك خارقاً للعادة»[١٣] .

---

(١٠) سير أعلام النبلاء : ١٨/٥٤٠ ـ ٥٤١ .
(١١) تفسير القرطبي : ١٣/٣٥٣ .
(١٢) تفسير القرطبي : ١٣/٣٥٢ .
(١٣) تفسير القرطبي : ١٣/٣٥٢ .

والغريب في الأمر أن القائلين بأميَّة النبي قد نَسَبوا هؤلاء الذاهبين الى رفع الامية عنه بعد البعثة الى الكفر[14] . وقال القرطبي في استنكار هذا التكفير : «ان المسألة ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار آحادٍ صحيحة ، غير أن العقل لا يحيلها ، وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها»[15] .

وتحقيق الكلام في المسألة ترجيح القول بأن النبي ـ ص ـ بعد البعثة قد قرأ وكتب ، إذ كانت تلك الامية ضرورة لابدَّ منها قبل البعثة ؛ لتتحقق بذلك معجزته الكبرى بالاتيان بالقرآن ؛ ولئلا يكون أي شكٍّ أو ارتياب فيما جاء به ؛ ولكيلا يقال إنه من صنعه وتأليفه ، وهو الذي دلَّتْ عليه آية سورة العنكبوت في النصِّ على ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ ، وكذلك القول في حديث «إنّا أُمة اميَّة» ، إذ ليس فيه ما يدل على استمرار ذلك الى آخر أيام النبوة . والكتابة والقراءة كما قال الذهبي : «صفة مدحٍ»[16] ، والمفروض في أيِّ نبيٍّ فضلاً عن سيدهم وخاتمهم الأعظم أن يكون جامعاً لصفات المدح وخصال الكمال .

ونختم الحديث في الموضوع بإيراد زبدة ما كتبه الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد في بيان رأيه في ذلك فقال :

«إن الله تعالى لمّا جعل نبيَّه ـ ص ـ جامعاً لخصال الكمال كلها وخلال المناقب بأسرها ، لم تنقصه منزلةٌ بتمامها يصح له الكمال ويجتمع فيه الفضل ، والكتابةُ فضيلةٌ مَنْ مُنِحها فَضُل ومَنْ حُرِمَها نقص .

«ومن الدليل على ذلك : أن الله تعالى جعل النبي ـ ص ـ حاكماً بين الخلق في جميع ما اختلفوا فيه ، فلابد أن يعلِّمه الحكم في ذلك ، وقد ثبت أن امور الخلق قد يتعلَّق أكثرها بالكتابة ؛ فتثبت بها الحقوق وتبرأ بها الذِّمم وتقوم بها البيِّنات ويُحْفَظ بها الديون وتحاط بها الأنساب ، وانها فضلٌ يشرف المتحلّي به على العاطل منه . واذا صحَّ أن الله جلَّ اسمه قد جعل نبيَّه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ؛ ثبت أنه كان عالماً بالكتابة محسناً لها . . .» .

---

(١٤) سير أعلام النبلاء : ١٤/١٩٠ .
(١٥) تفسير القرطبي : ١٣/٣٥٣ .
(١٦) سير أعلام النبلاء : ١٤/١٩١ .

«وشيء آخر : وهو قول الله سبحانه : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [سورة الجمعة/ ٢] ، ومحال أن يعلّمهم الكتابَ وهو لا يحسنه . . ولا معنى لقول مَنْ قال : ان الكتاب هو القرآن خاصّة . إذ اللفظ عام ، والعموم لا يُنْصَرَف عنه إلاّ بدليل ، لاسيما على قول المعتزلة وأكثر أصحاب الحديث .

«ويدل على ذلك أيضاً : قوله تعالى : ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك ؛ اذاً لارتاب المبطلون﴾ ، فنفى عنه احسان الكتابة وخَطَّه قبل النبوة خاصة ، فأوجب بذلك إحسانه لها بعد النبوة ، ولو لا أن ذلك كذلك لما كان لتخصيصه النفي معنى يُعْقَل . ولو كان حاله ـ ص ـ في فقد العلم بالكتابة بعد النبوة كحاله قبلها لوجب ـ اذا أراد نَفْيَ ذلك عنه ـ أن ينفيه بلفظ يفيده . . فيقول له : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذ ذاك ولا في الحال ، أو يقول لستَ تحسن الكتابة ولا تتأتّى منك على كل حال . كما أنه لمّا أعدمه قول الشعر ومَنَعَه منه نفاه عنه بلفظٍ يعم الأوقات ؛ فقال الله تعالى : ﴿وما علّمناه الشِّعْرَ وما ينبغي له﴾ [سورة يس/ ٦٩] .

«واذا كان الأمر على ما بيّنّاه ثبت أنه ـ ص ـ كان يحسن الكتابة بعد أنْ نبّاه الله تعالى على ما وصفناه . وهذا مذهب جماعةٍ من الامامية ؛ ويخالف فيه باقيهم . وسائرُ أهل المذاهب والفِرَق يدفعونه وينكرونه»[١٧] .

وبامكاننا أن نضيف الى ما قاله هذا الشيخ المفيد ـ على جودته وصوابه واستيعابه لجوانب الموضوع ـ : ما ورد في النصوص المأثورة المشهورة من أن النبي ـ ص ـ لمّا اشتدَّ به مرضُه وأحسَّ بدنوِّ أجله «قال : ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده . قال عمر : ان النبي ـ ص ـ غلبه الوجع!! وعندنا كتاب الله حسبنا . فاختلفوا وكثر اللغط ، قال : قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع ، فخرج

---

(١٧) أوائل المقالات : ١١١ ـ ١١٣ .

ابن عباس يقول : ان الرزيّة كلّ الرزية ما حال بين رسول الله ـ ص ـ وبين كتابه»[18] .

وفي لفظ مسلم :

«قال رسول الله ـ ص ـ : ائتوني بالكتف والدَّواة ـ أو : اللَّوح والدواة ـ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً . فقالوا : ان رسول الله ـ ص ـ يهجر»[19] .

وهذا الحديث بصريح ألفاظ الكتابة فيه وبتسمية الكتف أو اللوح والدواة ـ وهما أداتا الكتابة ـ لا يُبْقي تردداً لذي شكٍّ في كون النبي قد كتب وقرأ بعد البعثة .

أمّا اختياره ـ ص ـ كُتّاباً للوحي والرسائل وشؤون ادارة الدولة فليس معناه أنه أُمي لا يحسن الكتابة كما قد يُتَوَهَّم ، بل ان كل عظماء العالم وذوي المسؤوليات الكبرى فيه لديهم كتّاب يكتبون لهم ما يراد كَتْبُه ، مضافاً الى أن الحكمة المستشرفة للمستقبل ؛ والنظرةَ البعيدة المدى ؛ يقتضيان أن يقوم بكتابة آيات القرآن الكريم وضبط ألفاظه أكثرُ من واحدٍ كي لا يقع الخلاف في آيةٍ أو لفظةٍ منه بعد وفاة النبي ـ ص ـ وانقطاع وسيلة الاطمئنان عند الشك ، ولعل تلك الحكمة نفسها هي التي اقتضت أن يكون اولئك الكتّاب من أنماط شتّى حتى الطُّلقاء مسلمة الفتح ، كي يكون الاتفاق في مستقبل الأيام على نصّ القرآن ثابتاً كل الثبوت ومسلَّماً لدى الجميع .

---

(١٨) صحيح البخاري : ١/٣٩ و٦/١١ ـ ١٢ و٩/١٣٧ وصحيح مسلم : ٥/٧٦ ومسند أحمد ابن حنبل : ١/٣٢٤ ـ ٣٢٥ و٣٣٦ .

(١٩) صحيح مسلم : ٥/٧٦ ، وقريب من لفظه فيه : ٥/٧٥ ومسند أحمد : ١/٢٢٢ و٣٥٥ .

الهِجْرَةُ
وبِنَاءُ الدَّوْلَةِ

في العام الثالث عشر من البعثة ـ كما هو المشهور بين المؤرخين[1] ـ أذن اللهُ تعالى لنبيه بالهجرة الى المدينة المنورة ، ليقيم فيها دعائم دولة الحق ، وكان قد سبق هذه الهجرةَ أكثرُ من لقاءٍ في مكة بين النبيِّ ـ ص ـ وبعض رجال الأوس والخزرج من أهل يثرب وأطرافها ـ كما أسلفنا ذكره في فصل سابق ـ .

وكان السبب المباشر في توقيت هذه الهجرة ما رواه المؤرخون من أن قريشاً لمّا رأوا «أن رسول الله ـ ص ـ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم مَنَعَة ، فحذروا خروجَ رسول الله ـ ص ـ اليهم ، . . . فاجتمعوا له في دار الندوة ـ وهي دار قُصَيِّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً الا فيها ـ يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ـ ص ـ حين خافوه»[2] .

وكان ممن تحدَّث في هذا الاجتماع أبو جهل بن هشام ، فقال:

«أرى أن نأخذ من كل قبيلةٍ فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجلٍ واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرَّق دمُه في القبائل جميعاً ؛ فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً» .

فاتفق القوم على رجحان هذا المقترح ، وتفرقوا على ذلك «وهم مجمعون له»[3]

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/٢٤٠ وتاريخ اليعقوبي : ٢/٢٩ وطبقات ابن سعد : ١/ق ١/١٥١و١٥٢ وتاريخ الطبري : ٢/٣٨٤ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢/١٢٤ وتاريخ الطبري : ٢/٣٧٠ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢/١٢٦ وتاريخ الطبري : ٢/٣٧١ ـ ٣٧٢ .

«فأتى جبريلُ ـ ع ـ رسولَ الله ـ ص ـ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنتَ تبيت عليه . فلما كانت عتمةٌ من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه ، . . . فلما رأى رسولُ الله ـ ص ـ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نَمْ على فراشي وتَسَجَّ (واتَّشحْ) ببردي هذا الحضرميِّ الأخضر فنم فيه . . . ، وكان رسول الله ـ ص ـ ينام في برده ذلك اذا نام»[٤] .

«وخرج عليهم رسول الله ـ ص ـ فأخذ حفنةً من ترابٍ في يَدِه . . ، وأخذ اللهُ تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم . . . ولم يبق منهم رجل الاّ وقد وضع على رأسه تراباً»[٥] .

«ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب»[٦] .

وأوحى الله تعالى «في تلك الليلة الى جبريل وميكائيل: اني قضيتُ على أحدكما بالموت فأيكما يواسي صاحبه ؟ فاختار الحياةَ كلاهما ، فأوحى اللهُ اليهما: هلاّ كنتما كعلي بن أبي طالب ؛ آخيتُ بينه وبين محمد وجعلتُ عمر أحدِهما أكثر من الآخر ، فاختار عليٌّ الموتَ وآثر محمداً بالبقاء وقام في مضجعه ، اهبطا فاحفظاه من عدوِّه . فهبط جبريل وميكائيل فقعد أحدهما عند رأسه والآخرُ عند رجليه ؛ يحرسانه من عدوه . . وجبريل يقول: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب ، مَنْ مِثْلُك يباهي الله بك ملائكة سبعِ سماوات»[٧] .

وظل المشركون ليلهم ذلك يراقبون فراش النبي ـ ص ـ من شقوق الباب ، «فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ـ ص ـ . . . فلم يبرحوا»[٨] ، ثم «أتت قريشٌ فراشه فوجدوا علياً»[٩] ، فقام علي عن الفراش «فلما دنوا منه عرفوه ،

---

(٤) سيرة ابن هشام : ٢/١٢٦ ـ ١٢٧ وتاريخ الطبري : ٢/٣٧٢ .
(٥) سيرة ابن هشام : ٢/١٢٧ وتاريخ الطبري : ٢/٣٧٣ .
(٦) تاريخ الطبري : ٢/٣٧٣ .
(٧) تاريخ اليعقوبي : ٢/٢٩ .
(٨) سيرة ابن هشام : ٢/١٢٧ وتاريخ الطبري : ٢/٣٧٣ .
(٩) تاريخ اليعقوبي : ٢/٢٩ .

فقالوا له: أين صاحبك ؟ قال: لا أدري . . . فانتهروه . . . ونجّى الله رسوله من مكرهم»[10] .

وروى الطبري:

«ان أبا بكر أتى علياً فسأله عن نبي الله ـ ص ـ ، فأخبره أنه لحق بالغار من ثورٍ . . . فخرج أبو بكر مسرعاً فلحق نبيَّ الله ـ ص ـ في الطّريق ، فسمع رسولُ الله ـ ص ـ جرسَ أبي بكر . . . فحسبه من المشركين ، فأسرع رسولُ الله ـ ص ـ المشيَ ، . . . فخاف أبو بكر أن يشقَّ على رسول الله ـ ص ـ ، فرفع صوته وتكلّم فعرفه رسول الله ـ ص ـ . . . فانطلقا . . . حتى انتهى الى الغار»[11] .

وجاء في رواية الحافظ ابن كثير:

«فجاء أبو بكر وعليٌّ نائم ؛ وأبو بكر يحسب أنه نبي الله ، فقال: يا نبيَّ الله ، فقال له علي: إن نبيَّ الله قد انطلق نحو بئر ميمونة فأدْرِكْه ، فانطلق أبو بكر»[12] .

و«أقام رسول الله ـ ص ـ في الغار ثلاثاً ، ومعه أبو بكر ، وجعلتْ قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يردُّه عليهم»[13] ، و«طلبوا الأثر فلم يقعوا عليه ، وأعمى اللهُ عليهم المواضع ، فوقفوا على باب الغار قد عشّشتْ عليه حمامةٌ»[14] ، و«رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه»[15] .

وكان مما نزل من القرآن الكريم في هذه الهجرة المباركة قوله تعالى:

﴿وإذْ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرين﴾ .

ثم بيّن الله تعالى هذه المعجزة الكبرى لنبيِّه الحبيب فقال في آية أُخرى:

﴿إلّا تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ، ثانيَ اثنَيْنِ إذْ هما في

---

(١٠) تاريخ الطبري : ٢/٣٧٤ .

(١١) تاريخ الطبري ـ أيضاً : ٢/٣٧٤ .

(١٢) البداية والنهاية : ٧/٣٣٨ .

(١٣) سيرة ابن هشام : ٢/١٣٠ .

(١٤) تاريخ اليعقوبي : ٢/٢٩ .

(١٥) مسند أحمد : ١/٣٤٨ . ويراجع ما قاله الخليفة المأمون في فضيلتي المبيت على الفراش والمصاحبة في الغار : العقد الفريد : ٥/٩٩ .

الغار ، إذْ يقول لصاحبه : لا تحزنْ إن الله معنا ، فأنزل اللهُ سكينته عليه وأيّده بجنودٍ لم تروها ، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ اللهِ هي العليا ، والله عزيز حكيم﴾ .

★★★

وقدم رسولُ الله ـ ص ـ المدينة المنورة لاثنتي عشرة من شهر ربيع الأول ، وقيل : لليلتين خلتا منه ، وقيل : لثمان خلون منه ، وقيل : لهلال ربيع الأول[16] . وكان قدومه «قريباً من نصف النهار في الضحى الأعلى»[17] ، فنزل في قباء أوّلاً ؛ على كلثوم بن هِدْم أخي بني عمرو بن عوف ؛ وعلى سعد بن خيثمة أيضاً[18] ، فمكث أياماً عندهم ، وذكر بعضُ المؤرخين : أنه صلّى الجمعة في بني سالم بن عوف ببطن وادٍ لهم ـ وقد اتُّخذ موضع الصلاة هذا بعد ذلك مسجداً ـ ، وهي أول جمعةٍ جمّعها رسول الله ـ ص ـ في الاسلام ، وخطب ـ ص ـ في هذه الجمعة ؛ فكانت أول خطبةٍ خطبها بالمدينة[19] .

ثم انتقل من هناك ليحل في المكان الذي اختاره الله له «فركب راحلته وقال : خلوا زمامها ، فجعل لا يمرّ بحيٍّ من أحياء الأنصار الاّ قالوا له : يا رسول الله ؛ انزل بنا فانك تنزل في العدَّة والكثرة ، فيقول : خلوا زمام الراحلة فانها مأمورة ، حتى وقفت على باب أبي أيوب الأنصاري فبركتْ . . . فنزل بأبي أيوب فأقام عنده أياماً . . وقيل : ان ناقته بركت في موضع المسجد ، فنزل ، فجاء أبو أيوب فأخذ رحله فمضى به الى منزله»[20] .

---

(١٦) سيرة ابن هشام : ٢/١٣٧ و٢٤٠ وتاريخ اليعقوبي : ٢/٣٠ وطبقات ابن سعد : ١/ق ١/١٥٧ وتاريخ الطبري : ٢/٣٨١ والاستيعاب : ١/١٧ والروض الأُنُف : ٢/٢٤٥ .

(١٧) تاريخ الطبري : ٢/٣٨١ والاستيعاب : ١/١٧ .

(١٨) سيرة ابن هشام : ٢/١٣٨ و١٣٩ وتاريخ اليعقوبي : ٢/٣٠ وتاريخ الطبري : ٢/٣٨٢ .

(١٩) تاريخ الطبري : ٢/٣٩٤ ، وقد أورد الطبري نصّ الخطبة فيما رواه في تاريخه : ٢/٣٩٤ ـ ٣٩٦ .

(٢٠) تاريخ اليعقوبي : ٢/٣٠ ـ ٣١ . وهناك تفاصيل أكثر في سيرة ابن هشام : ٢/١٣٨ ـ ١٤١ وتاريخ الطبري : ٢/٣٩٦ .

وكان النبي ـ ص ـ قبل مغادرته مكة قد أمر عليّاً أن يتخلف بعده هناك حتى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس ، وكان «رسول الله ـ ص ـ ليس بمكة أحدٌ عنده شيء يخشى عليه الاّ وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته»[٢١] .

فأقام عليٌّ بمكة ثلاث ليالٍ وأيّامها حتى أدّى الودائع ، ثم قدم بعد ذلك المدينة فنزل مع رسول الله ـ ص ـ[٢٢] .

وتلاحق المهاجرون الى رسول الله ـ ص ـ على اثر هجرته زرافات ووحدانا ، «فلم يبق بمكة منهم أحدٌ الاّ مفتون أو محبوس»[٢٣] ، و«نزلوا منازل الأنصار فواسوهم بالديار والأموال»[٢٤] .

وسرعان ما بدأ العمل ببناء مسجد رسول الله ـ ص ـ ومسكنه ؛ في المكان الذي بركتْ فيه الناقة ، وعمل فيه رسولُ الله ـ ص ـ كما «عمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه»[٢٥] حتى تمَّ إنجازه في أقصر وقت .

ومن طرائف ما يروي الرواة في أخبار بناء المسجد النبوي : ان عمار بن ياسر خاطب رسولَ الله ـ ص ـ ذات يوم وقد أثقلوه باللَّبِنِ : «يا رسول الله ؛ قتلوني ، يحملون عليَّ ما لا يحملون» ، قالت امُّ سلمة : «فرأيتُ رسول الله ـ ص ـ ينفض وفرته بيده ـ وكان رجلاً جعداً ـ وهو يقول : ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، انما تقتلك الفئة الباغية» .

وارتجز علي بن أبي طالب (ع) يومئذ :

لا يستوي مَنْ يعمر المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا

ومَنْ يُرى عن الغبار حائدا

«فأخذها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها . . . فلما أكثر ظنَّ رجلٌ من أصحاب

---

(٢١) سيرة ابن هشام : ٢/١٢٩ .

(٢٢) سيرة ابن هشام : ٢/١٣٨ وتاريخ اليعقوبي : ٢/٣١ وتاريخ الطبري : ٢/٣٨٢ .

(٢٣) سيرة ابن هشام : ٢/١٤٤ .

(٢٤) تاريخ اليعقوبي : ٢/٣١ .

(٢٥) سيرة ابن هشام : ٢/١٤١ . ويراجع في وصف البناء الأول هذا للمسجد النبوي : طبقات ابن سعد : ١/ق ٢/٢ ـ ٣ .

رسول الله ـ ص ـ[٢٦] أنه انما يعرِّض به . . فقال: قد سمعتُ ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية ، واللهِ اني لاراني سأعرض هذه العصا لأنفك ـ وفي يده عصاً ـ ، فغضب رسول الله ـ ص ـ ثم قال: ما لهم ولعمار! يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ، ان عماراً جلدة ما بين عينيَّ وأنفي»[٢٧] .

★★★

وبعد أن تمَّ بناء المسجد النبوي المطهَّر في المدينة المنورة ؛ بدأ النبي ـ ص ـ خطواته المتدرجة في سبيل بناء الدولة ؛ وقيام سلطة الحق والعدل وحكومة السماء في الأرض .

وكانت الخطوة الاولى في هذه السبيل هي المؤاخاة بين أبناء الاسلام ؛ وتعميق الرابطة بينهم ، ليكون المجتمع الجديد قائماً على اسس ثابتة من المحبة والود ؛ وعلى قواعد متينة من تراصِّ الصفوف وصفاء القلوب .

وترشدنا النصوص التاريخية الى أن هذه المؤاخاة كانت ذات اتجاهَيْن: أحدهما مؤاخاة بين بعض المهاجرين وبعض ، والثاني مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[٢٨] .

ويؤكد خبرَ المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم لبعضٍ ما رواه ابن اسحاق: من أن النبي ـ ص ـ «أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي ، فكان رسول الله ـ ص ـ سيدُ المرسلين وإمامُ المتقين ورسولُ ربِّ العالمين ؛ الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد ؛ وعليّ بن أبي طالب ـ رض ـ أخَوَيْن . وكان حمزة بن عبدالمطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله ـ ص ـ وعَمُّ رسول الله ـ ص ـ وزيد بن حارثة مولى رسول الله ـ ص ـ أخَوَيْنِ»[٢٩] .

وعلى هذا المنوال تم استيعاب المهاجرين في التآخي فيما بينهم ، ثم استيعاب المهاجرين والأنصار كذلك أيضاً .

---

(٢٦) كان ابن اسحاق قد سمى هذا الرجل ، ولكن ابن هشام قد حذف اسمه كتماناً لذلك . وقد سماه شارح السيرة أبو ذر الخشني في شرحه لها ، ونُقِل عنه ذلك في هامش سيرة ابن هشام .

(٢٧) سيرة ابن هشام : ٢/١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٢٨) طبقات ابن سعد : ١/ق ١/٢ .

(٢٩) سيرة ابن هشام : ٢/١٥٠ ـ ١٥١ .

ثم زاد رسول الله ـ ص ـ في تأكيد هذه الاخوة فكتب كتاباً يتضمن أُسس هذا التآخي والتكافل ، ونصَّ فيه على موادعة يهود يثرب ومهادنتهم ؛ لما كانت لهم من علائق الجوار والتجارة والمصالح المالية مع الأنصار . وكان مما جاء في هذا الكتاب :

«هذا كتابٌ من محمد النبي ـ ص ـ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومَنْ تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : انهم امة واحدة من دون الناس . . وان المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً [أي مُثْقَلاً بالدَّين والعيال] بينهم أن يُعْطُوه بالمعروف في فداءٍ أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه ، وان المؤمنين المتقين على مَنْ بغى منهم أو ابتغى دسيعةَ ظلمٍ أو إثمٍ أو عدوانٍ أو فساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولدَ أحدِهم . . . وان مَنْ تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة ، . . . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجارٍ يُخاف فسادُه فانَّ مردَّه الى الله عز وجل والى محمدٍ رسول الله ـ ص ـ»[٣٠] .

وعلى هذه القاعدة الصلبة قام البناء ؛ وارتفع الصرح ؛ وانطلقت المسيرة .

وكانت قد اكتملت للنبي ـ ص ـ ببركة هذه الهجرة وذلك التآخي أهم المقومات الأساسية المطلوبة لاعلان قيام الدولة ، ونعني بها الأركان الكبرى الثلاثة المتمثلة في :

١ ـ الأرض : وهي المدينة المنورة وأطرافها ، وما تضمه من زرع وضرع وكلأ وماء .

٢ ـ السكان : وهم المسلمون القاطنون في هذه الأرض ؛ بعد أن توحدت كلمتهم والتحمتْ وشائج الاخوة والمودة بينهم .

٣ ـ الحكومة : وهي حكومة النبوة التي يخضع لها الجميع ويدينون لها بالطاعة والتقديس .

وكما اكتملت مقوِّمات وجود الدولة فقد اكتملت كذلك مقومات انطلاق الحكومة التي تقود المسيرة ، وأصبح بمقدورها القيام بواجباتها المنتظرة على أفضل الوجوه .

---

(٣٠) سيرة ابن هشام : ٢/١٤٧ ـ ١٥٠ .

وكان أبرز تلك المقومات:

أ ـ الدستور: وهو القرآن الكريم الذي جعل اللهَ تعالى مصدر السلطات والتشريع .

ب ـ التشريع: وهو مجموع التكاليف القرآنية والأوامر النبوية .

ج ـ القضاء للحسم بين المتنازعين: وقد تمثل ذلك في شخص النبي ـ ص ـ نفسه بما يقضي ويحكم بين الناس ؛ وفيمن يعيِّنه النبي ـ ص ـ للتصدي لذلك .

د ـ السلطة التنفيذية: وكان على رأسها الرسول ـ ص ـ نفسه أيضاً .

ووضع النبي ـ ص ـ لهذه الدولة الفاضلة كل المتطلبات الدستورية التي تكفل لها حسن أداء العمل وانتظام الادارة والتنفيذ .

وكان لهذه الحكومة رئيس أعلى هو النبي ـ ص ـ ذاته ، وكان شكل الحكم فيها ـ اذا جاز لنا أن نستعمل المصطلحات المعاصرة ـ قريباً جداً مما يسمى اليوم: «النظام الرئاسي» .

ووضعت هذه الحكومة ـ تطبيقاً لأحكام شرع الله ـ نظاماً تفصيلياً يشمل كلَّ جوانب الحياة العامة التي ترتبط بحاجات الناس ومصالحهم الماثلة يومذاك ، وكان في طليعة تلك الجوانب ما يتعلق منها بمسائل الحرب والسلم ؛ وقضايا الادارة والاقتصاد والاجتماع ؛ وشؤون السياسة الخارجية والعلاقات مع الدول القائمة يومذاك .

ويقوم النظام الدفاعي في مجمله على أربع قواعد كبرى تتدرَّج في التطبيق تبعاً للطوارىء والظروف ؛ وتتسلسل في التنفيذ حسب مقتضيات المفاجآت والمستجدات:

أ ـ السلم: وهو حجر الأساس ، قال تعالى: ﴿فإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ .

ب ـ الإعداد للدفاع وحفظ الحرمات ، قال تعالى: ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرْهِبون به عدوَّ الله وعدوَّكم﴾ .

ج ـ ردُّ العدوان: قال تعالى: ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِمُوا وان اللهَ على نصرهم لَقَدير﴾ .

د ـ الصبر على الحرب والاستبسال في الدفاع : قال تعالى : ﴿يا أيها النبيُّ حَرِّض المؤمنين على القتال﴾ .

وتمثلت الممارسة الادارية للحكومة النبوية في أمثلةٍ كثيرة ، منها :

تعيين المهاجر بن أبي امية أميراً على صنعاء .

وزياد بن لبيد البياضي على حضرموت وصدقاتها .

وعَديّ بن حاتم على صدقات طيىء وأسد .

ومالك بن نويرة اليربوعي على صدقات بني حنظلة .

والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم على صدقات بني سعد .

والعلاء بن الحضرمي على صدقات البحرين .

وإرسال علي بن أبي طالب (ع) الى أهل نجران بجمع صدقاتهم وأخذ جزيتهم[٣١] .

واستقبال النبي (ص) وفود قبائل العرب ، ومفاوضة زعمائها ، وتحرير الكتب لبعضها بما يضمن لهم حقوقهم وللدولة حقوقها ؛ وبما ينظم روابط تلك القبائل والبلدان بحكومة المركز على نحوٍ محدَّدٍ ومتَّفقٍ عليه[٣٢] .

وتمثلت اللَّبنات الاولى للنظام الاقتصادي الجديد في ذلك المجتمع الذي كان يعيش بين الغنى المفرط والفقر المدقع ؛ في الأمثلة الآتية :

أ ـ تحريم الربا : قال تعالى : ﴿الذين يأكلون الربا لايقومون الاّ كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطانُ من المسِّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحلَّ اللهُ البيعَ وحَرَّم الربا﴾ .

ب ـ تحريم كنز المال : قال تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها في سبيل الله فبَشِّرْهم بعذابٍ أليم﴾ .

ج ـ التأكيد على أن المالك الحقيقي لكل شيء هو الله تعالى ، وأن المال انما هو

---

(٣١) يراجع في التعيينات الادارية المذكورة : تاريخ اليعقوبي : ٢/٦٠ وتاريخ الطبري : ١٤٧/٣ .

(٣٢) يراجع في الوفود : سيرة ابن هشام : ٤/٢٠٥ ـ ٢٤٥ وطبقات ابن سعد : ١/ق ٢/٣٨ ـ ٨٦ وتاريخ الطبري : ٣/١١٥ ـ ١٤٦ .

مـال الله ، ﴿وآتوهم من مـال الله الـذي آتـاكم﴾ ، وان النـاس مستخلفـون فيـه ومأذونونَ من قبـل المالـك بالتصرف والتـداول له ﴿وأنفقـوا مما جعلكم مُسْتَخلَفِـين فيه﴾ ، بشرط أن يفعلوا في تلك الاموال بما يأمر به المالك ويرضى ، وأن يبتعدوا عما ينهاهم عنه ولا يأذن فيه ، وأن يدفعوا من ضرائب المال ما أمرهم به وألزمهم بأدائه .

د ـ التركيز بكل صراحة ووضوح على أن المال وسيلة لقضاء الحاجات المشروعة وتحقيق الرغبات المحلَّلة ، وليس غاية في حدِّ ذاته كما يظن المغفَّلون ، بل «ليس لك من مالك الا ما أكلت فأفنيتَ ؛ ولبست فـأبليتَ ؛ وتصدَّقت فـأبقيتَ» كما جـاء في الحديث الشريف .

هـ ـ بيـان أهمية العمـل والحث المؤكد عليـه ، لأنه المصـدر الأكبر لكـل مالٍ وثروة .

وتمثل النظام الاجتماعي في انطلاقته الاسلامية الاولى فى إلغاء كل قيم الجاهلية وفوارقها النسبية والطبقية والعنصرية .

وكـان لعنُ أبي لهبٍ في القرآن الكـريم وضمُّ سلمان الفـارسي الى أهـل البيت واحداً من أمثلة ذلك .

وكان النبي ـ ص ـ ينادي دومـاً في المسلمين مـوجِّهاً ومؤكِّـداً : ان «الناس في الاسلام سواء ، الناس طفّ الصاع لأدم وحـواء ، لا فضل لعـربي على عجمي ولا عجمي عـلى عربي الا بتقـوى الله» ، «لا تأتـوني بأنسـابكم ، وأْتوني بـأعمالكم» ، «أُوصيكم بمن ملكتْ أيمانُكم ؛ فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون» ، «ان المسلم أخو المسلم لا يغشه ولا يخونه ولا يغتابه»[٣٣] .

وأولى الاسلامُ المرأةَ مزيداً من العناية والرعاية والاهتمام ؛ وعدَّ ذلك جزءاً من عملية بناء المجتمع وتراصِّه وتماسكـه ، بعد أن كـانت في الجاهليـة مهانـة الى أفظع الحدود ، ﴿واذا بُشِّر أحدُهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ ، ﴿واذا الموؤدة سُئلتْ بـأي ذنبٍ قُتلتْ﴾ . فساوى الاسـلام بينها وبـين الرجـل في الانسـانيـة وفي استحقاق الثواب والعقاب ، وحرَّم وأْدَ البنت ، وأثبت الأهلية الكاملة لها في الحقوق

---

(٣٣) تاريخ اليعقوبي : ٢/٩١ـ٩٢ .

والواجبات ، ومنحها حقَّ الإرث ، وحثَّ على تعليمها بل عدَّ طلب العلم فريضة عليها كما هو على الرجل ، ونظَّم شؤون الزواج والطلاق وما يتصل بهما ويتفرع عنهما في ضوء قاعدة ﴿ولهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ وقاعدة ﴿إمساك بمعروفٍ أو تسريح بإحسان﴾ .

وتمثلت الممارسة النبوية للسياسة الخارجية :

بارسال الرسل والسفراء الى ملوك عصره ، وكان «أول رسولٍ بعثه رسول الله ـ ص ـ عمرو بن امية الضمري الى النجاشي» ، و«كتب اليه كتابين» ، وقد دعاه في كتابه الأول الى الاسلام ، وكان الكتاب الثاني متعلقاً بالسيدة ام حبيبة التي هاجرت مع زوجها الى الحبشة فتنصَّر هناك ومات[٣٤] .

وكان من جملة ذلك أيضاً :

بَعْثُه دحيةَ بن خليفة الكلبيَّ الى قيصر .

وعبدَالله بن حذافة السهميَّ الى كسرى .

وحاطبَ بن أبي بلتعة اللخميَّ الى المقوقس صاحب الاسكندرية .

وشجاعَ بن وهب الأسدي الى الحارث الغساني حاكم دمشق .

وسليطَ بن عمرو العامري الى هَوْذة الحنفي صاحب اليمامة .

كما بعث بعوثاً وكتباً الى كلٍّ من :

جيفر وعبد ابني الجلندى في عُمَان .

والمنذر بن ساوى العبدي في البحرين .

وجبلة بن الأيهم ملك غسان .

وذي الكلاع وذي عمرو ومن اليهما من تُبَّع .

ومعدي كرب بن أبرهة من أرض خولان .

وربيعة بن ذي مرحب وقبيلته بحضرموت[٣٥] .

---

(٣٤) طبقات ابن سعد : ١/ق ٢/ ١٥ .

(٣٥) يراجع في الرسل والكتب والسفراء : سيرة ابن هشام : ٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥ وتاريخ اليعقوبي : ٢/ ٦١ ـ ٦٦ وطبقات ابن سعد : ١/ق ٢/ ١٦ ـ ٣٨ وتاريخ الطبري : ٢/ ٦٤٤ ـ ٦٥٧ .

واستقبل النبي ـ ص ـ فيمن استقبل من الوفود القادمة من خارج الحجاز : وفد نصارى نجران ؛ «ورئيسُهم أبو حارثة الأُسْقُف ؛ ومعه العاقب والسيِّد وعبدالمسيح وكُوز وقيس والأيهم ، فوردوا على رسول الله ـ ص ـ ، فلما دخلوا أظهروا الدِّيباج والصُّلُبَ ودخلوا بهيئةٍ لم يدخل بها أحد ، فقال رسول الله ـ ص ـ دعوهم . فلقوا رسولَ الله ـ ص ـ فدارسوه يومهم . . . ونزل فيهم : ﴿إنَّ مَثَلَ عيسى عند الله كمَثَل آدم خَلَقَه من تراب ـ الى قوله عزَّ من قائل ـ : فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسَنا وأنفسَكم ، ثم نَبْتَهِلْ فنجعلْ لعنةَ اللهِ على الكاذبين﴾ ، فرضوا بالمباهلة ، فلما أصبحوا قال أبو حارثة : انظروا مَنْ جاء معه ، وغدا رسولُ الله ـ ص ـ آخذاً بيد الحسن والحسين ؛ تتبعه فاطمة ؛ وعلي بن أبي طالب بين يديه . . . فقال أبو حارثة : مَنْ هؤلاء معه ؟ قالوا : هذا ابن عمه وهذه ابنته وهذان ابناها . . . فقال : اني أرى رجلاً جريئاً على المباهلة ؛ واني أخاف أن يكون صادقاً . . . قال أبو حارثة : يا أبا القاسم لانباهلك ولكنّا نعطيك الجزية . فصالحهم رسول الله ـ ص ـ . . . وكتب لهم» كتاباً في ذلك[٣٦] .

★★★

وفي سنة عشرٍ من الهجرة حجَّ النبيُّ ـ ص ـ حجته الكبرى المشهورة التي سمّاها المؤرخون «حجة الوداع» .

«وخطب قبل التروية بيومٍ بعد الظهر» و«يوم عرفة حين زالت الشمس» و«قبل الصلاة من الغد يوم منى» ، وكانت خطباً وافية جامعة ذكَّر فيها النبيُّ ـ ص ـ المسلمين

---

(٣٦) النص من تاريخ اليعقوبي : ٢/٦٦ ـ ٦٧ . ويراجع في إخراج النبي ـ ص ـ علياً وفاطمة والحسن والحسين للمباهلة : تفسير الطبري : ٣/٣٠٠ وتفسير الفخر الرازي : ٨/٨٠ ـ ٨٢ وتفسير ابن كثير : ١/٣٧٠ ـ ٣٧١ . واكتفى الطبري من كل ذلك في تاريخه ٣/١٣٩ بالقول : «قدم وفد العاقب والسيد من نجران فكتب لهما رسول الله ـ ص ـ كتاب الصلح» ولم يذكر الأسماء ، أما ابن كثير في البداية والنهاية : ٥/٥٤ فذكر الحسن والحسين وفاطمة ولم يذكر علياً ، مع أنه المعنيُّ بـ(أنفسنا) في الآية الكريمة .

بأهم تعاليم الاسلام وشرائعه وأحكامه[٣٧] .

وختم خطبه مبلّغاً ومؤكّداً فقال :

«ألا اني انما أُمِرْتُ أن اقاتلَ الناسَ حتى يقولوا : لا إلة الا الله واني رسول الله ، واذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقّ ، وحسابهم على الله» .

«لا ترجعوا بعدي كفاراً مضلّين يملك بعضكم رقاب بعض . اني قد خلّفتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي . ألا هل بلّغتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهدْ» .

«ثم قال : إنكم مسؤولون ، فليبلّغ الشاهدُ منكم الغائبَ»[٣٨] .

وفي أثناء مرجعه من مكة الى المدينة بعد حجة الوداع نزل ـ ص ـ في مكانٍ قريب من الجحفة في موضع يقال له : غدير خم ، فخطب هناك خطبة معروفة ، وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، وقد عُني الحافظ ابن كثير برواية الحديث المتعلق بهذه الخطبة فكفانا مؤونة البحث والتخريج ، قال :

«ونحن نورد عيون الأحاديث في ذلك . . . وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه . . وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر . . . ونحن نورد عيون ما رُوِيَ في ذلك» :

«قال محمد بن اسحاق في سياق حجة الوداع . . . لما أقبل عليٌّ من اليمن ليلقى رسولَ الله (ص) بمكة ، تعجل الى رسول الله واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه ، فعمد ذلك الرجل فكسا كلَّ رجل من القوم حلةً من البزِّ الذي كان مع عليّ ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فاذا عليهم الحلل ، قال : ويلك ما هذا ؟ قال : كسوتُ القوم ليتجملوا به اذا قدموا في الناس ، قال : ويلك انزع قبل أن ينتهى به الى

---

(٣٧) يراجع في حجة الوداع : سيرة ابن هشام : ٤/٢٤٨ ـ ٢٥٣ وطبقات ابن سعد : ٢/ق ١/١٢٤ ـ ١٣٥ وتاريخ الطبري : ٣/١٤٨ ـ ١٥٢ والبداية والنهاية : ٥/١١٠ ـ ٢٠٦ .

(٣٨) تاريخ اليعقوبي : ٢/٩٢ . ويراجع في طرق «حديث الثقلين : كتاب الله وعترتي» : كتاب «حديث الثقلين» الذي نشرته دار التقريب بالقاهرة .

رسول الله ـ ص ـ ، قال : فانتزع الحلل من الناس فردَّها في البز ، قال : وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم . . . فقام رسول الله ـ ص ـ فينا خطيباً . . . يقول : (أيها الناس لا تشكوا عليّاً ، فواللهِ إنه لأخشن في ذات الله ـ أو في سبيل الله ـ من أن يُشْكى) . ورواه الامام أحمد من حديث محمد بن اسحاق وقال : إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله» .

وأخرج الامام أحمد بسنده عن بريدة قال : «غزوتُ مع عليٍّ اليمنَ فرأيتُ منه جفوة ، فلما قدمتُ على رسول الله ـ ص ـ ذكرتُ علياً فتنقَّصتُه ، فرأيتُ وجه رسول الله يتغير فقال : (يا بريدة ؛ ألستُ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ ، قلتُ : بلى يا رسول الله ، قال : مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه) . وكذا رواه النسائي . . . وهذا إسناد جيد قويّ رجاله كلهم ثقات» .

قال الحافظ ابن كثير ـ ومازال الكلام له ـ :

«وقد روى النسائي في سننه . . . عن زيد بن أرقم قال : لما رجع رسول الله ـ ص ـ من حجة الوداع ونزل غدير خم ؛ أمر بدوحاتٍ فقُمِّمن ، ثم قال : (كأني قد دُعيتُ فأجبتُ ، اني قد تركتُ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما ؛ فانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) ، ثم قال : (اللهُ مولاي ، وأنا وليُّ كل مؤمن) ، ثم أخذ بيد عليّ فقال : (مَنْ كنتُ مولاه فهذا وليُّه ، اللهم والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه)» .

«وقال ابن ماجه . . . عن البراء بن عازب قال : أقبلنا مع رسول الله ـ ص ـ في حجة الوداع التي حجَّ ، فنزل في الطريق ، فأمر : الصلاة جامعة ، فأخذ بيد عليّ فقال : (ألستُ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم ؟) قالوا : بلى ، قال : (ألستُ بأوْلى بكل مؤمنٍ من نفسه ؟) قالوا : بلى ، قال : (فهذا وليُّ مَنْ أنا مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه ؛ وعادِ من عاداه)[٣٩] ، وكذا رواه عبدالرزاق عن معمر بسنده .

---

(٣٩) ووردت تتمة لهذا الدعاء في بعض الروايات التي ذكرها ابن كثير ، مثل قوله ـ ص ـ : «وانصر مَنْ نَصَرَه واخذل من خَذَله» وقوله : «وأحِبَّ من أحبَّه وابغضْ من أبغضه» .

ثم قال ابن كثير :

«وقال الحافظ أبو يعلى الموصليُّ والحسن بن سفيان . . . عن البراء قال : كنّا مع رسول الله ـ ص ـ في حجة الوداع ، فلما أتينا على غدير خُمّ كُسح لرسول الله ـ ص ـ تحت شجرتين ، ونودي في الناس : الصلاة جامعة ، ودعا رسولُ الله ـ ص ـ علياً وأخذ بيده فأقامه عن يمينه فقال : (ألستُ أوْلى بكل امرىء من نفسه ؟) قالوا : بلى ، قال : (فان هذا مَوْلى مَنْ أنا مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه) ، فلقيه عمر بن الخطاب فقال : هنيئاً لك ؛ أصبحتَ وأمسيتَ مولى كل مؤمن ومؤمنة» .

وذكر ابن كثير ان هذا الحديث قد رواه ابن جرير الطبري بأسانيد متعددة ، ورواه أحمد بن حنبل والنسائي وشعبة وعبدالله بن أحمد بن حنبل وابو داود والترمذي وابن ماجه بأسانيد متعددة أيضاً[٤٠] .

وقال الحافظ ابن حجر الهيتمي :

إن حديث الغدير «حديث صحيح لا مرية فيه ، وقد أخرجه جماعة . . . وطرقه كثيرة جداً . . . ولا التفات لمن قدح في صحته ؛ ولا لمن ردَّه بأن علياً كان باليمن ، لثبوت رجوعه منها وإدراكه الحجَّ مع النبي ـ ص ـ . وقولُ بعضهم : ان زيادة اللهم والِ مَنْ والاه الخ موضوعةٌ ؛ مردودٌ ، فقد ورد ذلك من طرق صحَّح الذهبيُّ كثيراً منها[٤١]» .

ثم قال هذا الحافظ مضيفاً الى ما تقدَّم :

«ولفظه عند الطبراني وغيره بسندٍ صحيح : أنه ـ ص ـ خطب بغدير خم تحت شجرات فقال :

«أيها الناس ؛ انه قد نبَّأني اللطيف الخبير أنه لم يعمّر نبيٌّ الاّ نصف عمر الذي يليه من قبله ، واني لأظن أني يوشك أن أُدعى فأُجيب ، واني مسؤول وانكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟» .

---

(٤٠) يراجع تفصيل ما رويناه عن ابن كثير في حديث الغدير : البداية والنهاية : ٥/٢٠٨ ـ ٢١٣ .
(٤١) الصواعق المحرقة:٢٥ .

«قالوا : نشهد أنك قد بلَّغتَ وجهدتَ ونصحتَ فجزاك اللهُ خيراً» .

«فقال : أليس تشهدون أنْ لا اله الا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ وأن جنَّته حقٌّ ؛ وأن ناره حق ؛ وأن الموت حق ؛ وأن البعث حق بعد الموت ؛ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ؛ وأن الله يبعث مَنْ في القبور ؟» .

«قالوا : بلى نشهد بذلك . قال : اللهم اشهدْ . ثم قال :

«يا أيها الناس ؛ إنَّ الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أوْلى بهم من أنفسهم ، فمن كنتُ مولاه فهذا مولاه ـ يعني علياً ـ . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه» .

«ثم قال : يا أيها الناس ؛ إني فرطكم ؛ وانكم واردون عليَّ الحوضَ . . . وإني سائلكم حين تردون عليَّ عن الثَّقَلَيْنِ فانظروا كيف تخلفوني فيهما : الثقل الأكبر كتاب الله عز وجل ـ سببٌ طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم ، فاستمسكوا به لاتضلوا ولاتبدلوا ـ وعترتي أهل بيتي ، فانه قد نبَّأني اللطيف الخبير انهما لن ينقضيا حتى يردا عليَّ الحوض»[٤٢] .

★★★

وبعودة النبي ـ ص ـ الى المدينة من حجة الوداع ؛ نصل الى ختام الحديث عن الهجرة الشريفة وما ترتَّب عليها من بناء الدولة وقيام حكومة السماء في الأرض ؛ ومن سلسلة الانجازات الكبرى والأحداث الضخمة التي شهدتها تلك السنون العشر الزواهر ، وقد أتينا فيما سلف عرضه على بيان الأهم الأهم من كل ذلك مع مراعاة الايجاز والاختصار فيه . أما معارك الاسلام وحروب الدفاع عن المقدسات التي قادها النبي ـ ص ـ وشارك فيها بنفسه ؛ وأشرف على إدارتها بعبقريته الفذة المدعومة بتسديد الله وتأييده ونصره ؛ فقد أفردنا لها فصلاً خاصاً بها في آخر هذا الكتاب .

---

(٤٢) الصواعق المحرقة : ٢٥ .

فاجِعَةُ
المَرَضِ والوَفَاة

قدم رسولُ الله ـ ص ـ المدينة قافلاً من حجة الوداع ، ودخل العامُ الحادي عشر من الهجرة ، وبعد أن أقام والمسلمون أياماً للراحة من وعثاء السفر «عقد لأسامة ابن زيد بن حارثة على جلّة المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يقصد حيث قُتِل أبوه من أرض الشام . . . وكان في الجيش أبو بكر وعمر . وتكلّم قومٌ وقالوا : حَدَثُ السنِّ وابن سبع عشرة سنة»[1] وقد «أمَّرَ غلاماً حَدَثاً على جلّة المهاجرين والانصار»[2] .

واستبطأ رسولُ الله ـ ص ـ الناسَ في خروجهم مع اسامة ، فصعد المنبر «فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل ، ثم قال : أيها الناس ؛ أنفِذوا بَعْثَ اسامة ، فلعمري لئن قلتم في امارته لقد قلتم في امارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للامارة ، وان كان أبوه لخليقاً لها»[3] .

ولقد كان هذا الإبطاء ظاهرة جديدة لم يجرؤ اولئك المنافقون المتمشدقون بالاسلام على المجاهرة بها قبل اليوم ، لما يتجلّى فيها من عناد صريح وتمرد صارخ على أمر رسول الله ـ ص ـ وحكمه ، والله تعالى يقول : ﴿ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾ ، ﴿ومن يعصِ اللهَ ورسوله ويتعدَّ حدوده يُدْخِلْه ناراً خالداً فيها﴾ . وقد أثّر تقاعسُ هؤلاء تأثيراً بالغاً في نفس النبي ـ ص ـ حتى أنه لم يجد مناصاً من أن يعلن على رؤوس الأشهاد : «جهِّزوا جيش أُسامة ـ أو : أنفذوا بعث اسامة ـ ، لعن اللهُ من تخلّف عنه»[4] .

ويبدو أن منشأ هذا التمرد على الأمر النبوي يعود الى إحساس اولئك المتقاعسين بأن النبي ـ ص ـ مريض ؛ وان مرضه ربما كان مميتاً ، وخصوصاً بعد قوله ـ ص ـ في حجة الوداع وفي غدير خم : «يوشك أن أُدعى فأُجيب» .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢/٩٣ وطبقات ابن سعد : ٢/ق٢/٤١ .
(٢) سيرة ابن هشام : ٤/٢٩٩ .
(٣) سيرة ابن هشام : ٤/٢٩٩ ـ ٣٠٠ وطبقات ابن سعد : ٢/ق٢/٤١ .
(٤) الملل والنحل : ١/٢٠ وشرح نهج البلاغة : ٦/٥٢ .

ويقول ابن اسحاق إلحاقاً بصعود النبي ـ ص ـ المنبر وتأكيده على إنفاذ جيش اسامة ولعنه المتخلِّفين عنه :

«ثم نزل رسول الله ـ ص ـ ، وانكمش الناسُ [أي أسرعوا] في جهازهم ، واستعزَّ برسول الله ـ ص ـ وجعُه ، فخرج اسامة وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجُرْفَ ـ من المدينة على فرسخ ـ فضرب به عسكره . . . فأقام اسامة والناس لينظروا ما اللهُ قاضٍ في رسول الله ـ ص»[٥] .

وروى المحدِّثون والمؤرخون ان النبي ـ ص ـ قال يوماً في مرضه هذا لمن كان قد حضره من أصحابه : «هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ، فقال عمر : ان رسول الله ـ ص ـ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله» ، فاختلف الحضور واختصموا ، «فمنهم من يقول : قرِّبوا يكتب لكم رسول الله ـ ص ـ ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما كثرا للغط والاختلاف وغَمُّوا رسولَ الله ـ ص ـ قال : قوموا عني»[٦] .

وكانت جملة «غلبه الوجع» هي العبارة الملطَّفة التي اختارها الرواة بدلاً من النصِّ الأصليّ : «ان رسول الله ـ ص ـ يهجر»[٧] .

وكان ابن عباس ـ كما جاء في الروايات ـ يبكي عندما يذكر ذلك اليوم ويقول : «يوم الخميس وما يوم الخميس» ، «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ـ ص ـ وبين كتابه»[٨] .

وقال القاضي عياض معلِّقاً وشارحاً حدث يوم الخميس :

---

(٥) سيرة ابن هشام : ٤/ ٣٠٠ .

(٦) طبقات ابن سعد : ٢/ق٢/ ٣٧ .

(٧) صحيح مسلم : ٥/ ٧٦ ومسند أحمد : ١/ ٣٥٥ وطبقات ابن سعد : ٢/ ق٢/ ٣٦ و٣٧ .
ويراجع في هذا الخبر ـ بلفظَيْه ـ : صحيح البخاري : ١/ ٣٩ و٦/ ١١ ـ ١٢ و٩/ ١٣٧ وصحيح مسلم : ٥/ ٧٥ و٧٦ ومسند أحمد : ١/ ٢٢٢ و٣٢٤ ـ ٣٢٥ و٣٣٦ و٣٥٥ ودلائل النبوة : ٧/ ١٨١ و١٨٣ وشرح نهج البلاغة : ١٣/ ٣١ ولسان العرب (هجر) ونهاية الأرب : ١٨/ ٣٧٣ .

(٨) صحيح البخاري : ١/ ٣٩ وصحيح مسلم : ٥/ ٧٥ وطبقات ابن سعد : ٢/ق٢/ ٣٦ و٣٧ .

«النبي ـ ص ـ غير معصوم من الأمراض وما يكون من عوارضها من شدة وجعٍ وغَشْيٍ ونحوه مما يطرأ على جسمه ، معصوم أن يكون منه من القول أثناء ذلك ما يطعن في معجزته ويؤدي الى فسادٍ في شريعته ؛ من هذيان أو اختلال في كلام ، وعلى هذا لا يصح ظاهرُ روايةِ مَنْ روى في الحديث : «هَجَرَ» إذ معناه هذى» .

ثم قال بعد كلام طويل مدافعاً ومخرِّجاً :

«يكون امتناع عمر إمّا إشفاقاً على النبي ـ ص ـ من تكليفه في تلك الحال إملاءَ الكتاب وأن يدخل عليه مشقة من ذلك» ، «وقيل : خشي عمر أن يكتب اموراً يعجزون عنها فيحصلون [أي يقعون] في الحرج بالمخالفة»[9] .

ولا اريد أن اعقب بشيء على كلام القاضي المذكور ، وانما أترك ذلك للقارىء الحصيف .

وروى الطبري عن عبدالله بن مسعود أن النبي ـ ص ـ نعي نفسَه يوما وعنده جمع من أصحابه ، فبادروه بأسئلتهم : متى أجَلُك ؟ ومَنْ يغسِّلك؟ وفيم نكفِّنك ؟ ومَنْ يصلّي عليك ؟ ومن يُدخِلك قبرك ؟ فأجابهم على كل ذلك كما تقول الرواية[10] بالتفصيل .

وقد أورد ابن أبي الحديد هذه الرواية أيضاً ثم علّق عليها فقال :

«قلتُ : العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك الساعة : فمن يلي امورنا بعدك ؟ ، لأن ولاية الأمر أهمُّ من السؤال عن الدفن وعن كيفية الصلاة عليه . وما أعلم ما أقول في هذا المقام !»[11] .

أقول :

لا وجه لعجب الرجل واستغرابه ، بعد أن كانت مسألة ولاية الأمر بعده معلومةً لديهم علم اليقين ، ولذلك لم يجدوا في هذه المناسبة ما يقتضي السؤال منه عن ذلك ، كيف ولم يفصلهم عن آخر نصٍّ عليها وعلى تعيين القائم بها في غدير خم أكثر من أسابيع معدودات .

★

---

(٩) ورد كلام القاضي بتفصيله في نهاية الأرب : ١٨ / ٣٧٥ ـ ٣٧٧ .

(١٠) ورد نص الرواية في تاريخ الطبري : ٣/ ١٩١ ـ ١٩٢ .

(١١) شرح نهج البلاغة : ١٣ / ٣٠ .

وكان المرض يشتد برسول الله ـ ص ـ يوماً بعد يوم ، وقيل : ان مدة مرضه الى وفاته كانت أربعة عشر يوماً[١٢] ، وقال ابن اسحاق : «ابْتُدىء رسولُ الله ـ ص ـ بشكوه الذي قبضه الله فيه . . . في ليالٍ بقين من صفر»[١٣] .

وسرعان ما نزلت النازلة وحلَّت الفاجعة ، واختُرم رسولُ الله ـ ص ـ في اجماع الروايات حين زاغت الشمس واشتد الضحاء من يوم الاثنين[١٤] ، ولكن الروايات لم تتفق على تعيين يوم الوفاة وشهرها :

فقيل : لليلتين بقيتا من صفر[١٥] .

وقيل : في أول يوم من شهر ربيع الأول[١٦] .

وقيل : لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول[١٧] .

وقيل : لعشرٍ خلون منه[١٨]

وقيل : لاثنتي عشرة ليلة خلت منه[١٩] .

وكنتُ ـ عندما وقفتُ على هذه الأقوال ـ متوقِّفاً من قبول القولين الأول والأخير ؛ حتى وقفتُ على تحقيق أبي القاسم السهيلي شارح السيرة في ذلك ، فأكَّد عندي التوقف فيهما ، قال :

«لا يصح أن يكون توفي ـ ص ـ الاّ في الثاني من الشهر أو الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر ، لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة في حجة الوداع كانت يوم

---

(١٢) تاريخ اليعقوبي : ٢/٩٣ .

(١٣) سيرة ابن هشام : ٤/٢٩١ .

(١٤) جميع المصادر الآتي ذكرها في تعيين يوم الوفاة .

(١٥) تهذيب الطوسي : ٦/٢ .

(١٦) دلائل النبوة : ٧/٢٠١ و٢٣٤ والاستيعاب : ١/١٣ و٢٠ والبداية والنهاية : ٥/٢٥٥ .

(١٧) تاريخ اليعقوبي : ٢/٩٣ وطبقات ابن سعد : ٢/ق٢/٥٧ وتاريخ الطبري : ٣/٢٠٠ ودلائل النبوة : ٧/٢٣٤ و٢٣٥ وشرح نهج البلاغة : ١٣/٣٥ والبداية والنهاية : ٥/٢٥٥ .

(١٨) البداية والنهاية : ٥/٢٥٦ .

(١٩) طبقات ابن سعد : ٢/ق٢/٥٨ وتاريخ الطبري : ٣/٢٠٠ والاستيعاب : ١/١٣ و٢٠ ودلائل النبوة : ٧/٢٣٥ والمناقب : ١/١٢٢ وشرح نهج البلاغة : ١٣/١٣٥ والبداية والنهاية : ٥/٢٥٥ .

الجمعة ـ وهو التاسع من ذي الحجة ـ ، فدخل ذو الحجة يوم الخميس ، فكان المحرم إمّا الجمعة أو السبت ، فإن كان الجمعة فقد كان صفر إما السبت واما الأحد ، فإن كان السبت فقد كان ربيع الأحد أو الاثنين ، وكيفما دارت الحال على هذا الحساب فلم يكن الثاني عشر من ربيعٍ يوم الاثنين بوجهٍ . . . وذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنف انه توفي الثاني من ربيع الأول ، وهذا القول وإن كان خلاف أهل الجمهور فانه لا يبعد إنْ كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلها من تسعة وعشرين . . . وقد رأيتُ للخوارزمي أنه توفي ـ ع ـ في أول يوم من ربيع الأول ، وهذا أقرب في القياس مما ذكر الطبري»[٢٠] .

واذا صحَّ أن تكون الوفاة قد حدثت في صفر كما جاء في القول الأول ؛ فلعلها كانت ـ في ضوء تحقيق السهيلي المتقدم ـ في التاسع والعشرين من صفر لا الثامن والعشرين منه .

وعلى كل حال ؛ فقد وقعت الواقعة ؛ ودهت المصيبة ؛ ومات رسول الله ـ ص ـ، فأصبح المسلمون من وقع النبأ وألم المصاب في أشد حالٍ وأسوئه ، وكأنهم من عمق الاحساس بهذا الخطب الجلل سكارى وما هم بسكارى ، يلفهم الذهول ؛ وتخيِّم عليهم الحيرة ؛ ويسيطر عليهم الخوف من شرور العواقب وفتن المستقبل وسوء المنقلب .

وسرعان ما قام فيهم عمر بن الخطاب ـ وهم على تلك الحالة من الوجوم والقلق والاضطراب ـ فصاح فيهم منذراً ومتوعِّداً ؛ وقال :

«ان رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله ـ ص ـ قد توفي . وان رسول الله ـ ص ـ والله ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع اليهم بعد أن قيل قد مات . ووالله ليرجعنَّ رسولُ الله ـ ص ـ كما رجع موسى فليقطعنَّ أيديَ رجالٍ وأرجلَهم زعموا أن رسول الله ـ ص ـ مات»[٢١] .

---

(٢٠) الروض الأُنُف : ٤/ ٢٧٠ .

(٢١) سيرة ابن هشام : ٤/ ٣٠٥ .

ووقعت هذه الكلمات على أسماع المسلمين الحيارى المذهولين وقع الصاعقة ، ولم يكن لديهم في مثل تلك الساعة مجال لتحكيم العقل والتأمل فيما يسمعون ، بل لم يدر في خلد أحدٍ منهم حينذاك أن يتساءل عن أسباب قطع أيديهم وأرجلهم اذا ما رجع النبي ـ ص ـ من غيبته ـ كما يقول عمر ـ ، وهم لم يرتكبوا ذنباً ولم يفعلوا شيئاً سوى اعلان موت نبيهم اعتماداً على إخبار من كان عنده من أهل بيته بذلك .

وما هي الاسويعات حتى أقبل أبو بكر ـ وكان قد ترك النبيَّ مريضاً وخرج الى منزله بالسنح خارج المدينة عند امرأته حبيبة بنت خارجة بن أبي زهير[٢٢] ـ ، فسمع النبأ ورأى حال المسلمين وبلغه ما قال عمر في ذلك ، فوقف خطيباً في الناس فقال :

«أيها الناس ، انه من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لا يموت ، ثم تلا هذه الآية : ﴿وما محمد الاّ رسول ـ الى آخر الآية ـ﴾ .

«قال أبو هريرة : قال عمر : واللهِ ما هو الا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فعَقِرْتُ [أي دهشت] حتى وقعتُ الى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفتُ ان رسول الله ـ ص ـ قد مات»[٢٣] .

ولستُ هنا بصدد التعليق على قولة عمر وجواب أبي بكر ، مع أن للتعليق على ذلك مجالاً واسعاً جداً ، ويقيني أن أبا حفص كان أذكى من أن يشك بموت النبي ـ ص ـ ، وهو القائل قبل أيام بأنه قد غلبه الوجع ، ولكن الموقف كان يفرض عليه أن يطلق هذه المتفجِّرة الملهاة مادام صاحبه غائباً ، ثم يقوم أبو بكر ـ عندما يعود ـ بابطال مفعولها وإزالة أصدائها من النفوس والمشاعر .

وتُرك جثمانُ رسول الله ـ ص ـ مسجّى في بيته ثلاثاً ؛ لاشتغال القوم عنه بأمر لبيعة[٢٤] . ثم جاء أبو بكر بعد ثلاث ـ وهو خليفة ـ فكشف عن وجهه وقبَّل بين عينيه ثم قال : بأبي أنت وامي ؛ طبتَ حيّاً وطبتَ ميتاً[٢٥] .

---

(٢٢) دلائل النبوة : ٧/ ٢٠٠ .

(٢٣) سيرة ابن هشام : ٤/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦

(٢٤) سيرة ابن هشام : ٤/ ٣١٢ وتاريخ الطبري : ٣/ ٢١١ وشرح نهج البلاغة : ١٣/ ٣٥ .

(٢٥) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٠١ وشرح نهج البلاغة : ١٣/ ٣٥ ـ ٣٦ .

وجاء في رواية ابن كثير : «ان رسول الله ـ ص ـ توفي يوم الاثنين وذلك ضحىً ، فاشتغل الناس ببيعة أبي بكر . . . بقية يوم الاثنين وصبيحة الثلاثاء . . . ودفنوه ليلة الأربعاء»[٢٦] .

وقد رفض ابنُ أبي الحديد المعتزلي قبولَ قولِ من قال : «ان أبا بكر أقبل . . . من مسكنه بالسنح . . . فدخل المسجد . . . ودخل على عائشة ، فتيمَّم رسولَ الله ـ ص ـ وهو مُغَشّى ببرد حبرة . . . وقال : بأبي أنت وأُمي يارسول الله . . أمّا الموتة التي كُتبت عليك فقدمتَّها . . .»[٢٧] أو ما كان بهذا المضمون ، وقال معلّقاً على ذلك :

«والصحيح ان دخول أبي بكر اليه وكشفَه عن وجهه وقولَه ما قال إنما كان بعد الفراغ من البيعة ، وانهم كانوا مشتغلين بها»[٢٨] .

★★★

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل فيغنينا عن كثير من البيان والتعليق والتفصيل ؛ أن نقتبس من بحث الكاتب الاردني المعاصر أحمد حسين يعقوب المحامي فِقَراً مما تحدَّث به عن الاحداث الثلاثة الكبرى التي حلَّت بالمسلمين أيام مرض النبي ـ ص ـ ووفاته ؛ فكان لها ما كان من الآثار العميقة الواسعة والنتائج البعيدة المدى على امتداد العصور . قال :

«هنالك ثلاثة عوامل ؛ أو إن شئتَ فقل ثلاثة أحداث هزَّت النظام السياسي الاسلامي هزاً عنيفاً .

«الحدث الأول : يوم الرزية ـ كما يسميه ابن عباس ـ ؛ يوم مُنِع الرسول من كتابة كتابه . . . وباختصار شديد : حالوا بين الرسول ـ ص ـ وبين كتابة كتابه الذي يؤمِّن فيه الامةَ ضد الضلالة ، وواجهوه بهذه الكلمة الجارحة : بأن الرسول قد هجر» .

---

(٢٦) البداية والنهاية : ٦/٣٠١ .

(٢٧) دلائل النبوة : ٧/٢١٥ .

(٢٨) شرح نهج البلاغة : ١٣/٣٧ .

«وتعتبر هذه الحادثة . . . أول طريق من طرق الانحراف عن هذا النظام ، وهي حادثة لايمكن الاعتذار منها . وكيف نوفّق بين منع الرسول ـ ص ـ من كتابة وصيته بحجة أن المرض قد اشتدَّ به ، وبين السماح لأبي بكر بكتابة وصيته مع أن المرض قد اشتد به أكثر من اشتداد المرض برسول الله ـ ص ـ . . . » .

«ونفس الحال مع عمر . . . وبالرغم من هذا الوجع الشديد الذي كان يعانيه فقد أوصى بوصيته ورتّب أمر الشورى واطمأن أن عثمان خليفته . . . ونُفِّذت بدقةٍ وصيته . . . بالرغم من اشتداد الوجع به . . . » .

«الحدث الثاني : مواجهة العترة الطاهرة وعزلها وإلغاء دورها ومحاولة تفتيتها . . . وبالرغم من تلك النصوص الصريحة [وقد أوردها الباحث] فقد بذلوا المستحيل لإبعاد أهل البيت . . . وجرت تلك الفظائع . . . » .

الحدث الثالث : الفلتة .

وبعد أن شرح الكاتب بيعة السقيفة وطريقة البيعة قال : «هكذا تمت . . . في غياب كلِّ قريش ، إذ لم يحضر الاجتماع من قريش الا أبو بكر ـ وهو من بني تيم ـ وعمر ـ وهو من بني عَديّ ـ وأبو عبيدة ـ وهو من بني الحارث ـ، وهذه البطون الثلاثة ليست من عشيرة الرسول الأقربين» .

«وتمت بيعة أبي بكر في غياب المهاجرين كلهم، فلم يحضر من المهاجرين أحد سوى الثلاثة . . . وفي غياب العترة الطاهرة وهي ناصية قريش بنصِّ الشرع . . . ولعمري لقد تركت تلك الفلتةُ آثارَها على التاريخ الاسلامي كلِّه ؛ والنظام السياسي الاسلامي أيضاً»[٢٩] .

وصدق ربُّ العزَّة إذ قال وهو أصدق القائلين :

﴿وما محمدٌ الاّ رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسلُ ، أفإنْ ماتَ أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم ، ومَنْ ينقلبْ على عَقِبَيْه فلن يضرَّ اللهَ شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين﴾ .

---

(٢٩) النظام السياسي في الاسلام : ١١٨ ـ ١٢٩ .

المَعَارِكُ الكُبْرَى
فِي
العَهْدِ النَّبَوِيِّ

مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ

أدركت جماعة المشركين في مكة وفي مقدمتهم قريش أن محمداً ـ ص ـ بهجرته الى المدينة واستقراره فيها ؛ قد أفلت من قبضتهم ؛ وخرج عن دائرة سيطرتهم وبطشهم ، بل أصبح بامكانه أن يضع قواعد دولته ؛ ويقيم دعائم سلطته ؛ وينشيء النظام الأمثل للحياة السعيدة التي يحكمها شرع الله الخالد ؛ ويحدِّد معالمَ طريقها القرآنُ الكريم ، بلا خوفٍ من أذى طواغيتهم ؛ وبدون حذر من شرور أنذالهم وسفلتهم .

ولما كان الاسلام في الأصل الأول من اصول نظامه الدفاعي داعياً الى السلم والموادعة وعدم الاعتداء على الآخرين ، لم يكن لدى المشركين في حقيقة الأمر ما يخشونه من دولة محمد ، ولكن حقدهم على هذا الدين وضغنهم على نبيه الأمين وقد فاق جميع ما عرفته الجاهلية من الأحقاد القبلية والضغائن العشائرية ؛ كان يغلي في صدورهم غليان المرجل ؛ فلم يترك لهم مجالاً لاستقرار أو شعوراً باطمئنان .

وكان ردُّ الفعل الأول لهؤلاء الكفرة على نجاة النبي ـ ص ـ من مؤامرتهم الدنيئة ؛ وهجرته الى أرض اخرى لا تخضعُ لسلطانهم ، مطاردة من بقي بين ظهرانيهم من المسلمين المستضعفين ؛ ومصادرة أموال من كان له مالٌ بمكة من المهاجرين .

ولما علم النبي ـ ص ـ بأفاعيل قريش ضد اولئك المسلمين ؛ وضدّ الأموال والمخلَّفات هناك ، رأى أن الحرب آتية لا محالة ، وان عليه أن يتهيأ للصدام مع قريش إن سنحت الفرصة وواتت الظروف ، ليذيق اولئك الطغاة جزاء فعلهم ، ويكيل لهم بالمثل سوء صنيعهم ، ويعوِّض المسلمين عما اغْتُصِب من أموالهم وانْتُهِب من أملاكهم .

وتمثلت الخطوة أو التجربة الاولى لذلك في وقوع بعض المصادمات والمناوشات بين الطرفين ، «فقُتِلتْ قتلى . . . وأُسِرت اسارى من قريش فيهم بعض بني المغيرة

وفيهم ابن كيسان مولاهم . . . وكانت تلك الوقعة . . . أوَّلَ ما أصاب به بعضهم بعضاً من الحرب ، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه الى الشام»[1] .

ولما انطلقت قوافل التجارة القرشية في ذلك العام كالمعتاد ؛ محمَّلة بالأموال الطائلة والأمتعة الثمينة من الشام الى مكة ؛ وعلى رأسها كبير الحاقدين على الاسلام أبو سفيان بن حرب الاموي ، وبلغ سمعَ النبي ـ ص ـ نبأُ هذه المسيرة التجارية الحافلة ؛ بادر الى ندب المسلمين للانقضاض عليها وقال : «هذه عِيْرُ قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا اليها لعل الله يُنفِلكموها» .

فانتدب الناسُ ، فخفَّ بعضُهم ، وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ـ ص ـ يلقى حرباً .

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز ، يتحسَّس الأخبار ؛ ويسأل مَنْ لَقِيَ من الرُّكبان حذراً وتخوُّفاً ، حتى أصاب خبراً من بعضهم أن محمداً قد استنفر أصحابَه لكَ ولعِيرك . فخشي المفاجأة عند ذلك ، واستأجر رسولاً يصل الى مكة فيُعلِم قريشاً بالأمر ويحثهم على الخروج لحماية أموالهم .

ووصل مبعوث أبي سفيان الى مكة فصرخ ـ وهو ببطن الوادي ـ واقفاً على بعيره : اللَّطيمة اللَّطيمة ؛ أموالكم مع أبي سفيان قد عَرَض لها محمد في أصحابه ، لا ارى أن تدركوها ، الغوثَ الغوث .

وتجهَّز الناسُ سراعاً ؛ فكانوا بين رجلَيْنْ : إما خارجٍ ؛ وامّا باعثٍ مكانه رجلاً ، وأوعبت قريش فلم يتخلَّف من أشرافها أحدٌ ، الا أن أبا لهب بن عبدالمطلب تخلَّف وبعث مكانه العاصيَ بن هشام بن المغيرة .

وأراد اميةُ بن خلف التخلُّف أيضاً ، فأتاه عقبة بن أبي معيط ـ وهو جالس في المسجد بين ظهرانَيْ قومه ـ بمجمرةٍ يحملها ؛ فيها نار وعُودٌ يُتبَخَّر به ؛ حتى وضعها بين يديه ، ثم قال له : يا أبا عليّ استجمِرْ فانما أنت من النساء ، قال : قبحك اللهُ وقبح ما جئتَ به . ثم تجهز فخرج مع الناس .

وخرجت قريش بقضها وقضيضها لانقاذ الأموال ونجدة أبي سفيان .

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٤٢١ .

وكان خروج رسول الله ـ ص ـ من المدينة في ليالٍ مضت من شهر رمضان ـ قيل : هي ثمانٍ ، وقيل غير ذلك ـ في ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً ، كان المهاجرون منهم ثلاثة وثمانين رجلاً ، وسائرهم من الأنصار منهم واحد وستون رجلاً من الأوس ومائة وسبعون رجلاً من الخزرج . «وضرب ـ ص ـ عسكره ببئر أبي عِنَبَة وهي على ميلٍ من المدينة ، فعرض أصحابه ، وردَّ من استصغر منهم» .

وتسلَّم اللواءَ مُصْعَب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان أمام رسول الله ـ ص ـ رايتان أُخريانِ : إحداهما مع علي بن أبي طالب ـ ويقال لها العُقَاب ـ ، والاخرى مع بعض الأنصار وهو سعد بن معاذ . أي : ان اللواء الأعظم كان مع مصعب ؛ وراية المهاجرين مع عليّ ؛ وراية الأنصار مع سعد .

وكان مع النبي ـ ص ـ في هذه المعركة ؛ من الخيل ثلاثة ؛ ومن الابل سبعون يتعاقب على كل بعيرٍ منها راكبان أو ثلاثة .

وسلك النبي ـ ص ـ الطريق المتَّجه الى مكة ، حتى اذا كان بالمُنصَرَف تَرَكَ طريقَ مكة بيَسَارٍ ؛ وسلك ذات اليمين يريد بَدْراً .

وعندما وصل قريباً من الصفراء بعث رجلَيْنْ الى بدر يتحسَّسان له الأخبار عن أبي سفيان وقومه . ثم ترك الصفراءَ بيَسارٍ أيضاً وسلك ذات اليمين .

ثم نزل فأتاه الخبر هناك عن قريش بمسيرهم من مكة ليمنعوا عِيرَهم ، فعلم النبي ـ ص ـ أنها الحرب مع قريش كلِّها ومن يحالفها من القبائل ، فعزم على جمع أصحابه ليستشيرهم في الأمر .

واجتمع القوم ، وعرض النبي ـ ص ـ المسألة ، وطلب أن يشيروا عليه ، فأعلن عددٌ من المهاجرين الحاضرين استعدادهم للبذل والفداء والنصرة ، وكان أبلغ الجميع المقداد بن عمرو الكندي إذ قال :

يا رسول الله ؛ امْضِ لما أراك الله فنحن معك ، واللهِ لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : ﴿اذْهَبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنّا ها هنا قاعدون﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتِلا إنّا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق ؛ لو سِرْتَ بنا الى بَرْكِ الغِماد [وهو مكان ناءٍ من أرض اليمن] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له رسول الله ـ ص ـ خيراً ، ودعا له به .

ثم طلب النبي ـ ص ـ المشورة من الحاضرين مرة اخرى ، وكان يريد أن يعرف رأيَ الأنصار لأنهم لمّا بايعوه قالوا له : اذا وصلتَ الينا فأنت في ذمّتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله ـ ص ـ يتخوَّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نَصْرَه الاّ ممن دهمه بالمدينة ، وأن ليس له أن يسير بهم الى عدوٍّ خارج بلدهم .

فلمّا كرَّر رسولُ الله ـ ص ـ طلب المشورة ؛ أدرك سعد بن معاذ هدف النبي ومراده بذلك ، فقال :

واللهِ لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ .

قال : أجل .

قال سعد : فقد آمنّا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا ؛ على السمع والطاعة ، فامضِ يا رسول الله لِمَا أردتَ فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخُضْتَه لخُضْناه معك ما تخلَّف منّا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً . إنّا لَصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ في اللقاء ، لعلَّ اللهَ يريك منّا ما تقرُّ به عينك . فسِرْ بنا على بركة الله .

فسُرَّ رسول الله ـ ص ـ بقول سعدٍ ، ونَشَّطه ذلك . ثم قال : «سيروا وأبْشِروا ، فان الله تعالى قد وعدني احدى الطائفتين ، واللهِ لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم» .

ثم ارتحل رسول الله ـ ص ـ حتى نزل قريباً من بدر . فركب هو وبعض أصحابه يستطلع الأمر بنفسه ، ثم بعث لمّا أمسى نفراً من أصحابه يلتمسون له خبر قريش ؛ فأصابوا إبلاً لهم يستقون عليها الماء ومعها غلامان ، فأتوا بهما ، واستجوبوهما ، فأخبرا بأن قريشاً وراء هذا الكثيب الذي يُرى بالعُدْوة القصوى .

فقال لهما رسولُ الله ـ ص ـ : «كم القوم» ؟ .

قالا : كثير .

قال : «ما عِدَّتهم» ؟

قالا : لا ندري .

قال : «كم ينحرون كلَّ يوم» ؟ .

قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً .

فقال رسولُ الله ـ ص ـ : «القومُ فيما بين التسعمائة والألف» .

ثم قال لهما : «فمَنْ فيهم من أشراف قريش» ؟ .

قالا : عُتْبة بن ربيعة ، وشَيْبة بن ربيعة ، وأبو البختريّ بن هشام ، وحكيم ابن حِزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطُعَيْمة بن عَدِيّ بن نوفل ، والنَّضْر بن الحارث ، وزَمَعَة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأُميَّة بن خلف ، ونُبَيْه ومنبه ابنا الحجّاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبدودّ .

فأقبل رسول الله ـ ص ـ على الناس فقال : «هذه مكة قد ألْقَتْ اليكم أفلاذَ أكبادها» .

ولمّا علم أبو سفيان بتوجُّه النبي ـ ص ـ وأصحابه للقائه ؛ أخذ بعيره طريق الساحل بعيداً عن الجهة التي يسير فيها المسلمون ، فنجا هو وموكبه التجاري الضخم من الضربة الكبرى ، وبعث الى قريش من يخبرهم بنجاة القافلة وسلامتها ؛ وطلب منهم العودة الى مكة . فقال أبو جهل بن هشام : لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كلَّ عام ـ فنُقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجُزُرَ ، ونُطْعَم الطعام ، ونُسْقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العربُ وبمسيرنا وجَمْعِنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

وقال الأخنسُ بن شَريق لبني زُهْرَة : يا بني زُهْرة ؛ قد نَجّى الله لكم أموالكم ، وخلّص لكم صاحبكم مَخْرَمة بن نوفل ـ وكان في القافلة ـ ، وانما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بي جُبْنَها وارجعوا ، فانه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير منفعة . لا ما يقول هذا ؛ يعني أبا جهل . فرجعوا ولم يبق زُهريٌّ واحد .

وسارت قريش حتى نزلوا بالعُدوة القصوى من الوادي ، وكانت آبار الماء في العُدْوة الدنيا من بطن الوادي باتجاه المدينة .

وسار النبي ـ ص ـ بمشورة الحُبَاب بن المُنْذر بن الجَموح ، حتى اذا أتى أدنى ماءٍ من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالآبار الاخرى فأُفْسِد أمرُها ، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فمُلِىءَ ماءً .

وجاء سعد بن معاذ الى النبي ـ ص ـ فقال له : يا نبيَّ الله ؛ ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونُعِدُّ عندك ركائبَك ، ثم نلقى عدوَّنا ، فانْ أعزَّنا اللهُ وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحْبَبْنا ، وان كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقتَ بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلَّف عنك أقوام يا نبيَّ الله ما نحن بأشدَّ لك حُبّاً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك . يمنعك اللهُ بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله ـ ص ـ خيراً ، ودعا له بخير .

ثم بُني لرسول الله ـ ص ـ عريش ، فكان فيه .

وأقبلت قريش نحو جيش المسلمين ، فلمّا رآهم النبي ـ ص ـ قال :

«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تُحادُّك وتكذب رسولك . اللهم فنَصْرَك الذي وعدتَني . اللهم أحِنْهم [أي اهْلِكْهم] الغَدَاة» .

وأقبل نفر من قريش يريدون أن يردوا حوض المسلمين . فقال رسول الله ـ ص ـ : «دعوهم» ، فوردوا .

ولمّا استقرت قريش في مواضعها بعثوا مَنْ يحدس لهم عدد أصحاب محمد ، فاستجال رسولُهم بفرسه حول العسكر وضَرَب في الوادي هنا وهناك ، فأخبر بأنهم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، وليس لهم كمينٌ أو مَدَد ، ثم قال : قد رأيتُ ـ يا معشر قريش ـ البلايا تحمل المنايا ؛ نواضحَ يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ الاّ سيوفهم ، واللهِ ما أرى أن يُقْتَل رجلٌ منهم حتى يَقْتُل رجلاً منكم ، فإذ أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك ، فرَوْا رأيكم .

فلمّا سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس ؛ وأتى عُتبةَ بن ربيعة فأقنعه بالعودة والرجوع بالناس الى مكة ، فوافق على ذلك وأعلن رأيَه على الملإ صريحاً واضحاً ، وبلغ ذلك أبا جهل فثارت ثائرته ورفض الرجوع ، ثم تكلَّم مع هذا وذاك من زعماء قريش كلاماً مثيراً للعواطف وغرائز الانتقام ؛ فأفسد على الناس الرأيَ الذي دعاهم اليه عتبة .

وتهيَّأ القوم للحرب ، وكانت الوقعة يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

وخرج الأسود بن عبدالأسد المخزومي ـ وكان رجلاً شرساً سيِّىء الخُلُق ـ فقال : أُعاهِد اللهَ لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنَّه أو لأموتنَّ دونه .

فلمّا خرج ؛ خرج اليه حمزة بن عبدالمطلب ، فلمّا التقيا ضربه حمزة فأطَنَّ قَدَمَه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخبُ رجلُه دماً ثم حَبَا الى الحوض حتى اقتحم فيه ، وأتْبَعَه حمزةُ فضربه حتى قتله في الحوض .

ثم خرج من بعده عتبةُ بن ربيعة وشيبةُ بن ربيعة والوليدُ بن عتبة ، ودعوا المسلمين الى المبارزة ، فخرج اليهم ثلاثة من الأنصار : عوفُ بن الحارث ومعوِّذُ بن الحارث وعبدُالله بن رواحة .

فقال المشركون : مَنْ أنتم ؟ .

قالوا : رهطٌ من الأنصار .

قال المشركون : أكفاء كرام ، ما لنا بكم من حاجة ، انما نريد قومنا .

ثم نادى مناديهم : يا محمد ؛ أخْرِجْ الينا أكفاءنا من قومنا .

فقال رسولُ الله ـ ص ـ : «قم يا عُبَيْدَة بن الحارث ؛ وقم يا حمزة ؛ وقم يا عليّ» .

فلمّا قاموا ودَنَوْا من المشركين ، قالوا : مَنْ أنتم ؟ .

فسَمَّوا أنفسَهم .

قالوا : نعم أكفاء كرام .

فبارز عبيدةُ ـ وكان أسَنَّ القوم ـ عتبةَ بن ربيعة ، وبارز حمزةُ شيبةَ بن ربيعة ، وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبة ، فأمّا حمزة فلم يُمْهِل شيبةَ أنْ قَتَلَه ، وأما عليٌّ فلم يُمهل الوليدَ أنْ قتله ، وأمّا عبيدة وعتبة فاختلفا بينهما ضَرْبَتَيْن وكَرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه ؛ واحتملا عبيدة فحازاه الى أصحابه .

ثم تزاحف الناسُ ودنا بعضهم من بعض ، وأمر رسولُ الله ـ ص ـ أصحابه أنْ لا يحملوا حتى يأمرهم وقال : «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنَّبْل» .

وكان رسول الله ـ ص ـ يكرِّر مناشدة ربِّه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : «اللهم إنْ تهلك هذه العصابةُ اليوم لا تُعْبَد» .

ثم خرج ـ ص ـ الى الناس فحرَّضهم وقال : «والـذي نفس محمدٍ بيـده ؛ لايُقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقْتَل صابراً محتسِباً مُقبِلاً غير مُدبِرٍ الاّ أدخله اللهُ الجنة» . فقال عُمَيْر بن الحُمام أخو بني سلمة ـ وفي يده تمرات يأكلهنَّ ـ : بخ بخ ؛ أفما بيني وبين أن أدخل الجنةَ الاّ أن يقتلني هؤلاء . ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القومَ حتى قُتِل .

ثم ان رسول الله ـ ص ـ أخذ حفنةً من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال : «شاهت الوجوه» ، ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه بالهجوم وقال لهم : «شدُّوا» .

وسرعان ما هُزمت قريش ، وقتل اللهُ مَنْ قتل من صناديدهم ، وأُسِرَ مَنْ أُسِرَ من أشرافهم .

ولمّا وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسولُ الله ـ ص ـ في العريش ، وسعدُ بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ـ ص ـ متوشِّح بالسيف في نفرٍ من الأنصار يحرسون رسولَ الله ـ ص ـ يخافون عليه كَرَّة العدوِّ . رأى رسولُ الله ـ ص ـ في وجه سعد بن معاذ الكراهيةَ لما يصنع الناس ، فقال له رسولُ الله ـ ص ـ : «واللهِ لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم» ، قال : أجَلْ واللهِ يا رسول الله ، كانت أول وقعةٍ أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال .

ورأى أميةُ بن خلف ـ وكان من رؤوس المشركين ـ عبدَالرحمن بن عوف فسأله : مَن الرجل المعلم بريشة نعامةٍ في صدره؟ ، فقال له عبدالرحمن : ذاك حمزة ابن عبدالمطلب . فقال امية : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .

وكمن معاذُ بن عمرو بن الجموح لأبي جهلٍ وقد اختفى في شجرةٍ ، ثم قَصَده فلما تمكَّن منه حمل عليه فضربه ضَرْبةً أطنَّتْ قدمَه بنصف ساقه ، فضرب عكرمةُ بن أبي جهل معاذاً هذا على عاتقِه فطرح يدَه فتعلَّقتْ بجلدةٍ من جنبه ، فلما آذَتْه يدُه هذه وضع عليها قدمَه ثم تمطّى بها عليها حتى قطعها . ثم جاء عبدُالله بن مسعود فوجد أبا جهلٍ بآخر رمق فقتله .

★★★

وأسفرت المعركة عن مقتل خمسين أو سبعين رجلاً من المشركين ؛ وأسْرِ سبعين منهم ؛ واستشهاد أربعة عشر رجلاً من المسلمين : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وتقول الاحصائيات التفصيلية كما رواها المؤرخون :

إن عليّاً ـ ع ـ قتل : العاص بن سعيد بن العاص ، والنَّضْر بن الحارث ، وعُقْبة بن أبي مُعَيط (وقيل : ان قاتل عقبة هو عاصم بن ثابت) ، والوليد بن عُتْبة ، وعامر بن عبدالله ، وطعيمة بن عدي ـ على قولٍ ـ ، ونوفل بن خويلد ، وعمير بن عثمان بن عمرو ، وأبا مسافع الأشعري ، ومسعود بن السائب ، والعاص بن مُنَبِّه بن الحجاج ، وأبا العاص بن أبي امية بن المغيرة ، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وعبدالله بن المنذر بن أبي رفاعة ، وحاجب بن قيس بن عدي السهمي ، وأوس بن مِعْيَر بن لوذان ، ومعاوية بن عامر . وشارك في قتل حنظلة بن أبي سفيان ، وعتبة بن ربيعة ، وزَمَعَة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود .

وقتل حمزةُ بن عبدالمطلب : شيبةَ بن ربيعة ، وطعيمة بن عدي ـ على قولٍ ـ ، وأبا قيس بن الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبدالأسد المخزومي . وشارك في قتل حنظلة بن أبي سفيان ، وعتبة بن ربيعة ، وزمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود .

وقتل المقدادُ بن عمرو : زيدَ بن مليص ـ وقيل : قتله بلال بن رباح ـ .

وزيدُ بن حارثة : نُبَيْهَ بن الحجاج بن عامر . واشترك في قتل حنظلة بن أبي سفيان .

وسعدُ بن الربيع : رفاعةَ بن أبي رفاعة المخزومي .

وصهيبُ بن سنان : عثمانَ بن مالك .

والمُجَذَّرُ البلويّ : أبا البختري العاصَ بن هشام .

وعمّارُ بن ياسر : عامرَ بن الحضرمي ، والحارثَ بن زَمَعَة .

والنعمانُ بن عصر حليفُ الأوس : الحارثَ بن الحضرمي .

وسالمٌ مولى أبي حذيفة : عميرَ بن أبي عمير ، وابْنَه .

والزبيرُ بن العوّام : عبيدةَ بن سعيد بن العاص بن امية .
وخبيبُ بن اساف : الحارثَ بن عامر بن نوفل .

★★★

وأمر رسولُ الله ـ ص ـ بعد أن انجلى غبار المعركة ورفرفت راية الحق المنصور ؛ أن يُطرَح قتلى المشركين في القليب ، فطُرِحوا فيه الا ما كان من أُمية بن خلف ؛ فانه انتفخ في درعه فملأها ، فذهبوا ليحرِّكوه فتناثر لحمُه ، فجعلوه مكانه وألقوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة .

ولمّا أُخِذ عتبةُ بن ربيعة مسحوباً الى القليب ، نظر رسول الله ـ ص ـ في وجه أبي حذيفة بن عتبة ـ وكان من المسلمين المهاجرين ـ ؛ فاذا هو كئيب قد تغيَّر لونُه ، فقال له النبي ـ ص ـ : «يا أبا حذيفة ؛ لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيءٌ؟» ، فقال : لا والله يا رسول الله ؛ ما شككتُ في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنتُ أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنتُ أرجو أن يهديه ذلك الى الاسلام ، فلما رأيتُ ما أصابه وذكرتُ ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ؛ أحزنني ذلك . فدعا له رسول الله ـ ص ـ بخير .

وعندما تمَّ إلقاء قتلى المشركين في القليب وقف عليهم رسول الله ـ ص ـ فقال : «يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً؟ ؛ فاني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقّاً» .

وبعث رسول الله ـ ص ـ عبدَالله بن رواحة على اثر ذلك بشيراً الى أهل العالية ؛ وزيدَ بن حارثة الى أهل السافلة ، يخبران بما فتح الله عز وجل على رسوله وعلى المؤمنين . ثم عزم على العودة الى المدينة ؛ ومعه النَّفَل الذي غُنِم من أعداء الله ؛ والاسارى من المشركين الذين فُرِض عليهم الفداء لاطلاق سراحهم(٢) .

أمّا النَّفَل الذي أفاءَ اللهُ به على المسلمين فقد قسمه رسول الله ـ ص ـ بين

---

(٢) روى الذهبي بسنده خبر الفداء عن الشعبي قال :
«كان فداء اسارى بدرٍ أربعة آلاف ودونها ، فمن لم يكن له شيء أُمِرَ أن يعلِّم صبيان الأنصار الكتابة» سير أعلام النبلاء : ١٥/٤٢٨ .

المحاربين الذين كانوا معه على السواء .

وأما الأسرى فقد عُومِلوا بأفضل الوجوه تنفيذاً لوصية النبي بهم ، حتى كانوا يُطعَمون الخبزَ ؛ ويأكل المسلمون التمر .

وارتحل رسول الله ـ ص ـ من مكانه ذاك ؛ حتى اذا كان بالرَّوحاء استقبله الناس يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى مَنْ معه ، فقال لهم أحد المقاتلين ـ وهو سَلَمَةُ بن سَلامة ـ : ما الذي تهنِّئونا بـه؟ فوالله إنْ لقينا الا عجائز صُلعاً كالبُدن المُعَقَّلة ؛ فنحرناها . فتبسَّم رسولُ الله ـ ص ـ وقال : «أي ابن أخي ؛ اولئك المَلأ» يعني الأشراف والرؤساء .

واذا كان هذا المقاتل المسلم الشجاع قد استهان بهؤلاء الأشراف والزعماء الى هذه الدرجة ؛ فرآهم عجائز صلعاً كالبدن المعقَّلة أمام بطولة المسلمين وقوة ايمانهم ، فان المقاتلين المشركين المنهزمين الى مكة كانوا على العكس من ذلك رعباً وفرقاً واضطراباً ، وقد وصف أحدُهم لقاءهم بالمحاربين المسلمين في بدر فقال :

«ما هو الاّ أنْ لقينا القوم ، فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسرونا كيف شاؤوا . وأيم الله ـ مع ذلك ـ ما لُمْتُ الناسَ ، لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلقٍ بين السماء والأرض ، واللهِ ما تُلِيق [أي : ما تُبْقي] شيئاً ولا يقوم لها شيء» .

وصدق الله العليُّ العظيم إذ يقول :

﴿وما جَعَلَه اللهُ الا بُشْرى لكم ؛ ولتطمئنَّ قلوبُكم به ، وما النَّصْرُ الا من عند الله العزيز الحكيم﴾ .

* المصادر :

سيرة ابن هشام : ٢/٢٥٧ ـ ٣٦٩ .

طبقات ابن سعد : ٢/ ق١/ ٦ ـ ١٧ .

تاريخ الطبري : ٢/٤٢١ ـ ٤٦٠ .

مَعْرَكَةُ أُحُد

تجمّع قادة المشركين بمكة بعد هزيمتهم النكراء في بدر ؛ لتدارس مآل أمرهم مع محمد ـ ص ـ وأصحابه ، وقد تكشّف لهم مدى الخطر الكبير المحدق بزعامتهم المرهوبة وثرواتهم الضخمة وسمعتهم المعروفة بين قبائل الجزيرة العربية وما والاها .

وبعد تداول الأمر من كل جهاته تقدّم اليهم أحدهم قائلاً : يا معشر قريش ؛ إنّ محمداً قد وَتَرَكم وقتل خياركم ، فأعينونا بالمال الذي كان في عِيْرِ قريش عند معركة بدرٍ على حربه ، فلعلّنا نُدرك منه ثارَنا بمن أصاب منّا .

وسرعان ما وافق الجميع على ذلك متحمّسين متدافعين ، ورُوِيَ أنه نزل على اثر ذلك قوله تعالى فيهم : ﴿انّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصُدُّوا عن سبيل الله ، فسيُنْفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ، ثم يُغْلَبون ، والذين كفروا الى جهنّم يُحْشَرون﴾ .

وبعثوا رسلهم يسيرون في العرب يدعونهم الى نصرهم فأوعبوا وحضروا .

وهكذا اجتمعت قريش ومَنْ أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة ؛ على الإعداد لحربٍ اخرى مع المسلمين ، وكان في طليعة اولئك المتحمسين لها أصحابُ التجارة وذوو الزعامة ممن كان يخشى على كل ذلك من هذا المدّ المتلاطم القادم من المدينة المنوّرة .

وبدأ يحرِّض بعضهم بعضاً ، ويشجّع الواحد صاحبه ، ويشد هذا من عزيمة ذاك . واستنفروا لهذه المهمّة كلّ من يمكن استنفاره ومَنْ يرجى العون منه ، حتى بلغت الحال الى أن يدعوَ جُبَيْر بن مطعم غلاماً له حبشيّاً يقال له وَحْشيّ ـ وكان معروفاً أنه يقذف بحربةٍ له قَذْفَ الحبشة وقلّما يخطىء بها ـ فقال له : اخرج مع الناس ، فإنْ أنت قتلتَ حمزةَ عمَّ محمدٍ بعمي طُعَيْمة بن عَدِيّ فأنت عتيق .

ثم خرجت قريش ـ بعد الفراغ من الإعداد والتأهُّب ـ بحدِّها وحديدها وجدِّها وأحابيشها وجميع مَنْ تابَعَها من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظُّعن

[أي النساء في هوادجهنَّ] التماسَ الحفيظة وأنْ لا يفرُّوا ، فخرج أبو سفيان بن حرب بهند بنت عتبة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأُمِّ حكيم بنت الحارث بن هشام ، وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبِّه بن الحجاج ، وهكذا فعل الآخرون .

وكانت هند بنت عتبة كلَّما مرَّتْ بوحشيّ أومرَّ بها قالت له : ويها أبا دَسمة ؛ اشفِ واسْتَشْفِ . وكان وحشيٌّ يكنى بأبي دسمة .

وأقبل جمعهم يقطع البيداء ، حتى نزلوا بعَيْنَيْنِ ، بجبلٍ ببطن السُّبْخَة ، من قناةٍ على شفير الوادي ، مقابل المدينة .

وبلغ خبرُ مسيرهم رسولَ الله ـ ص ـ ، ثم سمع هو والمسلمون نبأ نزولهم حيث نزلوا ، وبات سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير وسعد بن عبادة في عُدَّةٍ عليهم السلاح في المسجد بباب رسول الله ـ ص ـ وحُرِست المدينة حتى أصبحوا ، فجمع النبي ـ ص ـ ذوي المشورة من أصحابه وقال لهم فيما قال :

«فإنْ رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها» .

فقال بعضهم : يا رسول الله ؛ اخرجْ بنا الى أعدائنا ، لا يَرَوْنَ أنّا جَبُنّا عنهم وضَعُفْنا .

وقال آخر : يا رسول الله ؛ أقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فو اللهِ ما خرجنا منها الى عدوٍّ لنا قطّ إلاّ أصاب منّا ، ولا دخلها علينا الاّ أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤا .

واقترح آخرون الاستعانة باليهود لأنهم كانوا حلفاء الأنصار .

ورفض النبي ـ ص ـ بكل صرامةٍ مقترحَ الاستعانة باليهود وقال : «لا حاجة لنا فيهم» . ثم رجح ـ بعد المداولة والمناقشة الموسَّعة ـ رأيُ القائلين بضرورة الخروج للقاء القوم ؛ وعدم المكث والانتظار في المدينة .

وصلّى رسول الله ـ ص ـ الجمعة بالمسلمين ، ووعظهم وأمرهم بالجدِّ والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، وأكّد عليهم التهيؤ لعدوهم ، ثم صلى

بالناس العصر وقد حشدوا ، ثم دخل بيته فلبس لأْمَتَه ، وخرج للقتال في ألفٍ من أصحابه ، وخرج السَّعْدانِ أمامه يَعْدُوان ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ ، وكل واحدٍ منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله .

وشاء المنافقون ممن كانوا مع رسول الله ـ ص ـ استغلال الموقف حبّاً بالسلامة ، فقال قائلهم ـ وهو عبدالله بن أُبَيٍّ بن سَلُول ـ : أطاعهم وعصاني ، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ، فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، وكانوا ثلثَ الناس ، فلحقهم عبدُالله بن عمرو بن حرام ـ وكان مسلماً صادق الايمان ـ فقال لهم : يا قوم ؛ اذكّركم اللهَ أن لا تخذلوا قومكم ونبيَّكم . فلمّا استعصوا عليه وأبوا الا الانصراف والخذلان قال : أبْعَدَكم اللهُ أعداءَ الله ، فسيُغني اللهُ عنكم نبيَّه .

ومضى رسولُ الله ـ ص ـ بموكبه المؤمن الشجاع الى لقاء المشركين ، وسلكوا طريقاً خاصاً ـ بدلالة أحد الأنصار ـ يخرج على القوم من قرب ولا يمر عليهم ، حتى نزلوا الشِّعبَ من أُحُد ، في عَدْوة الوادي الى الجبل ، وجعلوا ظهورهم الى أُحُد . ثم أعلن ـ ص ـ بكل صرامةٍ قائلاً : لا يقاتلنَّ أحدٌ منكم حتى نأمره بالقتال .

وعَبَّأ النبي ـ ص ـ أصحابه وكانوا سبع مائة ، وأمَّر على الرماة ـ وكانوا خمسين رجلاً ـ عبدَالله بن جبير ؛ وهو مُعْلم يومئذ بثياب بيضٍ ، وأصدر الأمر الى قائدهم قائلاً : «انضح الخيل عنّا بالنبل ؛ لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فأنت مكانك ، لا نُؤتَيَنَّ من قبلك» .

ودفع اللواء الأعظم الى مصعب بن عمير أخي بني عبدالدار ؛ ولواء المهاجرين لعليّ(ع) ؛ ولواء الأوس لأُسيد بن حضير ؛ ولواء الخزرج للحُبَاب بن المنذر أو سعد ابن عُبادة .

وأخذ رسولُ الله ـ ص ـ بيده سيفاً وقال : «مَنْ يأخذ هذا السيف بحقِّه ؟» .

فقام اليه رجال ، فأمسكه عنهم ، حتى قام اليه أبو دُجانة سِماك بن خَرَشة الساعدي الأنصاري فقال : وما حقُّه يا رسول الله ؟ .

قال النبي ـ ص : «أن تضرب به العدوَّ حتى ينحني . أو قال ـ كما في رواية اخرى ـ : حقّه أن لا تقتل به مسلماً وأن لا تفرَّ به عن كافر» .

قال أبو دجانة : أنا آخذه يا رسول الله بحقه .

فأعطاه النبيّ السيف ، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، وكان اذا أعلم بعصابةٍ له حمراء علم الناسُ أنه سيقاتل ؛ وتسمي الأنصار عصابته : عصابة الموت . فلما أخذ السيفَ من يد رسول الله ـ ص ـ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسَه وجعل يتبختر بين الصفَّيْن ، فلما رآه رسول الله ـ ص ـ يختال في مشيته قال : «إنها لمشيةٌ يبغضها اللهُ الا في مثل هذا الموطن» .

ويبدو أن النبي ـ ص ـ كان يريد بتكريم أبي دجانة أن يفهم الأنصار مقدار اعتماده عليهم وثقته بهم في الدفاع عن كيان الاسلام الوليد .

★★★

وعبَّأت قريش أفرادها للحرب ؛ وهم ثلاثة آلاف رجل ؛ فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مئتا فرس وثلاثة آلاف بعير . وجعلوا خالد بن الوليد قائد الميمنة ، وعكرمة بن أبي جهل قائد الميسرة ، وكان اللواء ـ كعادتهم ـ بيد بني عبد الدار .

والتقى الطرفان وبدأت الحرب ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال في السنة الثالثة من الهجرة .

واقتتل الناس حتى حميت الوغى ، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن وقاتل معه المسلمون ، فأنزل الله عز وجل نصره ، وصدقهم وعده ، فحسّوهم بالسيوف حتى كشفوهم .

وأخذت هند بنت عتبة ـ أُمّ معاوية ـ في نسوة من نساء المشركين الدفوفَ يضربن بها خلف الرجال يحرِّضنهم ، وكانت ترتجز وتقول :

ويهاً بني عبد الدارْ ويهاً حماة الأدبارْ ضرباً بكل بَتَارْ

وتقول :

نحن بنات طارقْ نمشي على النمارقْ إنْ تُقبِلوا نُعانقْ

أو تُدبِروا نُفارقْ فراقَ غير وامق

وصاح طلحة بن ابي طلحة صاحب لواء المشركين : من يبارز ؟ ، فبرز له عليٌّ (ع) فالتقيا بين الصفَّيْن ، فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته ، فوقع وهو كبش الكتيبة ، فسُرَّ رسولُ الله ـ ص ـ بذلك وكبَّر ، وكبَّر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين .

وتسلَّم اللواء بعد طلحة أخوه عثمان فحمل عليه حمزة بن عبدالمطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهىٰ الى مُؤتَزَرِه .

واشتد القتال ، وحمي وطيس الحرب ، وشدَّ حمزة بن عبدالمطلب على حامل راية المشركين أرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار فقتله .

وكمن وحشيٌّ[1] في أثناء ذلك لحمزة ؛ فرماه بحربته ، فسقط شهيداً مضمخاً بدمائه ، وكان وحشي يتحدث عن مصرع حمزة فيقول :

لما التقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزة وأتبصَّره ، حتى رأيتُه في عُرض الناس يهدُّ أعداءه بسيفه هدّاً ما يقوم له شيء ، فواللهِ اني لأتهيَّأ له اريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ، إذ تقدَّمني اليه سِباعُ بن عبدالعُزّى ، فلما رآه حمزةُ ضَرَبه ضربةً ما أخطأت رأسَه . وهززتُ حربتي ، حتى اذا رضيتُ منها دفعتُها عليه ، فوقعتْ في ثُنَّته حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء (أي : ينهض متثاقلاً) نحوي ، فغُلِب ، وتركتُه واياها حتى مات .

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ـ ص ـ قتال الأبطال ، وكان من القلائل الذين ثبتوا ولم يفروا من الزحف ، وأدركته الشهادة بسيف ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه رسول الله ـ ص ـ .

وتسلَّم اللواء عليُّ بن أبي طالب بأمر رسول الله ـ ص ـ بعد شهادة مصعب ، واشتدَّ القتال حتى بلغ أعنف ما يُتصوَّر ضراوة وشدة .

وجلس النبي ـ ص ـ تحت راية الأنصار ، وأرسل الى علي ـ ع ـ : أنْ قَدِّم الراية . فتقدم عليٌّ بها ، فناداه أبو سعد بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين : هل لك في البراز من حاجة ؟ ، فقال علي : نعم . فبرزا بين الصفَّيْن فاختلفا بضربتين ، فضربه علي فصرعه ثم انصرف عنه ولم يُجهِزْ عليه ، فقال له أصحابه : أفلا أجهزتَ

---

(١) كان وحشيٌّ يسكن مكة ، فلما افتتح النبي ـ ص ـ مكة فرَّ الى الطائف ، ثم جاء متنكراً في وفد الطائف بعد أن سُدَّت في وجهه سبل النجاة ففاجأ النبيَّ باسلامه ، فقال له النبي بعد أن اضطر الى الصفح عنه لتلفظه بالشهادتين : «ويحك غَيِّبْ عني وجهك فلا اريَنَّك» ، وروى ابن هشام : «أن وحشياً لم يزل يُحَدُّ في الخمر حتى خُلِع من الديوان ، فكان عمر بن الخطاب يقول : قد علمت ان الله تعالى لم يكن ليَدَعَ قاتل حمزة» سيرة ابن هشام :٣/ ٧٦ ـ ٧٧ .

عليه ؟ فقال : إنّه استقبلني بعورتِه[٢] . ثم أجهز عليه سعد بن أبي وقاص بطعنةٍ في حنجرته .

وبرز في أثناء ذلك حنظلةُ بن أبي عامر الملقَّب على لسان النبي ـ ص ـ بـ«غسيل الملائكة» ، فعلا أبا سفيان يريد قتله ، فبادر أحد المشركين فعاجل حنظلة بضربة قاتلة ؛ فاستشهد رضي الله عنه .

وأصبح النصر للمسلمين قاب قوسين أو أدنى ، وبدأت نساء المشركين تستعد للفرار طلباً للنجاة ، وانكشف القوم عن معسكرهم فلم يبق فيه أحد ، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا . وسقط كل حملة لواء الكفر صرعى من حوله واحداً بعد واحد ، فبقي لواؤهم مطروحاً على الأرض لا يجرؤ قرشي على الدنو منه لحمله .

وحدَّث أبو رافع الصحابي قال : لما قتل عليٌّ بن أبي طالب أصحابَ الألوية ؛ أبصر رسول الله ـ ص ـ جماعةً من مشركي قريش ، فقال لعليّ : «احمل عليهم» فحمل عليهم ففرَّق جمعهم وقتل منهم عمرو بن عبدالله الجمحيَّ . ثم أبصر رسول الله ـ ص ـ جماعة اخرى منهم ، فقال لعلي : «احمل عليهم» فحمل عليهم ففرَّق جماعتهم وقتل منهم شيبة بن مالك أحد بني عامر بن لؤي . فقال جبريل : يا رسول الله ؛ ان هذه لَلْمُواساة ، فقال رسول الله ـ ص ـ : «إنه منّي وأنا منه» فقال جبريل : وأنا منكما . قال : فسمعوا صوتاً :

لا سيف الا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي

ورأى الرماة من أصحاب النبي ـ وكانوا يطلُّون على أرض المعركة من عل ـ أن المشركين قد تركوا معسكرهم وولوا هاربين ؛ وأن رفاقهم وقعوا في المعسكر نهباً وغنماً ، وكان فيه ما فيه من أُبَّهةٍ ومال وسلاح ، فثارت في نفوس معظمهم غريزة الطمع في الغنائم ، فتركوا مواضعهم التي وضعهم فيها رسول الله ـ ص ـ ، وهجموا

---

(٢) قال محققو السيرة تعليقاً على هذه الحادثة : «وقد فعل علي ـ رض ـ هذه مرة اخرى يوم صفين ، حمل على بسر بن ارطاة ، فلما رأى بسر انه مقتول كشف عن عورته ، فانصرف عنه . ويروى أيضاً مثل ذلك عن عمرو بن العاص مع علي ـ رض ـ يوم صفين» سيرة ابن هشام : ٣/ ٧٨ ـ الهامش ذو الرقم (٢) ـ.

على المعسكر يغنمون ما ضمَّه من عدة ومال ، وخالفهم في ذلك قائدُهم عبدالله بن جبير في نفرٍ يسير دون العشرة ؛ فثبت في مكانه وقال : لا أُجاوز أمْرَ رسول الله ـ ص ـ .

واستغلت فلول المشركين هذه الفرصة السانحة ، فعلتْ عاليةً منهم بقيادة خالد بن الوليد ذلك الموقع الجبليِّ الحساس الذي كان فيه الرماة، بعد أن استشهدت البقية الثابتة منهم فيه واستشهد أميرهم عبدالله بن جبير أيضاً .

ويقول ابن سعد في روايته : ان المسلمين اختلطوا ؛ فصاروا يقتتلون على غير شعار ، ويضرب بعضهم بعضاً ، ما يشعرون به من العجلة والدهش ، وولّى مَنْ ولّى منهم وقد جهدته الحرب فما يدري ما يصنع .

ودارت الدائرة على المسلمين ، حتى صرخ صارخ : ألاَ ان محمداً قد قُتِل ، فزاد ذلك في رعب المسلمين وذعرهم .

ووصف ابن اسحاق ذلك اليوم العصيب فقال : «كان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم اللهُ فيه مَنْ أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو الى رسول الله ـ ص ـ فدُثَّ [أي رُمِيَ] بالحجارة حتى وقع لشقِّه ، فأُصيبت رباعيته وشُجَّ في وجهه وكُلِمَتْ شَفَتُه . . . فجعل الدَّمُ يسيل على وجهه . . . ووقع رسول الله ـ ص ـ في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله ـ ص ـ » .

ولم يبق من المدافعين عن رسول الله ـ ص ـ الاّ نفر قليل لم يتجاوز أربعة عشر في الأكثر ، وبينهم رسول الله ـ ص ـ ثابت كالجبل الراسخ يرمي عن قوسه حتى صارت شظايا .

وآل الأمر بأُمِّ عمارة نُسَيبة بنت كعب المازنية ـ وكانت تراقب المعركة من بعيد ـ أن تحمل السلاح وتباشر القتال ، حتى أُصيبت بضربةٍ بقيت آثارها في بدنها بعد ذلك .

وفرَّ ـ فيمن فرَّ ـ عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وسعد بن عثمان ـ والأخيران من الأنصار ـ حتى بلغوا جبلاً بناحية المدينة فأقاموا به ثلاثاً ثم رجعوا .

وانتهى أنس بن النَّضْر الى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله في رجال من المهاجرين والأنصار ؛ وقد ألقوا سلاحهم وجلسوا في ناحية ، فقال : ما يُجلِسُكم ؟ قالوا : قُتِل رسول الله ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ ، يا قوم إن كان محمد قد قُتِل فان ربَّ محمد لم يقتل ، فقاتِلوا على ما قاتل عليه محمد ، اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء ؛ وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ، قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم شدَّ بسيفه واستقبل القوم فقاتل حتى قُتِل ـ رضي الله عنه ـ ، ووجدوا به يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه أحدٌ الا أُخته .

ولما خفَّ ضجيج الحرب وهدأت قعقعة السلاح ؛ كان أول مَنْ شاهد رسولَ الله ـ ص ـ بعد شيوع خبر مقتله : كعب بن مالك الأنصاري ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ؛ أبشروا ؛ هذا رسول الله ـ ص ـ .

وسار النبي نحو الشِّعب في أرض المعركة ، وخرج علي بن أبي طالب (ع) حتى ملأ درقَته ماءً من موضعٍ للماء في أُحُدٍ يسمى المهراس ، فجاء به الى رسول الله ـ ص ـ ليشرب منه ويتوضأ ، ثم صلّى النبي الظهر ذلك اليوم قاعداً من الجراح التي أصابته .

وفي الجانب الآخر وقعت نساء المشركين ـ وفي مقدمتهن هند بنت عتبة أُمُّ معاوية ابن أبي سفيان ـ يمثِّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ـ ص ـ ؛ يجدِّعن الآذان والأنُفَ ، حتى اتخذت هند من ذلك خلاخيل وقلائد ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكَتْها فلم تستطع أن تُسيغها فلَفَظَتْها ، ثم علتْ على صخرة مشرفة فعبَّرت عن حقدها الأسود ببعض الأراجيز ، ومنها قولها :

شفيتُ من حمزة نفسي بأُحُدْ ... حتى بقرتُ بطنه عن الكبدْ
أذهب عني ذاك ما كنتُ أجدْ ... من لذعة الحزن الشديد المعتمِدْ

وبلغت أراجيزُها سمعَ حسان بن ثابت ؛ فكشف قناع الهجو ، فذكَرَ زناها ؛ وشهر بولدها (الكبير) المولود من ذلك الزنا ، وقال في بعض ما قال :

لعن الإلـهُ وزوجَها معها ... هندَ الهنود طويلة البَظْرِ
أخرَجتِ مُرقِصةً الى أُحُدٍ ... في القوم مُعنِقةً على بَكْرِ

ونسيتِ فاحشةً أتيتِ بها يا هند ويحكِ سُبَّةَ الدهر
زعم الولائدُ أنها ولدتْ ولداً صغيراً كانَ من عهرِ[٣]

وقال فيها ـ أيضاً ـ من جملة مقطوعةٍ اخرى :

لمن الصبيُّ بجانب البطحاءِ مُلقىً عليه غيرَ ذي مَهْدِ
نَجَلَتْ به بيضاءُ آنسةٌ من عبدِ شمسٍ صلتةُ الخَدِّ
غلبتْ على شَبَهِ الغلام وقد بان السوادُ لحالكِ جعدِ[٤]

ولم تكن هند في فعلتها هذه شاذَّة أو خارجة على طبائع زوجها وبني قومها الارذلين وجبلَّتهم الخبيثة القذرة ، فقد مرَّ الحُلَيْس بن زَبّان أخو بني الحارث بن عبدمناة بحمزة بعد مقتله ؛ فرأى أبا سفيان زوج هند وهو يضرب في شِدْق حمزة بزُجِّ الرُّمح ، تنفيساً عن حقده البالغ الدفين .

★★★

ووضعت الحرب أوزارها بعد هذا الجلاد الدامي ، وجمع المشركون حقائبهم منصرفين .

وبعث رسولُ الله ـ ص ـ عليَّ بن ابي طالب فقال : اخرجْ في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإنْ كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ اليهم فيها ثم لُأناجزنَّهم . قال علي (ع) : فخرجتُ في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فرأيتهم قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الابل ووجَّهوا الى مكة .

وعندما علم المسلمون بانصراف عدوهم الى مكة ؛ أقبلوا على أرض المعركة لمعرفة القتلى من اخوانهم ؛ والقيام بواجب دفنهم .

---

(٣) ديوان حسان : ٣٨٤ .

(٤) ديوان حسان ـ ايضاً ـ : ٣٩٦ ، وله قصائد اخرى في هذا الموضوع وردت في الديوان .

ونادى رسول الله ـ ص ـ : مَنْ رجلٌ ينظر لي ما فعل سعدُ بن الربيع ؛ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ . فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد . فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق ، قال : فقلت له : ان رسول الله ـ ص ـ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ، قال : أنا في الأموات ، أبلغ رسول الله ـ ص ـ عني السلام وقل له : ان سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أُمته . وأبلغ قومَك عني السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عُذْرَ لكم عند الله إنْ خُلِصَ الى نبيكم ومنكم عَينٌ تطرف . قال : ثم لم أبرح حتى مات ، فجئتُ رسولَ الله ـ ص ـ فأخبرتُه خَبَرَه .

وخرج رسولُ الله ـ ص ـ يلتمس حمزة بن عبدالمطلب ، فوجده ببطن الوادي ، قد مُثِّل به فبُقِر بطنُه عن كبده وجُدع أنفُه واذناه ، فقال معبِّراً عن عظيم وجده وألمه : «لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفتُ موقفاً قط أغْيَظَ إليَّ من هذا . ثم قال : جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبدالمطلب مكتوبٌ في أهل السماوات السبع : حمزة بن عبدالمطلب أسَدُ الله وأسد رسوله» ، وأمر ـ ص ـ بحمزة فسُجِّيَ ببردةٍ ، ثم صلّى عليه فكبَّر سبع تكبيرات ، وكذلك صلى على جميع الشهداء .

وأقبلت صفية بنت عبدالمطلب لتنظر الى حمزة ـ وكان أخاها لأبيها وأُمها ـ ، فقال رسول الله ـ ص ـ لابنها الزبير : «القها فأرْجِعها لا ترى ما بأخيها» فقال لها : يا أُمّه ؛ إن رسول الله ـ ص ـ يأمرك أن ترجعي ، قالت : ولِمَ ؟ وقد بلغني أنْ قد مُثِّل بأخي ؛ وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله . فلما جاء الزبير الى رسول الله ـ ص ـ فأخبره بذلك قال : «خَلِّ سبيلها» فأتَته فنظرتْ اليه .

ثم أمر رسول الله ـ ص ـ بحمزة وبالشهداء فدُفنوا في مقبرتهم المعروفة حتى اليوم .

وانصرف رسول الله ـ ص ـ راجعاً الى المدينة فلقِيَتْه حَمْنَةُ بنت جحش ، فنعى الناسُ اليها أخاها عبدالله ؛ فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نُعِي لها خالها حمزة بن عبدالمطلب ؛ فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نُعِي لها زوجُها مصعب بن عمير ؛

فصاحت وولولت . فقال رسول الله ـ ص ـ : «إن زوج المرأة لَبِمكانٍ» .

ومرَّ رسول الله ـ ص ـ في طريق عودته بدارٍ من دور الأنصار ؛ فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم ، فذرفت عَيْنا رسول الله ـ ص ـ فبكى ثم قال : «لكنَّ حمزة لا بواكي له» ، فلما رجع سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حضير الى دارقومهم أمرا نساءهم أن يتحزَّمن ثم يذهَبْن فيبكين على عمِّ رسول الله ـ ص ـ ، فلما سمع رسول الله بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهنَّ على باب مسجده يبكين عليه ، فقال : «ارجعْنَ يرحمكنَّ الله . . رحم اللهُ الأنصار ؛ فان المواساة منهم لَقَدِيمة» .

ثم مرَّ موكب رسول الله ـ ص ـ بامرأةٍ من بني دينار قد قُتل زوجها وأبوها وأخوها في هذه المعركة ، فلما نُعُوا لها قالت : فما فعل رسولُ الله ؟ قالوا : خيراً يا أُمَّ فلانٍ هو بحمد الله كما تُحِبّين . قالت : أرونيه حتى أنظر اليه ؟ فأُشير لها اليه ، حتى اذا رأته قالت : كل مصيبةٍ بعدك صغيرة .

ولمّا انتهى رسول الله ـ ص ـ الى أهله ناول سيفَه ابنته فاطمة فقال : «اغسلي عن هذا دمَه يا بنيَّة ؛ فواللهِ لقد صَدَقني اليوم» . وناولها علي بن أبي طالب ـ ع ـ سيفه وقال : وهذا ـ أيضاً ـ فاغسلي عنه دمَه ؛ فو الله لقد صدقني اليوم .

وفي صباح اليوم التالي ـ وكان الأحد السادس عشر من شوال ـ أذَّنَ مؤذِّنُ رسولِ الله ـ ص ـ في الناس بطلب العدو ، وكان أذانه وخروجه لغرض إرهاب المشركين ، عسى أن يبلغهم أنه خرج في طلبهم ، ليظنوا به قوةً على الحرب ، وليعلموا أن ما أصاب المسلمين لم يوهن قدرتهم ولم يقعد بهم عن القتال والمناجزة .

وخرج رسول الله ـ ص ـ حتى انتهى الى حمراء الأسد ـ وهي من المدينة على ثمانية أميال ـ ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء ، ثم رجع الى المدينة .

وكانت حصيلة هذه المعركة استشهاد سبعين من المسلمين : أربعة من المهاجرين ، والباقون من الأنصار .

وقُتِل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً عرفنا منهم ممن قَتَل حمزةُ : عثمان بن أبي طلحة ، وسِباع بن عبدالعزّى ، وقيل : أرطاة بن عبد شرحبيل .

وممَّن قتل عليٌّ : طلحة بن أبي طلحة ، وأبو سعيد بن أبي طلحة ، وصؤاب أحد غلمان بني عبدالدار ، وعبدالله بن حُمَيد بن زهير ، وأبو الحكم بن الأخنس بن شريق ، وأبو امية بن أبي حذيفة ، وقيل : أرطاة بن عبد شرحبيل(*) .

وصدق الله العلي العظيم إذ أنزل في هذه المعركة فيما أنزل :

﴿ليقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً ، ليَهلِكَ مَنْ هلك عن بيِّنة ، ويَحْيى مَنْ حَيَّ عن بينة ، وان الله لَسَمِيع عليم﴾ .

(*) المصادر :

سيرة ابن هشام : ٣/ ٦٥ ـ ١٥١

طبقات ابن سعد : ٢/ ق ١/ ٢٥ ـ ٣٤

تاريخ الطبري : ٢/ ٥٠٣ ـ ٥٣٢ .

مَعْرَكَةُ
"الخَنْدَقِ" و"بَنِي قُرَيْظَةَ"

لما أجلى النبيُّ ـ ص ـ اليهودَ من بني النضير من المدينة الى خيبر ـ بعد نقضهم العهود والمواثيق ـ ؛ خرج نفرٌ منهم ومعهم بعض بني وائل من أشرافهم ووجوههم الى مكة ، يدعون قريشاً الى حرب النبي ـ ص ـ ويحرِّضونهم على ذلك ، فلقوا منهم نفوساً تواقة وآذاناً صاغية ، وأعطوهم العهد والميثاق عليه .

ثم خرج اولئك النفر من اليهود من مكة فجاؤا غطفان من قيس عيلان فدعوهم الى حرب رسول الله ـ ص ـ ، وأعلموهم بعزم قريش على ذلك ، ووعدوهم المشاركة في القتال ، فاجتمعوا وتهيأوا له .

وخرجت قريش بعد أن أتمت العُدَّة واجتمع العدد يقودها أبو سفيان بن حرب الاموي ، وغطفانُ وقائدها عيينة بن حصن الفزاري ، وبنو مُرَّة وعلى رأسهم الحارث ابن عوف المُرّي ، وأشجعُ يقودهم مِسْعَر بن رُخَيْلة . وكان ذلك في شوال من سنة خمس من الهجرة .

وبلغ سمعَ رسول الله ـ ص ـ ما أجمعوا له من كيد وأمر ، فأمر بضرب خندقٍ على المدينة يحميها من هجوم الأعداء ومباغتتهم ، وعمل فيه رسول الله ـ ص ـ ترغيباً وتشجيعاً للمسلمين ، وعمل معه جمهور المؤمنين ، فدأب ودأبوا فيه .

وكان المنافقون من أهل المدينة ـ وقد تظاهروا بالمشاركة في العمل ـ بطاء الحركة كثيري التعلُّل والأعذار ، ومنهم من يتسلَّل الى أهله خلسة وبغير إذن . أما المسلمون الصادقون ؛ فكان الرجل منهم اذا نابته النائبة وفاجأته الحاجة التي لامناص منها : يذكر ذلك لرسول الله ـ ص ـ ويستأذنه في اللحوق بحاجته ؛ فيأذن له ، فاذا قضاها سارع في الرجوع الى ما كان فيه من عمله ، تقرباً الى الله تعالى واحتساباً . وأنزل الله في هذه المناسبة في اولئك المؤمنين من أهل الحسبة والطاعة والرغبة في الخير قوله عز وجل : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولهِ ، واذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذِنوه ، إنَّ الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون باللهِ ورسوله ، فاذا

استأذنوكَ لبعضِ شأنِهم فأذَنْ لمن شئتَ منهم ، واستغفر لهم الله ، إنَّ الله غفور رحيم﴾ .

وعمل المسلمون في الخندق حتى أحكموه ، وحصلت في أثناء حفره قصص وأحاديث ؛ فيها من الله تعالى دلائل وشواهد على تصديق رسوله وتحقيق نبوته ، وقد عاين ذلك المسلمون وعايشوه .

وأقبلت قريش ـ وقد فرغ رسول الله ـ ص ـ من الخندق ـ في عشرة آلاف من أحابيشهم ومَنْ تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجدٍ حتى بلغوا مشارف المدينة ، ونزلوا الى جانب أُحُد .

وخرج رسول الله ـ ص ـ والمسلمون في ثلاثة آلاف حتى جعلوا ظهورهم الى جبل سَلْعٍ ، فضرب ـ ص ـ هنالك معسكره ، وجعل الخندق حداً فاصلاً بينه وبين القوم .

وبعد أن استقر المشركون في مواضعهم ، قصد حُيَيُّ بن أخطب اليهودي النَّضَري ملاقاة كعب بن أسد اليهودي القُرَظي صاحب عَقْد بني قريظة وعهدهم ـ وكان قد وادع رسولَ الله (ص) على قومه وعاهده على ذلك ـ، فلما سمع كعبٌ بمقدم حُيَيٍّ بن أخطب علم أن في قدومه اليه نيَّة مبيَّتة ، فأغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه حييٌّ : ويحك يا كعب افتح لي ، قال : ويحك ياحيي إنك امرؤ مشؤوم واني قد عاهدتُ محمداً فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينه ولم أرَ منه الاّ وفاءً وصدقاً ، قال : افتح لي أُكلِّمك ، قال : ما أنا بفاعلٍ . فمازال به حتى فتح له ، فقال حيي : ويحك يا كعب ! جئتُك بعزِّ الدهر ؛ جئتك بقريش وغطفان في قادتها وسادتها قد عاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومَنْ معه . فقال له كعب : جئتني والله بذلِّ الدهر وبجَهامٍ قد هَرَاق ماءه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ؛ فدعني وما أنا عليه فاني لم أر من محمدٍ الاّ صدقاً ووفاء . فلم يزل حُيَيٌّ بكعبٍ يكلِّمه ويزيِّن له الأمر حتى رضخ له ، وأخذ من حييٍّ ميثاقاً وعهداً لئن رجعتْ قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه في حصنه حتى يصيبه ما يصيب صاحبه .

وهكذا نقض كعبٌ عهده ؛ وَبَرِئَ مما كان بينه وبين رسول الله ـ ص ـ ، وأصبح النبي والمسلمون وقد أُحيط بهم وبمدينتهم من كل طرف وصوب .

فلما انتهى خبر ذلك الى رسول الله ـ ص ـ ، بعث سيدَ الأوس سعدَ بن معاذ وسيدَ الخزرج سعدَ بن عبادة ومعهما عبدالله بن رَوَاحة وخَوّات بن جبير وقال لهم : «انطَلِقوا حتى تنظروا أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه (أي لا تعلنوا ذلك للناس لئلا يؤثّر على معنويات المحاربين) ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به» .

وخرج هؤلاء الأربعة حتى أتوا جَمْعَ اليهود ؛ فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله وقالوا : مَنْ هو وما شأنه ، لا عهد بيننا وبينه ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ؛ فما بيننا وبينهم أرْبى ـ أي أعظم ـ من المشاتمة .

ثم أقبل السَّعْدان ومَنْ معهما الى رسول الله ـ ص ـ فسلّموا عليه ثم قالوا : عَضَلٌ والقارة [كنايةً عن غدرهم] .

وشاع على اثر ذلك خبر نقض اليهود لعهدهم ؛ فعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف ، وأصبح المسلمون مطوّقين بالأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى بلغت الحال بأحد بني حارثة أن يعلن فيقول : يا رسول الله ؛ إنَّ بيوتنا عورةٌ من العدو ـ وذلك على ملإ من رجال قومه ـ فأْذَنْ لنا أن نرجع الى دورنا فانها خارج من المدينة .

وتقابل الجيشان ـ وكلاهما على أتمِّ أُهبة القتال ـ ، فأقاموا قريباً من شهر ؛ لم تكن بينهم حربٌ الاّ الحصار والرمي بالنبل .

وفكّر رسول الله ـ ص ـ في جملة ما فكّر به لازالة هذا الخطر المحدق بالمدينة ؛ أن يفعل فعلاً يشتّت به شمل هؤلاء الأعداء ويحدث به الانقسام في صفوفهم ، وذلك بأن يَعِدَ زعيمي غطفان باعطائهما ثلث ثمار المدينة اذا ما انسحبا من القتال ورجعا بمن معهما ، ورأى أن يستشير أصحاب الشأن في ذلك قبل إعلانه ، ولما كانت ثمار المدينة ملكاً للأنصار خاصة دون المهاجرين ؛ بعث الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ؛ فذكر ذلك لهما وطلب رأيهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله ؛ أمراً تحبُّه فتصنعه ؛ أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؛ أم شيئاً تصنعه لنا ؟ ، قال : «بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك الا لأني رأيتُ العرب قد رَمَتْكم عن قوس واحدة

وكالبوكم من كل جانب ؛ فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أمرٍ مّا» . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ؛ قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ؛ لانعبد الله ولا نعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها تمرةً الا قِرىً أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه ؛ نعطيهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله ـ ص ـ : «فأنت وذاك» .

ومرّت على مواجهة الجيشين أيام اخرى وأيام ، وحصار المشركين للمسلمين قائم ولكن بلا اشتباك ودماء . ثم تقدّم فوارسٌ من قويش منهم عمرو بن عبد وُدّ بن أبي قيس وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب ، حتى مرُّوا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيَّئوا يا بني كنانة للحرب ، فستعلمون مَنِ الفُرسانُ اليوم .

ثم أقبلوا تُسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله إنَّ هذه لمكيدةٌ ما كانت العرب تكيدها . ويقال : ان سلمان الفارسي كان هو المشير به على رسول الله ـ ص ـ ؛ وان المهاجرين قالوا ذلك اليوم : سلمان منّا ـ اعتزازاً بمشورته هذه ـ ، وقالت الأنصار : سلمان منّا ، فقال رسول الله ـ ص ـ : «سلمان منّا أهل البيت» .

وتيمَّم اولئك المشركون الأربعة المتقدمون مكاناً ضيقاً من الخندق ؛ فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السَّبخة بين الخندق وسَلْع ، فجعل عمرو بن عبد ودٍّ يدعو الى البراز ويقول :

ولقد بُححتُ من النِّدا ءِ لجمعهم هل من مُبارِزْ

فقال عليُّ بن أبي طالب (ع) : أنا أُبارزه يا رسول الله . فأعطاه النبيُّ سيفه وعَمَّمه وقال : «اللهم أعِنْه عليه» .

وكان عمرو المذكور قد شارك في حرب بدر ؛ وأصيب فيها فلم يشهد يومَ أُحُدٍ ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه . فلما وقف ينادي : من يُبارِزُ ؟ برز له عليٌّ (ع) فقال له : إنك قد عاهدتَ الله أن لا يدعوك رجل من قريش الى احدى خَلَّتَيْنِ الا أخَذْتَها منه . قال له : أجل . قال له علي : فاني أدعوك الى الله والى

رسوله والى الاسلام . قال : لا حاجة لي بذلك . قال : فاني أدعوك الى النزال . فقال له : لِمَ يا ابن أخي ؟ فوالله ما أُحبُّ أن أقتلك . قال له علي : لكني والله احبُّ أن أقتلك . فحَمِيَ عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليٍّ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله عليٌّ ، وخرج أصحاب عمرو منهزمين حتى اقتحموا الخندق هاربين .

وكان من أبرز ما اصيب به المسلمون في هذه الحرب جرح الصحابي البطل المغوار سعد بن معاذ ، وقد حدَّثتنا عنه ام المؤمنين عائشة ، وكانت في حصن بني حارثة ذلك اليوم ـ وهو من أحرز حصون المدينة ـ ومعها ام سعد في الحصن نفسه ، قالت عائشة : فمرَّ سعد وعليه درعٌ له مقلَّصة [اي قصيرة] قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفي يده حربته ، وهو يقول :

لَبِّثْ قليلاً يشهد الهيجا حَمَلْ لا بأس بالموت اذا حان الأجَلْ

فقالت له أُمُّه : الحقْ يا بني فقد ـ واللهِ ـ أخَّرت ، قالت عائشة : فقلت لها : والله لوددتُ ان درع سعدٍ كانت اسبغ مما هي . وخفتُ عليه حيث اصاب السهم منه ، فرُمِيَ سعدٌ بسهم فقطع منه الأكحلَ ـ وهو عرق في الذراع ـ ، فلما أصيب قال : اللهم إن كنتَ ابقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبْقِني لها ، فانه لا قوم أحبّ إليَّ أن أجاهدهم من قومٍ آذوا رسولك وكذَّبوه وأخرجوه ، اللهم وإنْ كنتَ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ، ولا تُمِتْني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة .

ومن طرائف ما ورد في أخبار هذه المعركة ما حدَّثت به صفية بنت عبدالمطلب قالت : كنّا في فارعٍ في حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان ، فمرَّ بنا رجل من يهود فجعل يُطِيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ـ ص ـ ، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنّا ، ورسول الله ـ ص ـ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا إن أتانا آتٍ . قالت : فقلت يا حسان ؛ إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ؛ واني والله ما آمَنُه أن يدل علينا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شُغِل عنا رسول الله ـ ص ـ وأصحابه ؛ فانزل اليه فاقتله . قال : يغفر الله لكِ يا ابنة عبدالمطلب ؛ والله لقد

عرفتِ ما أنا بصاحب هذا [وكان حسان معروفاً بالجُبن] . قالت : فلما قال لي ذلك ولم ارَ عنده شيئاً ؛ احتجزتُ ـ أي شددتُ وسطي ـ ثم أخذتُ عموداً ثم نزلتُ من الحصن اليه ؛ فضربتُه بالعمود حتى قتلتُه .

وأقام رسولُ الله ـ ص ـ وأصحابه فيما وصف الله تعالى به حالهم من الخوف والشدَّة ؛ لتظاهر عدوهم عليهم ؛ وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم .

★★★

وفي خلال تلك الأيام العصيبة قدم نُعَيم بن مسعود الغطفاني على النبي فقال : يا رسول الله ؛ إني قد أسلمتُ وإن قومي لم يعلموا باسلامي فمُرْني بما شئتَ . فقال رسول الله ـ ص ـ : «إنما أنت فينا رجل واحد ؛ فخَذِّلْ عنّا إن استطعتَ فان الحرب خدعة» .

فخرج نُعَيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ـ وكان لهم نديماً في الجاهلية ـ فقال : يا بني قريظة ؛ قد عرفتم ودّي إياكم وخاصَّةَ ما بيني وبينكم . قالوا : صدقتَ لستَ عندنا بمتَّهم . فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ؛ فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تَحَوَّلوا منه الى غيره ، وان قريشاً وغطفان قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ؛ فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهْزَةً أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلابكم ، فلا تُقاتِلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ؛ ثقةً لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تُناجِزوه .

فقالوا له : لقد أشرتَ بالرأي .

ثم خرج نُعَيمٌ منهم حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيتُ عليَّ حقاً أن أُبلغكموه نصحاً لكم ؛ فاكتموا عني . فقالوا : نفعل . قال : إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : إنّا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يُرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ـ قريش وغطفان ـ رجالاً من أشرافهم

فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على مَنْ بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ ، فأرسل اليهم : نعم . فإن بعثت يهود يلتمسون منكم رُهُناً من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفانَ فقال : يا معشر غطفان ؛ إنكم أصلي وعشيرتي وأحَبُّ الناس إليَّ ، ولا أراكم تتهمونني . قالوا : صدقتَ ؛ ما أنت عندنا بمتّهم . قال : فاكتموا عني . قالوا : نفعل ؛ فما أمرك ؟ . ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم كما حذّرهم .

ولمّا طالت مدة التأهب والانتظار أرسل أبو سفيان ورؤوسُ غطفان الى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفرٍ من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنّا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخفُّ والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نُناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . فكان جواب بني قريظة : لسنا بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رُهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا ؛ حتى نُناجز محمداً ، فإنّا نخشى إن ضرَّستكم الحرب واشتد عليكم القتال أنْ تنشمروا ـ أي تسرعوا ـ الى بلادكم ؛ وتتركونا ؛ والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت الرسل بما قالت بنو قريظة ؛ قالت قريش وغطفان : واللهِ إن الذي حدَّثكم نُعَيمُ بن مسعود لَحَقٌّ . فأرسلوا الى بني قريظة : إنّا واللهِ لاندفع اليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نُعَيم لَحَقٌّ ، ما يريد القوم الا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غيرَ ذلك انشمروا الى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم .

وهكذا انفرط عقد ذلك الحلف الخبيث ، فشتَّت الله شملهم ، وخذَّل بينهم ، ثم بعث عليهم الريح الزَّعزع في تلك الليالي الشاتية الشديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم ؛ وتطرح أخبيتهم وآنيتهم .

فلما انتهى الى رسول الله ـ ص ـ ما آل اليه واقع القوم ؛ وما اختلف من أمرهم ؛ وما فرَّق الله من جماعتهم ووحدة كلمتهم ، دعا حذيفة بن اليمان فقال له ـ

ص ـ : يا حذيفة ؛ اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تُحْدِثَنّ شيئاً حتى تأتينا .

قال حذيفة : فذهبتُ فدخلت في القوم ، والريحُ وجنودُ الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِرُّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ؛ لينظر امرؤٌ مَنْ جليسُه ؟ قال حذيفة : فأخذتُ بيد الرجل الذي كان الى جنبي فقلتُ : مَنْ أنت ؟ قال : فلان بن فلان . ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ؛ إنكم واللهِ ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُراع والخفُّ ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ؛ ما تطمئن لنا قِدر ؛ ولا تقوم لنا نار ؛ ولا يستمسك لنا بناء ، فارتَحِلوا فاني مرتحل . ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ؛ ثم ضربه فوثب به .

قال حذيفة : فرجعتُ الى رسول الله ـ ص ـ وهو قائم يصلّي . . فلمّا سلَّم أخبرتُه الخبر .

ثم سمعت غطفان برحيل قريش فانشمروا راجعين الى بلادهم .

ولمّا أصبح رسول الله ـ ص ـ انصرف ـ هو والمسلمون ـ عن الخندق راجعين الى المدينة وقد وضعوا السلاح ، وأُثِر عن النبي ـ ص ـ في انصرافه عن الخندق قوله : «الآن نغزوهم ـ يعني قريشاً ـ ولا يغزوننا» . فكان كذلك حتى فتح الله تعالى على رسوله ـ ص ـ مكة .

★★★

وكان النبي ـ ص ـ خلال انشغاله بحرب قريش وغطفان في الخندق ؛ في شغل شاغل بأمر المدينة نفسها ، لأن الرجال المسلَّحين القادرين على حمايتها والدفاع عنها كانوا مستنفرين لتلك الحرب ، فكان الخطر يتهدَّد المدينةَ ـ وليس فيها الا النساء والعجزة والصبيان ـ من ضربةٍ مفاجئة من اليهود بعد نقضهم العهد ونكثهم بالميثاق ، أي ان الخطر كان يتهدد الخطوط الخلفية لجيش المسلمين ويجعلهم في حربٍ على جبهتين : أماميّةٍ مع قريش وخلفيّةٍ مع اليهود .

ولذلك كان همُّ النبي ـ ص ـ بعد انسحاب قريش أن ينهي الموقف ويحسم الأمر مع اليهود ، فيأمن تكرار مثل هذا الخطر في مقبل الأيام .

وتنفيذاً لذلك أمر مؤذِّناً له ـ وهو راجع من الخندق الى المدينة ـ أن يؤذِّن في الناس : «مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر الا ببني قريظة» .

وقدَّم رسولُ الله ـ ص ـ عليَّ بن أبي طالب (ع) برايته الى بني قريظة ، وابتدرها الناس . فسار عليٌّ ؛ حتى اذا دنا من حصونهم سمع منها كلاماً سيئاً في النبي (ص) ، فرجع حتى لقي رسول الله ـ ص ـ بالطريق فقال : يا رسول الله ؛ لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث ، قال : لِمَ ؟ أظنك سمعتَ منهم لي أذىً ، قال : نعم يا رسول الله .

ثم أتى رسولُ الله ـ ص ـ بني قريظة ، فنزل على بئرٍ من آبارها ، وتلاحق به الناس ، فحاصرهم قرابة خمسٍ وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار ؛ وقذف الله في قلوبهم الرعب .

ويقول الرواة : إن حُيَيَّ بن أخطب كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم ؛ حين رجعت عنهم قريش وغطفان ، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا بأن رسول الله ـ ص ـ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ؛ قال كعب بن أسد لهم : يا معشر يهود ؛ قد نزل بكم من الامر ما ترون ، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيّها شئتم . قالوا : وما هي ؟ . قال : نُتابع هذا الرجل ونصدِّقه ، فواللهِ لقد تبيَّن لكم انه لَنَبيٌّ مرسل ؛ وانه لَلَّذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التَّوراة أبداً ولا نستبدل به غيره . قال : فاذا أبيتم عليَّ هذه فهلمَّ نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدنَّ النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم . قال : فإن أبيتم عليَّ هذه فان الليلة ليلة السبت ؛ وانه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نُصيب من محمد وأصحابه غِرَّةً . قالوا لا نفسد سبتنا علينا .

ثم ان اليهود طلبوا من رسول الله ـ ص ـ أن يبعث اليهم أبا لُبَابة بن عبد المنذر الاوسي ـ وكان بنو قريظة حلفاء الأوس ـ ليستشيروه في أمرهم ، فأرسله رسول الله ـ ص ـ اليهم ، فلما رأوه قام اليه الرجال ؛ وجهش اليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرقَّ لهم ، فسألوه : يا أبا لبابة ؛ أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ ، قال: نعم ـ وأشار بيده الى حلقه ـ إنه الذَّبح .

وتقول إحدى روايات ابن اسحاق : إن عليَّ بن أبي طالب صاح وهم محاصرو بني قريظة : يا كتيبة الايمان ، وتَقَدَّم . . ، وقال : واللهِ لَأذوقنَّ ماذاق حمزة أو لأفتحنَّ حصنهم . فقالوا : يا محمد ؛ ننزل على حكم سعد بن معاذ .

وعلى كل حال ، لم يجد هؤلاء اليهود مناصاً من النزول على حكم محمد ـ ص ـ ، فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ؛ انهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلتَ في موالي اخواننا بالأمس ما قد علمتَ . وقد كان رسول الله ـ ص ـ قبل بني قريظة قد حاصر بني قَيْنقاع ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبدُالله بن أُبَيٍّ بن سلول فوهبهم له .

فلمّا كلَّمَتْه الأوس ؛ قال رسول الله ـ ص ـ : «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟» ، قالوا : بلى ، قال رسول الله ـ ص ـ : «فذاك الى سعد ابن معاذ» .

وكان رسول الله ـ ص ـ بعد جرح سعدٍ قد جعله في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلم ، في مسجده ، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ، وقد أمر النبيُّ ـ ص ـ الأوسَ لما أُصيب سعد بالخندق قائلاً : «اجعلوه في خيمة رُفَيْدَة حتى أعوده من قريب» .

فلمّا حكَّمه رسولُ الله ـ ص ـ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمارٍ قد وَطَّأوا له بوسادةٍ من أدم ـ وكان رجلاً جسيماً جميلاً ـ ، وأقبلوا معه وهم يقولون له : ياأبا عمرو ؛ أحسِن في مواليك ، فان رسول الله ـ ص ـ إنما ولّاك ذلك لتُحسِن فيهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد أتى لسعدٍ أن لاتأخذه في الله لومة لائم .

وانتهى سعد الى رسول الله ـ ص ـ ، فقال النبي للمسلمين : «قوموا الى سيدكم» ، فقاموا اليه فقالوا : يا أبا عمرو ؛ إن رسول الله ـ ص ـ قد ولّاك أمر

مواليك لتحكم فيهم . فقال لهم سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمتُ ؟ . قالوا : نعم . قال سعد : فاني أحكم فيهم أن تُقتَل الرجال ؛ وُتقسَّم الأموال ؛ وُتسبى الذراري والنساء .

فقال رسول الله ـ ص ـ لسعدٍ : «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله ـ أو قال : ـ أصبتَ حكم الله ورسوله» .

ثم نُفِّذ حكم سعدٍ فيهم .

★★★

وأنزل الله تعالى فيما أنزل في محكم كتابه في معركة الخندق :

﴿ولمّا رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا : هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه ، وصَدَق اللهُ ورسولُه ، وما زادهم الاّ إيماناً وتسليماً﴾

الى قوله جلَّ وعلا :

﴿ورَدَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ ، وكان اللهُ قويّاً عزيزاً﴾ .

وألحق بذلك مما يخصُّ بني قريظة قولَه عزَّ من قائل :

﴿وأنْزَلَ الذين ظاهروهم من أهلِ الكتابِ من صَياصِيهِمْ ، وقَذَفَ في قلوبهم الرُّعْبَ ، فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً ، وأوْرَثكم أرضَهم وديارَهم وأموالهم وأرْضاً لم تَطَأوها ، وكان اللهُ على كل شيءٍ قديرا﴾ .

★ المصادر :

سيرة ابن هشام : ٣ / ٢٢٤ ـ ٢٥٣ .

طبقات ابن سعد : ٢ / ق ١ /٤٧ ـ ٥٦ .

تاريخ الطبري : ٢ / ٥٧١ ـ ٥٩٣ .

مَعْرَكَهْ خَيْبَرَ

أقام رسول الله ـ ص ـ بالمدينة أشهراً بعد عودته من الحديبية ، ثم خرج في سنة سبع من الهجرة الى خيبر ، لتصفية هذا الجيب المعادي الخطير الذي مازال يهدِّد استقرار الكيان الاسلامي الوليد ، ويشكِّل عنصرَ ضغطٍ دائم على جبهته الداخلية وأمنه الوطني .

ودفع رسولُ الله (ص) رايته العظمى ـ وكانت بيضاء ـ الى علي بن أبي طالب (ع) ؛ كما دفع راية اخرى الى الحُبَاب بن المنذر ؛ وثالثة الى سعد بن عبادة .

ومضى (ص) حتى نزل بجيشه وادياً يقال له الرَّجيع ؛ ففصل بين أهل خيبر وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر بسلاح أو رجال .

ولما سمعت غطفان بنيَّة رسول الله (ص) ومنزله جمعوا له ، ثم خرجوا للدفاع عن حلفائهم اليهود والتضامن معهم ضدَّه . حتى اذا ساروا مرحلةً سمع بعضُ الغطفانيين من خلفهم في أموالهم وأهاليهم حسّاً وحركة ، فظنوا ان المسلمين قد تسلَّلوا اليهم ، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهاليهم وأموالهم ، وخلّوا بين رسول الله ـ ص ـ وبين خيبر .

ولما أشرف رسول الله ـ ص ـ على خيبر قال لأصحابه : قفوا ، ثم توجَّه الى الله تعالى داعياً مبتهلاً ، وكان مما أُثِر من دعائه قوله :

«اللهمَّ ربَّ السماوات وما أظْلَلْنَ ؛ وربَّ الأرضين وما أقْلَلْنَ ؛ وربَّ الشَّياطين وما أضللن ؛ ورب الرياح وما أذرَيْن ، فإنّا نسألك خيرَ هذه القرية وخيرَ أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها» .

وبات رسول الله ـ ص ـ تلك الليلة حيث أقام ، وكان من ديدنه ـ ص ـ اذا غزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتى يُصبح ، فلما أصبح ركب نحو خيبر نفسها ، فرأوه العمال وهم غادون الى أعمالهم ؛ ورأوا الجيش الزاحف معه ، ففروا لا يلوون على شيء ، فتفاءل النبي خيراً بفرارهم وقال : «الله أكبر ، خربت خيبر ، إنّا اذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباحُ المنذَرين» .

وبدأ رسول الله ـ ص ـ بفتح الحصون الأدنى فالأدنى منها ، فافتتح حصنَ النَّطاة وحصنَ قلعة الزبير وحصنَ ناعمٍ ثم حصن الصَّعب بن معاذ ، حتى انتهى الى حصنيِ الوَطِيح والسُّلالم ـ وهما آخر حصون خيبر ـ فحاصرهما بضع عشرة ليلة .

وبعث رسول الله (ص) ـ لما أراد فتح آخر تلك الحصون ـ أبا بكر ومعه المقاتلون فقاتل ورجع ولم يك فتحٌ وقد جهدَ . ثم بعث في اليوم التالي عمرَ بن الخطاب على رأس اولئك المقاتلين ، فلقوا أهل خيبر ، فانكشف عمر وأصحابه ورجعوا الى رسول الله (ص) يُجَبِّن أصحابَه ويجبِّنونه . فقال رسول الله (ص) : «لأعطِينَّ الراية ـ أو : اللواءَ ـ غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه ويحبُّه اللهُ ورسوله ؛ يفتح الله على يديه ؛ ليس بفرّار» . فتمنّى كثير من السامعين أن يكون كلُّ واحدٍ منهم هو المنتخب لذلك ، وقال عمر : فما أحببتُ الامارة قبل يومئذٍ ؛ فتطاولتُ لها واستشرفتُ رجاءَ أن يدفعها إليَّ .

فلما كان من الغد ـ وقد تطاول لها من تطاول من الأصحاب ـ دعا النبي (ص) عليّاً (ع) وهو أرْمَد ، فتفل في عينيه ، وقال له : «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك» ، ونهض معه من الناس من نهض .

وخرج علي (ع) مسرعاً حتى أتى مدينة خيبر ، فركز الراية في رضمٍ من الحجارة تحت الحصن ، فخرج اليه أهل الحصن فقاتلهم ، ثم خرج مرحب فارتجز قائلاً :

قد علمتْ خيبر أني مرحبُ شاكي السلاح بطل مجرَّبُ

ـ الى آخر رجزه ـ ، فردَّ عليه عليٌّ (ع) مرتجزاً ـ فيما نُسِب اليه ـ فقال :

أنا الذي سمَّتْني أُمي حيدرَه كليث غاباتٍ كريه المنظرَهْ
أكيلهم بالصاع كَيْلَ السَّندرَهْ

واختلف عليٌ ومرحب بضربتين ، فضربه عليٌ على هامته حتى عض السيف منها باطنَ رأسه ، فجندل له على الأرض ، وسمع أهل العسكر صوت ضربته .

ثم تقدَّم رجل من اليهود يريد ضرب عليٍّ بسيفه فأصابت الضربةُ ترسَه فطاح من يده ، فتناول عليٌّ (ع) باباً كان عند الحصن فتترَّس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ فتقدم الى ذلك الباب ثمانية

نفر[1] يريدون قلبه فما استطاعوا .

وما إن تمَّ النصر بفتح خيبر وأخْذ الحصون من أيدي المسلَّحين اليهود ؛ حتى طلب أهلُها من النبي ـ ص ـ أن يوافق على نفيهم وحقن دمائهم ، فنفاهم . ثم انصرف ـ ص ـ متوجِّهاً الى وادي القرى ، ومنه الى المدينة .

واستُشهد في هذه المعركة ـ كما جاء في الاحصائيات التاريخية ـ خمسة عشر رجلاً من المسلمين . وقتل من اليهود فيها ثلاثة وتسعون رجلاً .

★ المصادر :

سيرة ابن هشام : ٣/٣٤٢ ـ ٣٥٨ .

طبقات ابن سعد : ٢/ق١/٧٧ ـ ٨٥ .

تاريخ الطبري : ٣/٩ ـ ١٦ .

---

(١) كذا ورد العدد في المصادر المنقول منها ، ولكن البيهقي في احدى رواياته يذكر : أن أربعين رجلاً لم يستطيعوا حمله ، ويقول في رواية اخرى له : انه اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب . دلائل النبوة : ٤/٢١٢ .

صُلْحُ الحُدَيْبِيَة
وَفَتْحُ مَكَّة

في أواخر سنة ست من الهجرة غادر رسول الله ـ ص ـ المدينة متوجهاً الى مكة ؛ بقصد الاعتمار وزيارة البيت ، لا يريد مجابهة ولا قتالاً ، وساق معه الهَدْيَ سبعين بَدَنَةً لإثبات نيته السلمية في هذا التوجه ، واستنفر مَنْ حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، ولم يكن معهم من السلاح الا السيوف في القُرُب ، ولكنه كان يخشى قريشاً أن تعرض له بحرب أو تصدّه عن البيت .

وخرج رسول الله ـ ص ـ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ـ وكان عددهم ما بين ألف واربعمائة وألف وستمائة ـ ، وأحرم بالعمرة ، حتى اذا كان بعسفان لقيه أحدُ الكعبيين فقال له : يا رسول الله ؛ هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد يقود خيلهم التي قدَّموها الى كراع الغميم .

فقال النبي ـ ص ـ : مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم التي هم بها؟ .

فتقدَّم رجلٌ من أسلم للارشاد والدلالة ، فسلك بهم طريقاً وعراً كثير الحجارة ، فلما خرجوا منه بعد مشقة ونَصَبٍ ؛ وأفضوا الى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، أمر رسولُ الله ـ ص ـ الناسَ أن يسلكوا ذات اليمين في طريقٍ تخرج على مهبط الحديبية من أسفل مكة ، فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلما رأت خيلُ طليعة قريش غبار الجيش من هذا الطريق رجعوا راكضين الى قومهم يعلمونهم بالأمر ويحذرونهم الجيش القادم .

وما إن انتهى رسول الله ـ ص ـ الى داخل ثنيَّة المرار حتى بركت ناقته ، فقال ـ ص ـ : حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم الى خطةٍ يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم إياها . ثم قال للناس : انزلوا . فقيل له : يا رسول الله ؛ ما بالوادي ماءٌ ننزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه ؛ فنزل به في قليبٍ من تلك القلب المهجورة فغرزه في جوفه ؛ فجاش بالماء الكثير .

فلما اطمأن رسول الله ـ ص ـ في مقامه هذا ، أتاه بُدَيل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلّموه وسألوه : ما الذي جاء به؟ ، فأخبرهم أنه لم يأتِ للحرب ، وانما جاء زائراً للبيت ومعظّماً لحرمته . فرجعوا الى قريش فأخبروهم بذلك ، فكان جواب قريش : إن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً .

وبعد مداولات طويلة وتبادل للرسل بين الطرفين ، بعثت قريش سهيل بن عمروٍ في عدة من الرجال الى رسول الله ـ ص ـ يطلبون المصالحة ؛ بشرط أن يرجع عنهم عامه هذا ، كي لا تقول العرب ان محمداً دخل مكة عنوةً على قريش .

فلما انتهى سهيل بن عمرو الى رسول الله ـ ص ـ تكلّم فأطال الكلام ، وتراجَعا كثيراً في المقال ، ثم اتفقا على الصلح .

ثم دعا رسولُ الله ـ ص ـ عليَّ بن أبي طالب ـ ع ـ فقال له : اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتبْ : باسمك اللهم .

فقال رسول الله ـ ص ـ : اكتب : باسمك اللهم . فكتبها .

ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه محمدٌ رسول الله سهيلَ بن عمرو .

فقال سهيل : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال رسول الله ـ ص ـ : اكتب : هذا ما صالح عليه محمدُ بن عبدالله سهيلَ إبن عمرو :

اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناسُ ؛ ويكفُّ بعضهم عن بعض ، على أنه مَنْ أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه رَدَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيبة مكفوفة ، وانه لا إسلال ولا إغلال ، وانه مَنْ أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمدٍ وعهده ، وتواثبت بنو بكرٍ فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

فلما فرغ رسول الله ـ ص ـ من إملاء الكتاب ؛ أشهد عليه رجالاً من المسلمين ومن المشركين . وقام الى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق رأسه ، فلما رأى المسلمون ان النبي قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون .

وتم الاتفاق على عدم دخول مكة هذا العام ، وعلى حقهم في دخولها في العام القابل ؛ وفي الاقامة بها ثلاثاً ، بشرط أن لا يكون معهم الا سلاح الراكب ، أي السيوف في القُرُب .

ثم انصرف رسول الله ـ ص ـ من وجهه ذلك قافلاً ، حتى اذا كان بين مكة والمدينة نزلت عليه سورة الفتح :

﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ، ويتمَّ نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ .

وكان مما أنزل الله في هذه السورة :

﴿لقد صدق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق لتدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلِّقين رؤوسَكم ومقصِّرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ .

وصدق اللهُ رسولَه حقّاً ـ وهو أصدق القائلين ـ ، إذ توجَّه النبي ـ ص ـ في شهر ذي القعدة من العام التالي للصلح في سنة سبع من الهجرة ؛ الى مكة المكرمة للعمرة وزيارة البيت ، وهي العمرة التي سُمِّيت في التاريخ «عمرة القضاء» ، لأنها كانت بمثابة القضاء عن تلك العمرة التي صدَّه المشركون عنها .

وخرج معه المسلمون ممن صُدَّ في السنة الماضية ، فلما سمع بقدومه أهلُ مكة خرجوا عنها الى رؤوس الجبال ، واصطفَّ له بعضهم عند دار الندوة لينظروا اليه والى أصحابه ، فدخل النبي ـ ص ـ مكة من الثنية التي تُطلِعُه على الحَجون ، وعبدالله بن رَواحة آخذ بزمام راحلته ، ثم طاف وطاف المسلمون معه ، وابن رواحة يرتجز ويقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكلُّ الخير مَعْ رسوله

ـ الى آخر الرجز ـ ، فقال عمر بن الخطاب مستنكراً هذا الرجز : يا ابن رواحة ؛ ايهاً . فقال رسولُ الله ـ ص ـ : يا عمر اني أسمع . فأسكت عمر .

ثم أكمل النبي ـ ص ـ مناسك العمرة ، وأقام بمكة ثلاثاً كما كان متفقاً عليه في وثيقة الصلح ، ثم انصرف الى المدينة .

★★★

وتحرَّكت الترات القديمة كالعادة في نفوس بني بكر ـ وكانوا قد دخلوا في عقد قريش في معاهدة الصلح ـ فاعتدوا على خزاعة للظفر بثأرٍ لهم منهم ، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح لأنهم حلفاؤهم ، وقاتل معهم من قريش مَنْ قاتل مستخفياً ، فحازوا خزاعة الى داخل مكة ، فلم يكن لخزاعة بدٌّ من اللجوء الى دار بُدَيل بن ورقاء .

ولما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ؛ وقتلوا منهم مَنْ قتلوا ؛ وأصابوا ما أصابوا ، ونقضوا بذلك ما كان بينهم وبين رسول الله ـ ص ـ من العهد والميثاق ؛ وكانت خزاعة في عقده وعهده . خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ـ ص ـ المدينة ، فحدَّثه بما حدث وطلب نصرته ، فقال له النبي ـ ص ـ : قد نُصِرْتَ يا عمرو .

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفرٍ من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ـ ص ـ فأخبروه بما أُصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين الى مكة فلقوا أبا سفيان بن حرب بعُسفان قد بعثته قريش الى رسول الله (ص) ـ وقد رَهِبوا ما صنعوا ـ ليشدَّ العقد ويزيد في المدة ، وليختبر نية النبي (ص) وموقفه مما وقع .

وقدم أبو سفيان المدينة فكلَّم رسول الله ـ ص ـ بالأمر فلم يرد عليه شيئاً وحاول أن يستعين ببعض المسلمين على ذلك فلم يجد مجالاً له للشفاعة عند هؤلاء .

فعاد الى مكة مطروداً ذليلاً ، وأعلم قريشاً بفشل جميع محاولاته ومساعيه .

ثم أمر رسول الله ـ ص ـ بالجهاز ، وأعلم الناسَ أنه سائر الى مكة ، وحثَّهم على الجدِّ وحسن التهيُّؤ . فتجهز الناس ، ومضى رسول الله ـ ص ـ لسفره ؛ وكان ذلك لعشر مضين من شهر رمضان ، وأوعب معه المهاجرون والأنصار فلم يتخلَّف عنه منهم أحد .

ولقي العباسُ بن عبدالمطلب ببعض الطريق ـ وقد كان خارجاً من مكة ـ موكبَ النبوة بكل عدَّته وأبَّهته فقال : واصباحَ قريشٍ ؛ واللهِ لئن دخل رسولُ الله ـ ص ـ مكة عنوةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش الى آخر الدهر . فعزم على العودة لايصال الخبر لقريش وحثِّهم على الخروج الى النبي ـ ص ـ ليستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة .

وسار العباس في طريق العودة باتجاه مكة فرأى أبا سفيان وصاحبَيْه وقد خرجوا يتحسَّسون الأخبار عن رسول الله ـ ص ـ ، فقال له العباس ـ وكان صديقه ـ : ويحك يا أبا سفيان ؛ هذا رسول الله ـ ص ـ في الناس ، فقال له أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ ، فقال العباس : واللهِ لئن ظفر بك ليضر بنَّ عنقك ؛ فاركبْ خلفي حتى آتيَ بك رسولَ الله ـ ص ـ فأستأمنه لك . فركب أبو سفيان خلفه حتى انتهى العباس الى رسول الله ـ ص ـ ، فقال له النبي : اذهب به يا عباس الى رحلك ؛ فاذا أصبحتَ فأْتِني به .

فذهب به العباس الى رحله ، فلما أصبح غدا به الى رسول الله ـ ص ـ ، فقال له النبي : ويحك يا أبا سفيان ؛ ألم يَأْنِ لك أن تعلم انه لا إله الا الله . قال : بأبي أنت وامي ! ؛ ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، واللهِ لقد ظننتُ أنْ لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد . قال النبي ـ ص ـ : ويحك يا أبا سفيان ؛ ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله . قال: بأبي أنت وامي ! ، أما هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئاً . فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا اله الا الله وان محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك . فتشهد ـ مضطراً ـ الشهادتين .

ثم ان العباس قال للنبي ـ ص ـ : يا رسول الله ؛ إن أبا سفيان رجلٌ يحبّ الفخر ؛ فاجعل له شيئاً يكون في قومه . فأمر النبي ـ ص ـ أن يُعلَنَ في الملإ : مَنْ

دخل دار أبي سفيان فهو آمِن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وذهب أبو سفيان لينصرف مع العباس ، فقال رسول الله ـ ص ـ لعمِّه : يا عباس ؛ احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرَّ به جنود الله فيراها . فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ـ ص ـ ، وبدأت القبائل تمرُّ على راياتها ، ثم مرَّ رسول الله ـ ص ـ بكتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم الا الحَدَق من الحديد . فلما رآها أبو سفيان قال للعباس : واللهِ يا أبا الفضل ؛ لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً . فقال له العباس : يا أبا سفيان ؛ إنها النبوة ، فالنَّجاء الى قومك . فجاء أبو سفيان الى قومه فصرخ بهم بأعلى صوته محذِّراً : يا معشر قريش ؛ هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد ؛ عملاً بما جاء في أمان النبي ـ ص ـ لهم .

وانتهى النبي ـ ص ـ الى ذي طوى ، وقسم جيشه هناك ، فدخل الزبير بن العوام في بعض الجيش من كُدىً ، ودخل سعد بن عبادة بالراية في باقي الجيش من كَدَاء وهو ينادي بأعلى صوته : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستَحَلُّ الحُرمة . فأسرع أحدُ القرشيين الى النبي ـ ص ـ يُخبره بنداء سعدٍ وقال له : مانأ من أن تكون له في قريش صولة . فقال النبي لعلي : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها ، وقيل : انه ـ ص ـ أمر بدفعها الى قيس بن سعد . ثم دخل رسول الله ـ ص ـ من أذَاخِرَ حتى نزل بأعلى مكة ، وضُربت له هنالك قبَّته .

واندفع بعض المشركين يرومون المقاومة والحرب فقُتِل منهم حوالي اثنى عشر رجلاً أو ثلاثة عشر ، وانهزم الباقون . وكان النبي ـ ص ـ قد عهد الى امراء جيشه حين أمرهم بدخول مكة أن لا يقاتلوا الا من قاتلهم ، واستثنى من ذلك نفراً سمّاهم فأمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة جزاء ما اقترفوا من جرائم وفظائع لا يمكن بإزائها أي عفوٍ وصفح وسماح .

ولما استقر المقام برسول الله ـ ص ـ في مكة ، واطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت ، فطاف به سبعاً ، ثم فُتِح له باب الكعبة فدخلها ، ثم وقف على بابها مستقبلاً

الناس وقد أحدقوا به واجتمعوا في المسجد ، فقال :

لا إلـه الا الله ، وحده لا شريك له ، صـدق وعده ، ونصر عبـده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كُلُّ مأثرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُـدَّعى فهو تحت قـدميَّ هاتـين ؛ الا سدانة البيت وسقاية الحاج . ألا وقتيلُ الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدِّيَة مغلَّظة .

وقال أيضاً :

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية . . النـاس من آدم وآدمُ من تراب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿يا أيها النـاس إنّا خلقنـاكم من ذكرٍ وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

ثم قال :

يا معشر قريش ؛ ما ترون أني فاعل فيكم؟

قالوا : خيراً ، أخٌ كريم ، وابن أخٍ كريم .

قال : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ، فأعتقهم رسول الله ـ ص ـ وقد أمكنه الله من رقابهم عنوةً وكانوا له فيئاً .

وكـان في المسجد ـ من شُهّـاد النبي ومستمعي كلامِـه ـ أبو سفيـان بن حرب وعتّاب بن أُسَيد والحارث بن هشام ، فقال عَتّاب لصاحبيه : لقد أكرم الله اسيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه مُحِقٌّ لا تَّبعتُه . فقال أبو سفيان : لا أقول شيئـاً ، لو تكلَّمتُ لأخْبَـرَتْ عني هذه الحصى . فخرج عليهم النبي ـ ص ـ فقال لهم : قـد علمتُ الذي قلتم ، ثم ذكـر ذلك لهم وأخبرهم به . فأسلم الحارث وعتّاب وقالا : نشهد انك رسول الله ، واللهِ ما اطَّلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك .

ثم أمـر ـ ص ـ بتحطيم جميـع الأصنام القـائمة في داخـل البيت والمبثوثـة في أطرافه ، وطمس كل بقايا الشرك والجاهلية من الصور والملصقات الوثنية .

وهكذا فتح الله لرسوله الفتح المبين ؛ ونصره النصر العزيز ، وانهارت أقوى قواعد الكفر وصروحه في جزيرة العرب ؛ باستسلام قريش ودخول مكة في نطاق دولة

الاسلام ، وكان ذلك في العشرين من شهر رمضان في سنة ثمان من الهجرة ، وقد شهد تلك الأفراح والمباهج من المسلمين جميع المقاتلين القادمين مع النبي ـ ص ـ وكان عددهم عشرة آلاف مقاتل .

وصدق رب العزة إذ أنزل في محكم كتابه المجيد :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم : اذا جاء نصرُ الله والفتح ، ورأيتَ الناسَ يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّابا﴾ .

---

* المصادر :

(في الحديبية) سيرة ابن هشام : ٣/ ٣٢١ ـ ٣٣٦ وطبقات ابن سعد : ٢/ق١/ ٦٩ ـ ٧٦ وتاريخ الطبري : ٢/ ٦٢٠ ـ ٦٤٠ .

(في عمرة القضاء) سيرة ابن هشام : ٤/ ١٢ ـ ١٤ وطبقات ابن سعد : ٢/ق١/ ٨٧ ـ ٨٩ وتاريخ الطبري : ٣/ ٢٣ ـ ٢٦ .

(في فتح مكة) سيرة ابن هشام : ٤/ ٣١ ـ ٦٩ وطبقات ابن سعد : ٢/ق١/ ٩٦ ـ ١٠٥ وتاريخ الطبري : ٣/ ٤٣ ـ ٦٤ .

مَعْرَكَةُ حُنَيْن

لمّا سمعت هَوازِنُ برسول الله ـ ص ـ وما فتح الله عليه من مكة وأطرافها ، جمعها مالك بن عوف النَّصري ، فاجتمع اليه مع هوازن ثقيفٌ كلها ، واجتمعت نَصْرٌ وجُشَمُ كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بني هلال وهم قليل . وتوجَّهوا نحو حرب رسول الله ـ ص ـ قبل أن ينقضَّ عليهم في عقر دارهم ، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، ونزلوا بأوطاس .

وبلغ خبرُ زحفهم نبيَّ الله ـ ص ـ وكان لمّا يزل بمكة ؛ فبعث رسولاً يتحسس أخبارهم ، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم عِلمَهم ثم يأتيه بخبرهم . فذهب الرسول فدخل فيهم وأقام حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من الحرب ، ثم أقبل فأخبر النبيَّ الخبر ، فأزمع رسول الله ـ ص ـ السير الى هوازن ليلقاهم ، فذُكِر له أن عند صفوان بن امية أدراعاً وسلاحاً وأن تحصيله وتسليح المسلمين به مما يزيد في قدرتهم القتالية وحمايتهم من ضربات الأعداء ، فأرسل الى صفوان قائلاً : «ياأبا امية ؛ أعِرْنا سلاحك هذا نلق فيه عدوَّنا غداً» ، فقال له صفوان : أغصباً يا محمد؟ ، قال : «بل عارية مضمونة حتى نؤديها اليك» ، قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح .

وخرج رسول الله ـ ص ـ من مكة للقاء أعدائه ، ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة ، وبلغوا في مسيرهم أرض حنين فانحدروا في وادٍ من أودية تهامة ، وكان القوم قد سبقوا المسلمين الى هذا الوادي فكمنوا في شعابه وأحنائه ومضائقه وقد أجمعوا وتهيَّأوا وأعَدُّوا . فبعث مالك بن عوف ثلاثة نفرٍ عيوناً يأتونه بخبر أصحاب رسول الله ـ ص ـ ، فرجعوا اليه وقد تفرَّقت أوصالهم من الرعب . فأوعز مالك الى أصحابه أن يباغتوا محمداً ومَنْ معه ويشدوا عليهم شدة رجل واحد ، فخرجت كتائب هوازن ورفاقهم من مضائق الوادي

وشُعَبِه ؛ وحملوا حملة واحدة ، فتراجع المسلمون وانكشفت خيلهم ؛ لا يلوي أحدٌ علىٰ أحد .

وانحاز رسول الله ـ ص ـ ذات اليمين ، ثم قال : «أين أيها الناس؟ هلموا إليَّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبدالله» ، فلم يلتفت المنهزمون الى ذلك ، ولم يثبت مع النبي سوى نفرٍ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

فلما انهزم الناس ؛ ورأى مَنْ كان مع رسول الله ـ ص ـ من جُفَاة أهل مكة تراجع المقاتلين وهزيمتهم ، تكلَّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضِّغن والشرك ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال آخر : ألاَ بطل السِّحْرُ اليوم ، وقال آخرون منهم قريباً من ذلك[1] .

ولما رأى رسول الله ـ ص ـ ما حدث بجيشه قال لعمه العباس ـ وكان صيِّتاً ـ : «يا عباس اصرخْ : يا معشر الأنصار ؛ يا معشر أصحاب السَّمُرة ؛ يا أصحاب سورة البقرة» ، فنادى بصوته الجهوري كما أمره النبي ، فأجابوا : لبيك لبيك ، وأقبلوا كأنهم الإبل اذا حنَّت على أولادها . وحملوا على المشركين ببأس وقوة ، فكان الرجل منهم يأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ؛ فيؤم الصوت حتى ينتهي الى رسول الله ـ ص ـ .

واستقبل المسلمون أعداءهم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكانت الدعوى أولَ ما كانت ـ كما أسلفنا ـ : يا لَلْأنصار ، ثم خلصتْ أخيراً : يا لَلْخزرج ـ وكانوا صُبُراً عند الحرب ـ . وأشرف رسول الله ـ ص ـ على المعركة ؛ فنظر الى مُجتَلَد القوم وهم يجتلدون فقال : «الآن حَمِيَ الوَطيس» .

وأقبل علي بن أبي طالب (ع) ومعه رجل من الأنصار يريدان صاحب راية هوازن ، فأتاه عليٌّ من خلفه فضرب عرقوبَيْ جمله ؛ فوقع على عجزه ، ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربةً أطَنَّ قَدَمَه بنصف ساقِه فسقط صريعاً . واجتلد

---

(١) هكذا ورد النص في المصادر التي نقلنا منها، وتقول رواية البيهقي : «اعتزل أبو سفيان وصفوان ومعاوية بن أبي سفيان وحكيم بن حزام وراء تل ينظرون لمن تكون الدَّبرة» . دلائل النبوة : ١٣١/٥ .

الناس ، فما رجعت راجعتُهم من هزيمتهم حتى وجدوا الاسارى مكتّفين عند رسول الله ـ ص ـ .

ولمّا فرّت هوازنُ استحرَّ القتل في ثقيف ؛ فقُتل مَن بني مالك سبعون رجلاً تحت رايتهم ، وقُتِل من أحلافهم رجلان .

وانهزم المشركون حتى أتوا الطائف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجّه بعضهم نحو نخلة ، وتبعتْ خيلُ رسول الله ـ ص ـ مَنْ سلك طريق نخلة من الناس ولم تتبع مَنْ سلك الثنايا .

ومرَّ رسول الله ـ ص ـ يومئذٍ بامرأة من الأعداء مقتولة والناسُ مزدحمون عليها ، فقال : «ما هذا؟» ، قالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد ، فقال رسول الله ـ ص ـ لبعض مَنْ كان معه : «أدرك خالداً فقل له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأةً أو عسيفاً» .

ثم جُمعت الى رسول الله ـ ص ـ سبايا حنين وأموالها ، فأمر بها الى الجعرانة فحُبستْ بها ، وكان السبي ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الابل والشاء ما لا يُدْرى ما عِدَّته . فراجعته هوازن في ذلك فردَّ السبايا الى أهلها ، ووزَّع الأموال على المسلمين ، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم ـ وهم الذين دخلوا حديثاً في الاسلام فأراد أن يتألَّفهم ويتألف بذلك قومهم ـ حصصاً من تلك الأموال ، وكان من جملة هؤلاء المؤلفة قلوبهم ـ فيما روى ابن اسحاق ـ : أبو سفيان وابنه معاوية .

ولما وزع رسولُ الله ـ ص ـ تلك المغانم على جميع من حضره من قريش وقبائل العرب باستثناء الأنصار ؛ وَجِدَ الأنصار في أنفسهم ، فأبلغه سعد بن عبادة ذلك ، فأمره أن يجمعهم ، فخرج سعد فجمعهم ، فلما اجتمعوا له أخبر النبيَّ ـ ص ـ باجتماعهم ، فأتاهم رسول الله ـ ص ـ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

«يا معشر الأنصار ؛ ما قالةٌ بلغَتْني عنكم ؛ وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ، ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله ؛ وعالةً فأغناكم الله ؛ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم!» .

قالوا : بلى ، اللهُ ورسوله أمَنُّ وأفضل .

قال : «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار»؟ .

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله؟ ، للّهِ ولرسوله المَنُّ والفضل .

قال ـ ص ـ :

«أما واللهِ لو شئتم لقلتم فلَصَدَقتم ولَصُدِّقتم : أتيتَنا مُكَذَّباً فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك . أوَجِدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعةٍ من الدنيا تألَّفتُ بها لِيُسْلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم . ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم؟ ، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناسُ شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شعبَ الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ؛ وأبناء الأنصار ؛ وأبناء أبناء الأنصار» .

فبكى القوم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظّاً . ثم انصرف رسولُ الله ـ ص ـ وتفرقوا .

واتّجه رسول الله ـ ص ـ نحو مكة ، فأهلَّ بعمرةٍ من الجعرانة ، ورجع بعد اكمال العمرة الى المدينة ؛ في بقية ذي القعدة أو في ذي الحجة من سنة ثمان .

وكان مما نزل من القرآن الكريم في هذه المعركة قوله عزَّ من قائل :

﴿لقد نصركم اللهُ في مواطن كثيرة ، ويومَ حنين إذ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً ، وضاقتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ ، ثم ولَّيتم مُدْبرين ، ثم أنزل اللهُ سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذَّب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين﴾ .

---

* المصادر :

سيرة ابن هشام : ٤/ ٨٠ ـ ١٤٣ .

طبقات ابن سعد : ٢/ق١/ ١٠٨ ـ ١١٣ .

تاريخ الطبري : ٣/ ٧٠ ـ ٨٢ .

الاحتجاج/ للطبرسي	النجف ١٣٥٠ هـ
الاستيعاب/ لابن عبدالبرّ ـ هامش الاصابة	القاهرة ١٣٥٨ هـ
أسد الغابة/ لابن الأثير	القاهرة ١٢٨٥ هـ
الاشتقاق/ لابن دريد	القاهرة ١٣٧٨ هـ
الاصابة/ لابن حجر العسقلاني	القاهرة ١٣٥٨ هـ
الأغاني/ لأبي الفرج الاصبهاني ـ ج ١٦	القاهرة (طبعة مصورة)
الأغاني/ لأبي الفرج الاصبهاني ـ ج ٢٢	القاهرة ١٣٩٣ هـ
إكمال الدين/ للصدوق	ايران ١٣٠١ هـ
أنساب الأشراف/ للبلاذري ـ ج ١	القاهرة ١٩٥٩ م
أنساب الأشراف/ للبلاذري ـ ج ٥	القدس ١٩٣٦ م
أوائل المقالات/ لمحمد بن محمد المفيد	ايران ١٣٧١ هـ
البداية والنهاية/ لابن كثير	القاهرة ١٣٥١ هـ
البيان في تفسير القرآن/ للخوئي	النجف ١٣٧٧ هـ
تاج العروس/ لمحمد مرتضى الزَّبيدي	القاهرة ١٣٠٦ هـ
التاريخ الكبير/ للذهبي ـ ج ١	القاهرة ١٩٧٥ م
تاريخ/ أبي الفدا	القاهرة ١٣٢٥ هـ
تاريخ/ الطبري	القاهرة ١٩٦٣ م
تاريخ/ اليعقوبي	النجف ١٣٥٨ هـ
التبيان في تفسير القرآن/ للطوسي	النجف ١٣٧٦ هـ
التبيين في أنساب القرشيين/ للمقدسي	الموصل ١٤٠٢ هـ
تذكرة الحفاظ/ للذهبي	الهند ١٣٧٥ هـ
تفسير/ ابن كثير	القاهرة ١٣٥٦ هـ
تفسير/ الرازي ـ المطبعة البهية ـ	لقاهرة (بلا تاريخ)

تفسير/ الطبري	القاهرة ١٣٧٣ هـ
تفسير/ القرطبي - ج ١٢	القاهرة ١٣٨٧ هـ
تنزيه الأنبياء/ للشريف المرتضى	النجف ١٣٥٠ هـ
التهذيب/ للطوسي	طهران ١٣٩٠ هـ
تهذيب التهذيب/ لابن حجر العسقلاني	الهند ١٣٢٥ هـ
جمهرة النسب/ للكلبي	بيروت ١٤٠٧ هـ
حديث الثقلين - إصدار دار التقريب بمصر	القاهرة ١٣٧٤ هـ
حلية الأولياء/ لأبي نعيم	بيروت ١٣٨٧ هـ
الخدعة/ لصالح الورداني	بيروت ١٤١٦ هـ
دلائل النبوة/ للبيهقي	بيروت ١٤٠٥ هـ
الدولة في عهد الرسول(ص) للدكتور صالح أحمد العلي	بغداد ١٤٠٩ هـ
ديوان/ أبي طالب - صنعة أبي هفان المهزمي	بغداد ١٤١٣ هـ
ديوان/ أبي طالب - صنعة علي بن حمزة البصري	بغداد ١٤١٣ هـ
ديوان/ كعب بن زهير	القاهرة ١٣٦٩ هـ
الرجال/ للنجاشي	الهند ١٣١٧ هـ
الرسول/ لبودلي - الترجمة العربية	القاهرة ١٩٤٦ م
الروض الأُنُف/ للسهيلي - طبعة دار الفكر	بيروت (بلا تاريخ)
سنن/ ابن ماجه	القاهرة ١٣٧٢ هـ
سنن/ ابي داود	القاهرة ١٣٧١ هـ
سنن/ الترمذي	القاهرة ١٣٨٥ هـ
السير والمغازي/ لمحمد بن اسحاق	بيروت ١٣٩٨ هـ
سير أعلام النبلاء/ للذهبي	بيروت ١٤٠٦ هـ
السيرة النبوية/ لابن هشام	بيروت ١٣٩١ هـ
شرح نهج البلاغة/ لابن أبي الحديد	القاهرة ١٣٧٨ هـ
صحيح/ البخاري - طبعة محمد علي صبيح	القاهرة (بلا تاريخ)
صحيح/ مسلم - طبعة محمد علي صبيح	القاهرة (بلا تاريخ)

الصواعق المحرقة/ لابن حجر الهيتمي	القاهرة ١٣١٢ هـ
الطبقات الكبرى/ لابن سعد	ليدن ١٣٢٢ هـ
العقد الفريد/ لابن عبد ربّه	القاهرة ١٣٨٥ هـ
الفهرست/ للطوسي	النجف ١٣٥٦ هـ
فهرست/ ابن خير الاشبيلي	؟ ١٣٨٢ هـ
الكافي/ لمحمد بن يعقوب الكليني	طهران ١٣٧٥ هـ
الكامل ـ في الادب ـ للمبرد ـ طبعة نهضة مصر	القاهرة (بلا تاريخ)
الكامل ـ في التاريخ/ لابن الأثير	القاهرة ١٣٤٨ هـ
الكشاف ـ في التفسير/ للزمخشري	القاهرة ١٣٨٧ هـ
لسان العرب/ لابن منظور	بيروت ١٣٧٤ هـ
مجلة/ المجمع العلمي العراقي ـ الجزء الاول	بغداد ١٣٦٩ هـ
مجلة/ المجمع العلمي العراقي ـ الاول من الثالث	بغداد ١٣٧٣ هـ
مجمع البيان في تفسير القرآن/ للطبرسي	صيدا ١٣٣٣ هـ
المحبر/ لمحمد بن حبيب	الهند ١٣٦١ هـ
مذاهب الاسلاميين/ للدكتور عبدالرحمن بدوي	بيروت ١٩٧١ م
مسند/ أحمد بن حنبل	بيروت ١٣٨٩ هـ
المغازي الاولى ومؤلفوها/ لهروفتس ـ الترجمة العربية	القاهرة ١٣٦٩ هـ
الملل والنحل/ للشهرستاني ـ هامش الفصل	بيروت (طبعة مصورة)
المناقب/ لابن شهراشوب السروي	طهران ١٣١٧ هـ
المنخول/ للغزالي	بيروت ١٣٩٠ هـ
منهاج السنة/ لابن تيمية	بولاق ١٣٢٢ هـ
النبوة/ لمحمد حسن آل ياسين	بيروت ١٣٩٨ هـ
نشأة علم التاريخ/ للدكتور عبدالعزيز الدوري	بيروت ١٩٦٠ م
النظام السياسي في الاسلام/ لأحمد حسين يعقوب	عمان ١٩٨٩ م
نهاية الأرب/ للنويري ـ ج ١٦ و١٨	القاهرة (طبعة مصوَّرة)
وفيات الأعيان/ لابن خلكان	القاهرة ١٣٦٧ هـ

فهرس مطالب الكتاب

الصفحة

آيات بيِّنات من القرآن المجيد ٥

المقدمة ..... ٧ ـ ٨

تمهيد ..... ٩ ـ ٣١

تحديد الموقف الموضوعي من مجموع روايات السيرة الشريفة . الرواة الأوائل الذين نُسِب اليهم التأليف في السيرة : عروة بن الزبير ، ابان بن عثمان ، وهب بن منبه ، شرحبيل بن سعد ، عاصم بن عمر ، الزهري ، موسى بن عقبة ، محمد بن إسحاق ، مُخْتَصِر السِّيرة ابنُ هشام .

تقسيم نصوص السيرة الى قسمين : القسم المقبول ؛ ولماذا كان مقبولاً ، القسم المرفوض وأسباب رفضه .

الولادة والنشأة ..... ٣٣ ـ ٤٠

الأقوال في تاريخ الولادة . نسب محمدٍ وجده . وفاة أمِّه . مرضعته . وفاة جدِّه عبدالمطلب . رعاية أبي طالب للنبي . نشأته . جماع صفاته ومواهبه .

الزواج والأزواج ..... ٤١ ـ ٥٢

الزوجة الاولى خديجة ، حبُّ النبي لها ووفاؤه لذكراها ، بعض الأحاديث النبوية في خديجة . طعون أعداء الاسلام في تعدُّد أزواج النبي . الروايات الموضوعة التي أعانت الأعداء على تلك الطعون . الأزواج الاخريات بعد خديجة .

الأبناء والبنات ..... ٥٣ ـ ٦٢

الأبناء . البنات . الشك في وجود بنات للنبي (ص) غير فاطمة . أدلة الشك .

الصفحة

البعثة ..... ٦٣ - ٧٦

نزول الوحي . متى كانت البعثة . أول من آمن خديجة . عليٌّ (ع) أول المؤمنين بعد خديجة . الصلاة . الأمر الإلهيُّ بإعلان الدعوة . اجتماع بني عبدالمطلب وحديث النبي معهم . تصدّي قريش لمحاربة هذا الدين . حماية أبي طالب ونصرته للنبي (ص) . هجرة المسلمين الى الحبشة . وفاة خديجة وأبي طالب . بعض ما لقي النبي (ص) في الطائف . اجتماع النبي ببعض الخزرج . لقاء العقبة الأول . اللقاء الثاني في العقبة . هجرة بعض المسلمين الى المدينة .

الإعجاز والمعجزات ..... ٧٧ - ٩٥

معنى المعجز . ضرورة صدور المعجز من كل مُدَّعٍ للنبوة . معجزة القرآن . فشل محاولات مباراة القرآن . المعجزات الاخرى غير القرآن : الإسراء ، هل كان بالروح أو البدن ؟ المعراج ، هل هو معجز آخر غير الإسراء . التشكيك في بعض قصص المعراج ورفض بعضها . انشقاق القمر ، بحث علمي معاصر في إثبات الانشقاق .

العصمة ..... ٩٧ - ١١١

معنى العصمة . لماذا تشترط العصمة في النبي . أقوال المذاهب الاسلامية في العصمة . الآيات القرآنية التي قد يُفْهَم منها ما يخالف العصمة ـ وهي عشر آيات ـ وبيان معناها .

الكتابة والقراءة ..... ١١٣ - ١٢٢

معنى الأُمِّيِّ . هل قرأ النبي (ص) وكتب بعد البعثة ؟ أقوال النافين . أقوال المثبتين . القول الأرجح في هذا الموضوع .

الصفحة

الهجرة وبناء الدولة ..... ١٢٣ - ١٤٠

السبب المباشر في توقيت الهجرة . قدوم النبي (ص) المدينة . تشييد المسجد النبوي . المؤاخاة . توفر الأركان الكبرى لقيام الدولة . مقوّمات قيام الحكومة . أسس النظام الدفاعي ، أسس النظام الاداري ، أسس النظام الاقتصادي ، أسس النظام الاجتماعي ، السياسية الخارجية للدولة .

حجة الوداع . غدير خم . خطاب النبي (ص) هناك في تعيين الامام بعده . العودة الى المدينة .

فاجعة المرض والوفاة ..... ١٤١ - ١٥٠

جيش أسامة . غضب النبي (ص) من تقاعس بعض المسلمين عن الالتحاق بهذا الجيش ولعن المتخلّفين . مرض رسول الله (ص) . رزية الخميس . اشتداد المرض بالنبي . وفاته . لمحات مما وقع بعد الوفاة . رأيُ باحثٍ معاصر في تحليل ما وقع .

المعارك الكبرى في العهد النبوي ..... ١٥١ - ٢١٦

معركة بدرٍ الكبرى ..... ١٥٣ - ١٦٥

معركة أُحُد ..... ١٦٧ - ١٨٠

معركة الخندق وبني قريظة ..... ١٨١ - ١٩٣

معركة خيبر ..... ١٩٥ - ١٩٩

صلح الحديبية وفتح مكة ..... ٢٠١ - ٢١٠

معركة حنين ..... ٢١١ - ٢١٦

فهرس المصادر والمراجع ..... ٢١٧ - ٢١٩

فهرس مطالب الكتاب ..... ٢٢١ - ٢٢٣